كتاب

كليلة ودمنة

تأليف

﴿ بيدبا الفيلسوف الهندى ﴾

ترجمه الى العربية فى صدر الدولة العباسية

﴿ عبد الله بن المقفع ﴾

قررت وزارة المعارف العمومية تدريسه في المدارس الاميرية

وقف على طبعه وضبط ألفاظه أحد أكابر العلماء

طبع على نفقة امين هندية

﴿ الطبعة السادسة ﴾

مطبعة امين هندية بمصر

سنة ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م

كتاب

كليلة ودمنة

تأليف

﴿ بيدبا الفيلسوف الهندى ﴾

ترجمه الى العربية في صدر الدولة العباسية

﴿ عبد الله بن المقفع ﴾

قررت وزارة المعارف العمومية تدريسه بالمدارس الاميرية

وقف على طبعه وضبط ألفاظه أحد أكابر العلماء

طبع على نفقة امين هنديه

﴿ الطبعة السادسة ﴾

مطبعة امين هندية بمصر

سنة ١٣٣٩ هـ — ١٩٢١ م



باب مقدمة الكتاب

قدّمها بهنود بن سحوان ويعرف بعليّ بن الشاه الفارسيّ . ذكر فيها السبب الذى من أجله عمل بيدبا الفيلسوف الهندىّ رأس البراهمة (١) لدبشليم ملك الهند كتابه الذى سماه كليلة ودمنة ؛ وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوامّ ، وضنا بما ضمنه عن الطغام ؛ وتنزيها للحكمة وفنونها ، ومحاسنها وعيونها ؛ إذ هى للفيلسوف مندوحة ، ولخاطره مفتوحة ؛ ولمحبها تثقيف ، ولطالبها تشريف . وذكر السبب الذى من أجله أنفذ كسرى أنوشروان بن قباذ بن فيروز ملك الفرس برزويه رأس الاطباء الى بلاد الهند لاجل كتاب كليلة ودمنة ؛ وما كان من تلطف برزويه عند دخوله الى الهند ؛ حتى حضر اليه الرجل الذى استنسخه له سرًّا من خزانة الملك ليلا ، مع ما وجد من كتب علماء الهند . وقد ذكر الذى كان من بعثة برزويه الى مملكة الهند لاجل نقل هذا الكتاب ؛ وذكر فيها ما يلزم مطالعه من إتقان قراءته والقيام بدراسته والنظر الى باطن كلامه ؛ وأنه إن لم يكن كذلك لم يحصل على الغاية منه . وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهراً . وقد ذكر السبب الذى من أجله وضع بزرجمهر باباً مفرداً يسمى باب برزويه المتطبب ، وذكر فيه شأن برزويه من أول أمره وآن مولده إلى أن بلغ التأديب ، وأحب الحكمة واعتبر (٢) فى أقسامها . وجعله قبل باب الاسد والثور الذى هو أول الكتاب

(١) البراهمة قوم لايجوّزون على الله بعثة الرسل (٢) اعتبر نظر

قال عليّ بن الشاه الفارسيّ : كان السبب الذى من أجله وضع بيدبا الفيلسوف لدبشليم ملك الهند كتاب كليلة ودمنة ، ان الاسكندرَ ذا القرنين الرُّوميّ لما فرغ من امر الملوك الذين كانوا بناحية المغرب ، سار يريد ملوك المشرق من الفرس وغيرهم : فلم يزل يحارب من نازعه ويواقع من واقعه ويسالم من وادعه من ملوك الفرس ، وهم الطبقة الأولى ، حتى ظهر عليهم وقهر من ناوأه وتغلب على من حاربه ؛ فتفرقوا طرائق[1] وتمزقوا حزائق[2]. فتوجه بالجنود نحو بلادالصين؛ فبدأ فى طريقه بملك الهند ليدعوه الى طاعته والدخول فى ملته وولايته . وكان على الهند فى ذلك الزمان ملك ذوسطوة وباس وقوّة ومراس ، يقال له فُوْرٌ . فلما بلغه اقبال ذى القرنين نحوه تأهب لمحاربته، واستعد لمجاذبته ؛ وضم اليه اطرافه ، وجدّ فى التالب[3] عليه ؛وجمع له العدة فى أسرع مدة من الفَيلة المعدة للحروب،والسباع المضراة بالوثوب؛ مع الخيول المسرجة والسيوف القواطع،والحراب[4] اللوامع . فلما قرُب ذو القرنين من فور الهندى و بلغه ما قد اعد له من الخيل التى كأنها قطع الليل ، مما لم يلقه بمثله احد من الملوك الذين كانوا فى الاقاليم، تخوف ذوالقرنين من تقصير يقع به ان عجّل المبارزة. وكان ذو القرنين رجلا ذا حيل ومكايد ، مع حسن تدبير وتجربة ، فرأى إعمال الحيلة والتمهل ، واحتفر خندقا على عسكره ؛ واقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير لامره ؛ وكيف ينبغى له ان يقْدِمَ على الايقاع به . فاستدعى بالمنجّمين ، وامرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرةَ عليه . فاشتغلوا بذلك.

(١) طرائق اى فرقا (٢) حزائق اى قطعا (٣) التألب التجمع (٤) جمع حربة

وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة الا اخذ الصناع المشهورين من صُنّاعها بالحذق من كل صنف . فأنتجت له همّته ودلته فطنتهُ ان يتقدمَ الى الصناع الذين معه في ان يصنعوا خيلا من نحاسٍ مجوّفة، عليها تماثيل من الرجال ، على بكرٍ تجري ، اذا دُفعت مرت سراعا . وامر اذا فرغوا منها ان تُحشى اجوافها بالنفط والكبريت ؛ وتلبس وتقدم امام الصف في القلب ؛ ووقت ما يلتقي الجمعان تُضْرَمُ فيها النيرانُ . فان الفيَلة اذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ، ولت هاربة . واوعز الى الصناع بالتشمير والانكماش(١) والفراغ منها . فجدّوا في ذلك وعجلوا . وقرب ايضا وقت اختيار المنجمين . فأعاد ذو القرنين رسله الى فورٍ بما يدعوه اليه من طاعته والاذعان لدولته . فأجاب جواب مصر على مخالفته ، مقيم على محاربته ؛ فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار اليه بأهبته ؛ وقدّم فور الفيلة امامه ، ودفعت الرجال تلك الخيلَ وتماثيلَ الفرسان ؛ فأقبلت الفيلة نحوها ، ولفت خراطيمَها عليها . فلما احست بالحرارة القت من كان عليها ، وداستهم تحت ارجلها ، ومضت مهزومة هاربة ، لا تلوى على شيء ولا تمر بأحد الاوطئته . وتَقَطَّعَ(٢) فور وجمعه ؛ وتبعهم اصحاب الاسكندر ؛ وأثخنوا فيهم الجراح . وصاح الاسكندر : ياملك الهند ابرُز الينا ، وأبقِ على عدتك وعيالك ، ولا تحملهم على الفناء . فانه ليس من المروءة ان يرمى الملك بعدّته في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة ، بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه . فابرز اليَّ ودع الجند ، فأينا قهر صاحبه فهو الاسعد . فلما سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعا فيه ؛ وظن ذلك

(١) الاسراع (٢) تفرق (٣) اكثروا من الاثخان في الشيء وهو المبالغة فيه والاكثار

فرصة . فبرز اليه الاسكندر فتجاولا على ظهرى فرسيهما ساعات من النهار ، ليس يلقى احدهما من صاحبه فرصة ؛ ولم يزالا يتعاركان . فلما اعيا الإسكندر امره ولم يجد له فرصة ولا حيلة اوقع ذوالقرنين فى عسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الارض والعساكر ؛ فالتفت فور عند ما سمع الزعقة ، وظنها مكيدةً فى عسكره ؛ فعاجله ذو القرنين بضربة امالته عن سرجه ، وتبعه باخرى ؛ فوقع على الارض . فلما رأت الهند ما نزل بهم ، وما صار اليه ملكهم ؛ حملوا على الاسكندر فقاتلوه قتالا احبوا معه الموت . فوعدهم من نفسه الاحسان ، ومنحه الله اكنافهم ؛ فاستولى على بلادهم ، وملك عليهم رجلا من ثقاته . واقام بالهند حتى استوثق[1] مما اراد من امرهم واتفاق كلمتهم ؛ ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم . ومضى متوجها نحو ماقصد له . فلما بعد ذوالقرنين عن الهند بجيوشه ، تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذى خلفه عليهم ؛ وقالوا ليس يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة والعامة ان يملكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من اهل بيوتهم . فانه لايزال يستذلهم و يستقلهم . واجتمعوا يملكون عليهم رجلا من اولاد ملوكهم ؛ فملكوا عليهم ملكا يقال له دبشليم ؛ وخلعوا الرجلَ الذى كان خلفه عليهم الاسكندر . فلما استوسق له الامر، واستقرَّ له الملك، طغى و بغى وتجبر وتكبر ؛ وجعل يغزوَ من حوله من الملوك . وكان مع ذلك مؤيدا مظفرا منصورا

(١) فى الاصل : (حتى استوسق له ما أراد) وفسر فى الحاشية (استوسق) باجتمع وأرى ان العبارة فيها تصحيف وتحريف من النساخ وأصلها ما أثبته فى المتن والمعنى ظاهر

فهابته الرعية . فلما رأى ماهو عليه من الملك والسطوة ، عبث بالرعية. واستصغر أمرهم وأساء السيرة فيهم . وكان لا يرتقى حاله الا ازداد عتوّا . فمكث على ذلك برهة من دهره . وكان فى زمانه رجل فيلسوف من البراهمة ، فاضل حكيم ، يعرف بفضله ، ويرجع فى الأمور الى قوله ، يقال له بيدبا . فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية ، فكّر فى وجه الحيلة فى صرفه عما هو عليه ، وردّه الى العدل والانصاف ؛ فجمع لذلك تلاميذه ، وقال : أتعلمون ما اريد أن اشاوركم فيه ؟ اعلموا انى اطلت الفكرة فى دبشليم وما هو عليه : من الخروج عن العدل ولزوم الشرّ ورداءة السيرة وسوء العشرة مع الرعية ؛ ونحن ما نروض انفسنا لمثل هذه الامور ، اذا ظهرت من الملوك ، إلا لنردّهم الى فعل الخير ولزوم العدل . ومتى اغفلنا ذلك وأهملناه لزم وقوع المكروه بنا وبلوغ المحذورات الينا ؛ اذ كنا فى أنفس الجهال اجهل منهم : وفى العيون عندهم أقلّ منهم . وليس الرأى عندى الجلاء عن الوطن . ولا يسعنا فى حكمتنا إبقاؤه على ما هو عليه من سوء السيرة وقبح الطريقة . ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا ولو ذهبنا الى ان نستعين بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته . وان احس منا بمخالفته وانكارنا سوء سيرته كان فى ذلك بوارنا . وقد تعلمون ان مجاورة السَّبُع والكلب والحية والثور على طيب الوطن ونضارة العيش لغدر بالنفس. وان الفيلسوف لحقيق ان تكون همته مصروفة الى ما يحصِّن به نفسه من نوازل المكروه ولواحق المحذور ؛ ويدفع المخوف لاستجلاب المحبوب . ولقد كنت اسمع ان فيلسوفا كتب لتلميذه يقول: إنّ مجاورة رجال السوء ومصاحبتهم كراكب البحر : إن سلم من

الغرق لم يسلم من المخاوف . فاذا هو اورد نفسه موارد المهلكات ومصادر المخوفات ، عُدَّ من الحمير التي لا نفسَ لها . لان الحيوانات البهيمية قد خصت في طبائعها بمعرفة ما تكتسب به النفع وتتوقّى المكروه : وذلك اننا لم نرها تورِدُ أنفسَها مَوردا فيه هلكتها . وانها متى أشرفت على مورد مهلكٍ لها ، مالت بطبائعها التي ركبت فيها ــ شحاً بأنفسها وصيانة لها ــ الى النفور والتباعد عنه . وقد جمعتكم لهذا الامر : لانكم أسرَتي ومكان سرّي وموضع معرفتي ؛ وبكم اعتضد ، وعليكم اعتمد . فان الوحيد في نفسه والمنفرد برأيه حيث كان فهو ضائع ولا ناصر له . على ان العاقل قد يبلغ بحيلته ما لا يبلغ بالخيل والجنود. والمثل في ذلك ان قُنبرةً(١) اتخذت أُدْحِيَّةً (٢) وباضت فيها على طريق الفيل ؛ وكان للفيل مشربٌ يتردد اليه . فمر ذات يوم على عادته ليرد مورده فوطئ عش القنبرة : وهشم بيضها وقتل فراخها . فلما نظرت ما ساءها ، علمت أن الذي نالها من الفيل لا من غيره . فطارت فوقعت على رأسه باكية ؛ ثم قالت : أيها الملك لِمَ هشمت بيضي وقتلت فراخي ، وأنا في جوارك ؟ افعلت هذا استصغارا منك لأمري واحتقارا لشأني ؟ قال : هو الذي حملني على ذلك . فتركته وانصرفت الى جماعة الطير ؛ فشكت اليها ما نالها من الفيل . فقلن لها وما عسى ان نبلغ منه ونحن طيور ؟ فقالت للعقاعق(٣) والغربان : أحبّ منكنّ ان تصرن معي اليه فتفقأن عينيه ؛ فاني أحتال له بعد ذلك بحيلة اخرى . فأجبنها الى ذلك ، وذهبن الى الفيل ، ولم يزلن

(١) الافصح فيها قبرة وهي طائر (٢) محلا تبيض فيه (٣) جمع عقعق وهو طير أبلق بسواد وبياض

ينقرن عينيه حتى ذهبن بهما . و بقى لا يهتدى الى طريق مطعمه ومشربه إلا مايلقمه من موضعه . فلما علمت ذلك منه ، جاءت الى غدير فيه ضفادع كثيرة،فشكت اليها مانالها من الفيل . قالت الضفادع ماحيلتنا نحن فى عظم الفيل ؟ وأين نبلغ منه ؟ قالت : احب منكن ان تصرن معى الى وهدة [١] قريبة منه ، فتنقنقن فيها ، وتضججن. فانه اذا سمع اصواتكن لم يشك فى الماء فهوى فيها . فأجبنها الى ذلك : واجتمعن فى الهاوية،فسمع الفيل نقيق الضفادع ، وقد اجهده العطش ، فأقبل حتى وقع فى الوهدة ، فارتطم [٢] فيها . وجاءت القنبرة ترفرف على رأسه ، وقالت : أيها الطاغى المغتر بقوته المحتقر لأمرى، كيف رأيت عظم حيلتى مع صغر جثتى عند عظم جثتك وصغر همتك ؟

فليُشر كل واحد منكم بما يسنح له من الرأي. قالوا بأجمعهم : أيها الفيلسوف الفاضل ، والحكيم العادل ، أنت المقدم فينا ، والفاضل علينا ، وما عسى ان يكون مبلغ رأينا عند رأيك، وفهمنا عند فهمك ؟ غير اننا نعلم ان السباحة فى الماء مع التمساح تغرير ، والذنب فيه لمن دخل عليه فى موضعه . والذى يستخرج السم من ناب الحية فيبتلعه ليجربه جان على نفسه ، فليس الذنب للحية . ومن دخل على الاسد فى غابته ، لم يامن من وثبته . وهذا الملك لم تفزعه النوائب ، ولم تؤدبه التجارب . ولسنا نأمن عليك ولا على أنفسنا سطوته . وانا نخاف عليك من سورته [٣] ومبادرته بسوء اذا لقيته بغير مايحب. فقال الحكيم بيدبا : لعمرى لقد قلتم فأحسنتم ، لكنّ ذا الرأى الحازم لا يدع ان يشاوِرَ من هو دونه او فوقه فى المنزلة . والرأى الفرد لا يُكْتَفَى به فى

(١) ارض منخفضة (٢) وقع ولم يمكنه الخروج (٣) سطوته واعتدائه



الخاصة ولا ينتفع به فى العامة . وقد صحت عزيمتى على لقاء دبشليم . وقد سمعت مقالتكم ؛ وتبين لى نصيحتكم والإشفاق علىّ وعليكم . غير انى قد رأيت رأياً وعزمت عزماً ؛ وستعرفون حديثى عند الملك ومجاوبتى اياه ؛ فاذا اتصل بكم خروجى من عنده فاجتمعوا الىّ . وصرفهم وهم يدعون له بالسلامة

ثم ان بيدبا اختار يوما للدخول على الملك ؛ حتى اذا كان ذلك الوقت التى عليه مُسوحه[1] وهى لباس البراهمة ؛ وقصد باب الملك ، وسأل عن صاحب إذنه وارشد اليه وسلم عليه ؛ وأعلمه وقال له : انى رجل قصدت الملك فى نصيحة . فدخل الآذن[2] على الملك فى وقته ؛ وقال : بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا ؛ ذكر ان معه للملك نصيحةً . فأذن له ؛ فدخل ووقف بين يديه وكفَّر[3] وسجد له واستوى قائما وسكت . وفكر دبشليم فى سكوته ؛ وقال : ان هذا لم يقصدنا إلا لأمرين : إما لالتماس شئ منا يصلح به حاله ؛ وإما لأمر لحقه فلم يكن له به طاقة . ثم قال : ان كان للملوك فضل فى مملكتها فان للحكماء فضلا فى حكمتها أعظم : لان الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم ؛ وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال . وقد وجدت العلم والحياء إلفين متآلفين لا يفترقان : متى فقد أحدهما لم يوجد الآخر ؛ كالمتصافيين ان عُدمَ منهما احد لم يطب صاحبه نفسا بالبقاء بعده تأسفا عليه . ومن لم يستحى من الحكماء ويكرمهم ، ويعرف فضلهم على غيرهم ، ويصنهم عن المواقف الواهنة ، وينزههم عن المواطن

(١) جمع مسح وهو الكساء من الشعر (٢) الحاجب (٣) عظم والكفر من معانيه تعظيم الفارسى لملكه والتكفير من معانيه ايماء الذى برأسه

الرذلة ، كان ممن حُرِمَ عقله ، وخسر دنياه ، وظلم الحكماء حقوقهم ، وعدَّ من الجهّال . ثم رفع رأسه الى بيدبا ، وقال له : نظرت اليك يابيدبا ساكتا لاتعرض حاجتك ، ولا تذكر بغيتك ، فقلت : ان الذى اسكته هيبةٌ ساورته او حيرة ادركته ؛ وتأملت عند ذلك من طول وقوفك ، وقلت : لم يكن لبيدبا ان يطرُقنا على غير عادة إلا لامر حركه لذلك ؛ فانه من افضل اهل زمانه . فهلا تساله عن سبب دخوله ؟ فان يكن من ضيم ناله ، كنت اولى مَن اخذ بيده وسارع فى تشريفه ، وتقدم فى البلوغ الى مراده واعزازه ؛ وان كانت بغيته غرضاً من اغراض الدنيا امرت بارضائه من ذلك فيما احب ؛ وان يكن من امر الملك ، ومما لا ينبغى للملوك ان يبذلوه من انفسهم ولا ينقادوا اليه ، نظرت فى قدر عقوبته ؛ على ان مثله لم يكن ليجترئ على ادخال نفسه فى باب مسألة الملوك ؛ وان كان شيئا من أمور الرعية يقصد فيه انى اصرف عنايتى اليهم ، نظرت ما هو ؛ فان الحكماء لا يشيرون إلا بالخير ، والجهال يشيرون بضده . وأنا قد فسحت لك فى الكلام . فلما سمع بيدبا ذلك من الملك افرخ روعه[(١)] وسُرِّىَ عنه[(٢)] ما كان وقع فى نفسه من خوفه ، وكفر له وسجد ؛ ثم قام بين يديه وقال : أول ما أقول : أسأل الله تعالى بقاء الملك على الابد ، ودوام ملكه على الامد : لان الملك قد منحنى فى مقامى هذا محلا جعله شرفا لى على جميع من بعدى من العلماء ؛ وذكرا باقيا على الدهر عند

(١) يقال : افرخ روعه اى ذهب فزعه وخوفه . وقال ابو الهيثم انما هو : افرخ رُوعه ومعناه خرج الرَّوع والفزع من رُوعه وهو موضع الرَّوع وهو القلب . (٢) زال عنه

الحكماء . ثم اقبل على الملك بوجهه ، مستبشرا به فرحًا بما بدا له منه، وقال : قد عطف الملك عليَّ بكرَمه واحسانه . والامر الذى دعانى الى الدخول على الملك ، وحملنى على المخاطرة لكلامه ، والاقدام عليه ، نصيحةٌ اختصصته بها دون غيره . وسيعلم من يتصل به ذلك انى لم اقصِّرْ عن غاية فيما يجب للمولى على الحكماء . فان فَسَحَ فى كلامى ووعاه عنى ، فهو حقيق بذلك وما يراه ؛ وان هو القاه ، فقد بلغت ما يلزمنى وخرجت من لوم يلحقنى. قال الملك : يا بيدبا تكلم كيف شئت : فانى مُصغٍ اليك ، ومُقبل عليك ، وسامع منك ، حتى أستفرغ ماعندك الى آخره ، وأجازيك على ذلك بما أنت أهله. قال بيدبا : انى وجدت الامور التى اختص بها الانسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء ، وهى جِمَّاع(١) مافى العلم ، وهى الحكمة والعفة والعقل والعدل. والعلم والادب والروية داخلة فى باب الحكمة. والحلم والصبر والوقار داخلة فى باب العقل. والحياء والكرم والصيانة والانفة داخلة فى باب العفة . والصدق والاحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة فى باب العدل . وهذه هى المحاسن ، واضدادها هى المساوى. فمتى كملت هذه فى واحد لم تخرجه الزيادة فى نعمة الى سوء الحظ من دنياه ولا الى نقص فى عقباه ، ولم يتأسف على ما لم يُعِن التوفيق ببقائه ، ولم يحزنه ماتجرى به المقادير فى ملكه ، ولم يدهش عند مكروه. فالحكمة كنز لا يفنى على انفاق ، وذخيرة لا يضرب لها بالاملاق(٢)،

---

(١) مجتمع أصله (٢) الاملاق معناه هنا كثرة الانفاق . ويضرب لها يسعى اليها لتستنفد ومعنى الجملة ان الحكمة ذخيرة لا تنفد على كثرة الانفاق

وخلّة لا تخلق(١) جدّتها ، ولذة لا تصرم(٢) مدتها . ولئن كنت عند مقامى بين يدى الملك أمسكت عن ابتدائه بالكلام ، ان ذلك لم يكن منى إلا لهيبتــه والاجلال له . ولعمرى ان الملوك لاهــل ان يهابوا ؛ لا سـيما من هو فى المنزلة التى جلّ فيها الملك عن منازل الملوك قبله . وقد قالت العلماء : آلزَم السكوت : فان فيه سلامــة ، وتجنب الكلام الفارغ : فان عاقبته الندامة . وحكى أن أر بعــة من العلماء ضمهم مجلس ملك ، فقال لهم : ليتكلم كل بكلام يكون أصــلا للأدب. فقال أحدهم: أفضل خلة العلم السكوت . وقال الثاني : ان من أنفع الاشـياء للانسان ان يعرف قدر منزلتــة من عقله . وقال الثالث : أنفع الاشياء للانسان ألا يتكلم بما لا يعنيه . وقال الرابع : أروح الامور على الانسان التسليم للمقادير . واجتمع فى بعض الزمان ملوك الاقاليم من الصين والهند وفارس والروم ؛ وقالوا : ينبغي أن يتكلم كل واحد منا بكلمة تدوّن عنه على غابر الدهر . فقال ملك الصين : أنا على ما لم أقل أقدَرُ منى على رد ما قلت . وقال ملك الهند : عجبت لمن يتكلم بالكلمة : فان كانت له لم تنفعه ، وان كانت عليه أوبقته(٣) . وقال ملك فارس : أنا اذا تكلمت بالكلمة ملكتنى ، واذا لم أتكلم بها ملكتها . وقال ملك الروم : ما ندمت على ما لم أتكلم به قط ، ولقد ندمت على ما تكلمت به كثيرا . والسكوت عنــد الملوك أحسن من الهذر الذى لا يرجع منه الى نفع . وأفضل(٤) ما استظل به الانسان لسانه . غـير أن الملك ، أطال الله مدته ، لمّا فسح لى فى الكلام

(١) لا تبلى (٢) لا تقطع (٣) اهلكته (٤) وفى نسخة وافضل ما ظل به الانسان لسانه

وأوسع لى فيه ؛ كان أولى ما أبدأ به من الامور التى هى غرضى أن يكون ثمرة ذلك له دونى ؛ وأن أختصه بالفائدة قبلى . على أن العقبى هى ما أقصد فى كلامى له ؛ وإنما نفعه وشرفه راجع اليه ؛ وأكون أنا قد قضيت فرضا وجب علىّ فاقول :

أيها الملك إنك فى منازل آبائك وأجدادك من الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك ، وشيدوه دونك ؛ و بنوا القلاع والحصون ، ومهدوا البلاد ، وقادوا الجيوش ؛ واستجاشوا العدة ، وطالت لهم المدة ؛ واستكثروا من السلاح والكراع(١) ؛ وعاشوا الدهور ، فى الغبطة والسرور ؛ فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر ؛ ولا استعمال الاحسان الى من خولوه ، والارفاق بمن ولوه ، وحسن السيرة فيما تقلدوه ؛ مع عظم ما كانوا فيه من غرة الملك(٢) ، وسكرة الاقتدار . وانك أيها الملك السعيد جده ، الطالع كوكب سعده ، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التى كانت عدتهم ؛ فأقمت فيما خولت من الملك ، وورثت من الاموال والجنود ؛ فلم تقم فى ذلك بحق ما يجب عليك ؛ بل طغيت و بغيت وعتوت وعلوت على الرعية ؛ وأسأت السيرة ؛ وعظمت منك البلية ؛ وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك ، وتتبع آثار الملوك قبلك ، وتقفو محاسن ما أبقوه لك ؛ وتقلع عما عاره لازم لك ، وشينه واقع بك ؛ تحسن النظر برعيتك ، وتسن لهم سنن الخير الذى يبقى بعدك ذكره ، ويعقبك الجميل فخره ؛ ويكون ذلك أبقى على السلامة وأدوم على الاستقامة . فان الجاهل المغتر من استعمل فى أموره البطر والأمنية ، والحازم اللبيب من ساس

(١) الكراع اسم يجمع الخيل وقيل الخيل والسلاح (٢) غروره

الملك بالمداراة والرفق ؛ فانظر أيها الملك ما ألقيت اليك ، ولا يثقلن ذلك عليك : فلم أتكلم بهذا ابتغاء غرض تجازيني به ، ولا التماس معروف تكافئني فيه ؛ ولكني أتيتك ناصحا مشفقا عليك .

فلما فرغ بيدبا من مقالته ، وقضى مناصحته ، أوغر صدر الملك فاغلظ له فى الجواب استصغارا لأمره ؛ وقال : لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحداً من أهل مملكتي يستقبلني بمثله ، ولا يقدم على ما أقدمت عليه . فكيف أنت مع صغر شأنك ؛ وضعف منّتك(١) وعجز قوتك . ولقد أكثرت اعجابي من اقدامك عليّ ، وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك . وما أجد شيئا فى تاديب غيرك أبلغ من التنكيل بك . فذلك عبرة وموعظة لمن عساه أن يبلغ ويروم مارمت أنت من الملوك اذا أوسعوا لهم فى مجالسهم. ثم أمر به أن يقتل ويصلب . فلما مضوا به فيما أمر ، فكر فيما أمر به فأحجم عنه ، ثم أمر بحبسه وتقييده . فلما حبس أنفذ فى طلب تلاميذه ومن كان يجتمع اليه ، فهربوا فى البلاد واعتصموا بجزائر البحار ؛ فمكث بيدبا فى محبسه أياما لا يسأل الملك عنه ، ولا يلتفت اليه ؛ ولا يجسر أحد أن يذكره عنده ؛ حتى اذا كان ليلة من الليالى سهد الملك سهدا شديدا (٢) ؛ فطال سهده ، ومد الى الفلك بصره ؛ وتفكر فى تفلك الفلك(٣) وحركات الكواكب ، فأغرق الفكر فيه ؛ فسلك به الى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك ، والمسألة عنه . فذكر عند ذلك بيدبا ، وتفكر فيما كلمه به ؛ فارعوى(٤) لذلك . وقال فى نفسه : لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف ، وضيعت

(١) قوتك (٢) ارق ارقا شديدا (٣) استدارة مدار النجوم (٤) ارعوى ارعواء نزع عن الجهل ورجع عنه

واجب حقه ؛ وحملني على ذلك سرعة الغضب . وقد قالت العلماء : أربعة لا ينبغى أن تكون فى الملوك : الغضب فانه أجد الاشياء مقتا ؛ والبخل فان صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده ؛ والكذب فانه ليس لأحد أن يجاوره ؛ والعُنْف فى المحاورة فان السفه ليس من شأنها . وإنى أتى إلىَّ رجل نصح لى ، ولم يكن مبلّغا ؛ فعاملته بضد ما يُستحق ، وكافأته بخلاف ما يستوجب . وما كان هذا جزاءه منى ؛ بل كان الواجب أن أستمع كلامهَ ، وأنقاد لما يشير به . ثم أنفذ فى ساعته من يأتيه به . فلما مَثَل بين يديه قال له : يا بيدبا ألست الذى قصدت الى تقصير همتى ، وعجزت رأيى فى سيرتى بما تكلمتَ به آنفا؟ قال له بيدبا : أيها الملك الناصح الشفيق ، والصادق الرفيق ، إنما نبأتك بما فيه صلاح لك ولرعيتك ، ودوام ملكك لك . قال له الملك : يابيدبا أعِدْ علىَّ كلامك كله ، ولا تدع منه حرفا إلا جئتَ به . فجعل بيدبا ينثر كلامه ، والملك مُصغٍ اليه . وجعل دبشليم كلما سمع منه شيئا ينكت الارض بشىء كان فى يده . ثم رفع طرفه الى بيدبا ، وأمره بالجلوس . وقال له يا بيدبا ، إنى قد استعذبت كلامك وحَسُنَ موقعه من قلبى . وأنا ناظر فى الذى أشرت به ، وعامل بما أمرت . ثم أمر بقيوده فحلت . وألقى عليه من لباسه ، وتلقاه بالقبول . فقال بيدبا : يأيها الملك ، إن فى دونك ما كلمتك به نُهْيَة لمثلك . قال : صدقت أيها الحكيم الفاضل . وقد وليتك من مجلسى هذا الى جميع أقاصى مملكتى . فقال له : أيها الملك أعفنى من هذا الامر : فانى غير مضطلع بتقويمه إلا بك . فأعفاه من ذلك . فلما انصرف ، علم ان الذى فعله ليس برأى ، فبعث فرده . وقال : انى فكرت فى اعفائك مما عرضته عليك

فوجدته لا يقوم الا بك ، ولا ينهض به غيرك ، ولا يضطلع به سواك . فلا تخالفني فيه . فأجابه بيدبا الى ذلك .

وكان عادة ملوك ذلك الزمان اذا استوزروا وزيرا أن يعقدوا على رأسه تاجا ، ويركب فى أهل المملكة ، ويطاف به فى المدينة . فأمر الملك ان يُفعَل ببيدبا ذلك . فوضعَ التاج على رأسه ، وركب فى المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والانصاف: يأخذ للدنى من الشريف ، ويساوى بين القوى والضعيف ؛ ورد المظالم ، ووضع سنن العدل ، وأكثر من العطاء والبذل . واتصل الخبر بتلاميذه فجاءوه من كل مكان ، فرحين بما جدّد الله له من جديد رأى الملك فى بيدبا ؛ وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا فى ازالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة ، واتخذوا ذلك اليومَ عيدا يعيدون فيه . فهو الى اليوم عيد عندهم فى بلاد الهند .

ثم ان بيدبا لما اخلى فكره من اشتغاله بدبشليم ، تفرّغ لوضع كتب السياسة ونشط لها ، فعمل كتبا كثيرة ، فيها دقائق الحيل . ومضى الملك على مارسم له بيدبا من حسن السيرة والعدل فى الرعية . فرغبت اليه الملوك الذين كانوا فى نواحيه ؛ وانقادت له الأمور على استوائها . وفرحت به رعيته واهل مملكته . ثم ان بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صِلتهم ، ووعدهم وعدا جميلا . وقال لهم : لست اشك انه وقع فى نفوسكم وقت دخولى على الملك ان قلتم: ان بيدبا قد ضاعت حكمته ، وبطلت فكرته : اذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغى ! فقد علمتم نتيجة رأيى وصحة فكرى . وانى لم آته جهلا به : لانى كنت

اسمع من الحكماء قبلى تقول : ان الملوك لها سَوْرة[١] كسورة الشراب فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء وادب الحكماء . والواجب على الملوك ان يتعظوا بمواعظ العلماء والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ، وتأديبها بحكمتها ، واظهار الحجة البينة اللازمة لهم : ليرتدعوا عما هم عليه من الإعوجاج والخروج عن العدل . فوجدت ما قالت العلماء فرضا واجبا على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم من رَقدتهم : كالطبيب الذى يجب عليه فى صناعته حفظ الاجساد على صحتها او ردها الى الصحة . فكرهت ان يموت او اموت وما يبقى على الارض إلا من يقول : انه كان بيدبا الفيلسوف فى زمان دبشليم الطاغى فلم يردّه عما كان عليه . فان قال قائل : انه لم يمكنه كلامُه خوفا على نفسه ، قالوا : كان الهرب منه ومن جواره أولى به ؛ والانزعاج عن الوطن شديد ؛ فرأيت ان أجود بحياتى ، فأكون قد اتيت فيما بينى و بين الحكماء بعدى عذرًا. فحملتها على التغرير[٢] او الظفر بما أريده . وكان من ذلك ما أنتم معاينوه : فانه يقال فى بعض الامثال : انه لم يبلغ احد مرتبة إلا باحدى ثلاث : اما بمشقة تناله فى نفسه ، وإما بوضيعة فى ماله او وكس فى دينه[٣] . ومن لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب . وان الملك دبشليم قد بسط لسانى فى ان أضع كتابا فيه ضروب الحكمة . فليضع كل واحد منكم شيئا فى اى فن شاء ؛ وليعرضه علىّ لانظرُ مقدار عقله، وأين بلغ من الحكمة فهمه . قالوا : أيها الحكيم الفاضل ، واللبيب العاقل ، والذى وهب

(١) حدة (٢) التعريض للهلاك (٣) حق التفصيل باما ان يقال : وإما بوكس فى دينه

لك ما منحك من الحكمة والعقل والادب والفضيلة ، ما خطر هذا بقلوبنا ساعة قط . وانت رئيسنا وفاضلنا ، وبك شرفنا ، وعلى يدك انتعاشنا . ولكن سنجهد انفسنا فيما امرت . ومكث الملك على ذلك من حسن السيرة زمانا يتولى ذلك له بيدبا ويقوم به .

ثم ان الملك دبشليم لما استقر له الملك ، وسقط عنه النظر فى أمور الاعداء بما قد كفاه ذلك بيدبا ، صرف همته الى النظر فى الكتب التى وضعتها فلاسفة الهند لآبائه واجداده ؛ فوقع(١) فى نفسه ان يكون له أيضا كتاب مشروح ينسب اليه ويذكر فيه ايامه كما ذكر آباؤه وأجداده من قبله . فلما عزم على ذلك ، علم انه لا يقوم ذلك الا بيدبا : فدعاه وخلا به ، وقال له : يا بيدبا ، انك حكيم الهند وفيلسوفها وانى فكرت ونظرت فى خزائن الحكمة التى كانت للملوك قبلى ؛ فلم أر فيهم احدا الا وقد وضع كتابا يذكر فيه ايامه وسيرته ، وينبئ عن ادبه واهل مملكته ؛ فمنه ما وضعه الملوك لأنفسها ، وذلك لفضل حكمة فيها ؛ ومنه ما وضعته حكماؤها . وأخاف ان يلحقنى ما لحق أولئك مما لا حيلة لى فيه ، ولا يوجد فى خزائنى كتاب أذكر به بعدى وأنسب اليه كما ذكر من كان قبلى بكتبهم . وقد احببت ان تضع لى كتابا بليغا تستفرغ فيه عقلك ؛ يكون ظاهره سياسة العامة وتاديبها ، وباطنه اخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته ؛ فيسقط بذلك عنى وعنهم كثير مما نحتاج اليه فى معاناة الملك . وأريد ان يبقى لى هذا الكتاب بعدى ذكرا على غابر الدهور . فلما سمع بيدبا كلامه خرّ له ساجدا ، ورفع رأسه وقال : أيها الملك السعيد جدّه ، علا نجمك ، وغاب نحسك ، ودامت أيامك ؛ ان الذى

قد طبع عليه الملك من جودة القريحة ووفور العقل حركه لمعالى الأمور ؛ وسمت به نفسه وهمته الى أشرف المراتب منزلة ، وأبعدها غاية ؛ وأدام الله سعادة الملك واعانه على ماعزم من ذلك ؛ وأعانني على بلوغ مراده . فليأمر الملك بما شاء من ذلك : فانى صائر الى غرضه ، مجتهد فيه برأيي . قال له الملك : يا بيدبا لم تزل موصوفا بحسن الرأى وطاعة الملوك فى أمورهم . وقد اختبرت منك ذلك ؛ واخترت ان تضع هذا الكتاب ، وتعمل فيه فكرك ، وتجهد فيه نفسك ، بغاية ما تجد اليه السبيل . وليكن مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة . فكفر له بيدبا وسجد ؛ وقال : قد اجبت الملك أدام الله أيامه الى ما أمرنى به ، وجعلت بينى وبينه أجلا . قال : وكم هو الاجل ؟ قال : سنة . قال : قد أجلتك ؛ وأمر له بجائزة سنية تعينه على عمل الكتاب : فبقى بيدبا مفكرا فى الاخذ فيه ؛ وفى أى صورة يبتدئ بها فيه وفى وضعه .

ثم ان بيدبا جمع تلاميذه وقال لهم : ان الملك قد ندبنى لأمر فيه فخرى وفخركم وفخر بلادكم ؛ وقد جمعتكم لهذا الأمر . ثم وصف لهم ما سأل الملك من أمر الكتاب ، والغرض الذى قصد فيه ؛ فلم يقع لهم الفكر فيه . فلما لم يجد عندهم ما يريده فكر بفضل حكمته ، وعلم ان ذلك أمر انما يتم باستفراغ العقل وإعمال الفكر ؛ وقال : أرى السفينة لا تجرى فى البحر الا بالملاحين : لانهم يعدلونها ؛ وانما تسلك اللجة بمدبرها الذى تفرد بامرتها(١) ؛ ومتى شحنت بالركاب الكثيرين وكثر ملاحوها لم يؤمن عليها من الغرق . ولم يزل يفكر فيما يعمله فى

(١) الرياسة

باب الكتاب حتى وضعه على الانفراد بنفسه ، مع رجل من تلاميذه كان يثق به؛ فخلا به منفردا معه ، بعد ان أعد من الورق الذى كانت تكتب فيه الهند شيئا ، ومن القوت ما يقوم به وتلميذه تلك المدة . وجلسا فى مقصورة ، وردّا عليهما الباب . ثم بدأ فى نظم الكتاب وتصنيفه ؛ ولم يزل هو يُملى ، وتلميذه يكتب ، ويَرجِع هو فيه ؛ حتى استقر الكتاب على غاية الاتقان والاحكام . ورتب فيه أربعة عشر باباً ؛ كل باب منها قائم بنفسه . وفى كل باب مسألة والجواب عنها ؛ ليكون لمن نظر فيه حظّ من الهِدَاية . وضمن تلك الابواب كتابا واحدا ؛ وسماه كتاب كليلة ودمنة . ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير : ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة . وضمنه أيضا ما يحتاج اليه الانسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته ، وجميع ما يحتاج اليه من أمر دينه ودنياه ، وآخرته وأولاه ؛ ويحضه على حسن طاعته للملوك ، ويجنبه ما تكون مجانبته خيرا له . ثم جعله باطنا وظاهرا كرسم سائر الكتب التى برسم الحكمة : فصار الحيوان لهوا ، وما ينطق به حكمة وأدباً . فلما ابتدأ بيدبا بذلك جعل أوّل الكتاب وَصْفَ الصديق ، وكيف يكون الصديقان ، وكيف تُقْطَعُ المودّة الثابتة بينهما بحيلة ذى النميمة . وأمر تلميذه ان يكتب على لسان بيدبا مثل ما كان الملك شرطه فى ان جعله لهوا وحكمة . فذكر بيدبا ان الحكمة متى دخلها كلام النقلة أفسدها واستجهل حكمتها . فلم يزل هو وتلميذه يعملان الفكر فيما سأله الملك ؛ حتى فتق لهما العقل ان يكون كلامهما على لسان بهيمتين . فوقع لهما مَوْضِعُ اللهو والهزل بكلام البهائم . وكانت الحكمة ما نطقا به . فاصغت الحكماء

الى حكمه وتركوا البهائم واللهو، وعلموا انها السبب فى الذى وُضِعَ لهم. ومالت اليه الجهال عجبا من محاورة بهيمتين. ولم يشكوا فى ذلك؛ واتخذوه لهوا، وتركوا معنى الكلام ان يفهموه، ولم يعلموا الغرض الذى وُضِعَ له: لان الفيلسوف انما كان غرضه فى الباب الاول ان يخبر عن تواصل الاخوان كيف تتأكد المودة بينهم على التحفظ من اهل السِعاية(١) والتحرز ممن يوقع العداوة بين المتحابَّين: ليجرّ بذلك نفعا الى نفسه. فلم يزل بيدبا وتلميذه فى المقصورة، حتى استتما عمل الكتاب فى مدة سنة. فلما تم الحول أنفذ اليه الملك ان قد جاء الوعد، فماذا صنعت؟ فأنفذ اليه بيدبا: انى على ما وعدت الملك. فليأمرنى بحمله، بعد ان يجمع اهل المملكة: لتكون قراءتى هذا الكتاب بحضرتهم. فلما رجع الرسول الى الملك سرّ بذلك، ووعده يوما يجمع فيه اهل المملكة. ثم نادى فى أقاصى بلاد الهند ليحضروا قراءة الكتاب. فلما كان ذلك اليوم، أمر الملك ان ينصب لبيدبا سرير مثل سريره؛ وكراسى لأبناء الملوك والعلماء. وأنفذ فاحضره. فلما جاءه الرسول قام فلَبِسَ الثياب التى كان يلبسها اذا دخل على الملوك: وهى المسوح السود، وحمل الكتاب تلميذه. فلما دخل على الملك وثب الخلائق باجمعهم، وقام الملك شاكرا. فلما قرب من الملك كفر له وسجد، ولم يرفع رأسه. فقال له الملك: يا بيدبا ارفع رأسك؛ فان هذا يوم هناءة وفرح وسرور، وأمره ان يجلس. فحين جلس لقراءة الكتاب، سأله عن معنى كل باب من أبوابه؛ والى أى شىء قصد فيه. فأخبره بغرضه فيه، وفى كل باب. فازداد الملك منه تعجُّبا

(١) السعاية الوِشاية والنميمة

وسرورا . فقال له : يا بيدبا ما عَدَوْتَ الذى فى نفسى ؛ وهذا الذى كنت اطلب ؛ فاطلب ما شئت وتحكم . فدعا له بيدبا بالسعادة وطول الجد . وقال : أيها الملك اما المال فلا حاجة لى فيه ، وأما الكسوة فلا اختار على لباسى هذا شيئا ؛ ولستُ أُخْلِى المَلِكَ من حاجة . قال الملك : يا بيدبا ما حاجتك ؟ فكل حاجة لك قِبلنا مقضية . قال : يأمر المَلِكُ ان يُدَوِّنَ كتابى هذا كما دوّن آباؤه وأجداده كُتُبَهُم ، و يأمر بالمحافظة عليه : فانى اخاف ان يخرج من بلاد الهند ، فيتناوله أهل فارس اذا علموا به ؛ فالملك يأمرُ ألا يخرج من بيت الحِكْمة . ثم دعا الملك بتلاميذه وأحسن لهم الجوائز . ثم انه لما ملك كسرى أنوشِرْوَانَ وكان مستأثرا بالكتب والعلم والادب والنظر فى اخبار الاوائل وقع له خبر الكتاب ؛ فلم يقرّ قراره حتى بعث بُرْزَوَيْهِ الطبيب وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند فاقره فى خزائن فارس

بابُ بعثة برزويه الى بلاد الهند

أما بعد فان الله تعالى خلق الخلق برحمته ، ومنّ على عباده بفضله وكَرَمه ، ورزقهم ما يقدرون به على اصلاح معايشهم فى الدنيا ، ويدركون به استنقاذ أرواحهم من العذاب فى الآخرة . وأفضل مارزقهم الله تعالى ومنّ به عليهم العقل الذى هو الدعامة لجميع الاشياء، والذى لا يقدر أحد فى الدنيا على إصلاح معيشته ولا احراز نفع ولا دفع ضرر الا به . وكذلك طالب الآخرة المجتهد فى العمل المنجى به روحه لا يقدر على اتمام عمله واكماله الا بالعقل الذى هو سبب كل خير

ومفتاح كل سعادة . فليس لأحد غنى عن العقل . والعقل مكتسب بالتجارب والادب . وله غريزة مكنونة فى الانسان كامنة كالنار فى الحجر لا تظهر ولا يُرى ضوءها حتى يقدحها قادح من الناس ؛ فاذا قدحت ظهرت طبيعتها . وكذلك العقل كامن فى الانسان لا يظهر حتى يظهره الادب وتقوّيه التجارب . ومن رُزق العقل ومُنَّ به عليه وأعين على صدق قريحته بالادب حرص على طلب سعد جدّه ، وأدرك فى الدنيا أمله ، وحاز فى الآخرة ثواب الصالحين . وقد رزق الله الملك السعيد أنوشروان من العقل افضله ، ومن العلم أجزله ، ومن المعرفة بالامور أصوبها ، ومن الافعال أسدّها ، ومن البحث عن الاصول والفروع انفعه ؛ وبلغه من فنون اختلاف العلم ، وبلوغ منزلة الفلسفة ، ما لم يبلغه ملك قط من الملوك قبله ؛ حتى كان فيما طلب وبحث عنه من العلم ان بلغه عن كتاب بالهند ، علم انه أصل كل أدب ورأس كل علم ، والدليل على كل منفعة ، ومفتاح عمل الآخرة وعلمها ، ومعرفة النجاة من هولها ؛ فأمر الملك وزيره بُزُرْجمهر ان يبحث له عن رجل اديب عاقل من اهل مملكته ، بصير بلسان الفارسية ، ماهر فى كلام الهند ؛ ويكون بليغا باللسانين جميعا ، حريصا على طلب العلم ، مجتهدا فى استعمال الادب ، مبادرا فى طلب العلم ، والبحث عن كتب الفلسفة . فأتاه برجل أديب كامل العقل والأدب ، معروف بصناعة الطب ، ماهر فى الفارسية والهندية يقال له برزويه ؛ فلما دخل عليه كفّر وسجد بين يديه . فقال له الملك : يا برزويه ، انى قد اخترتك : لما بلغنى من فضلك وعلمك وعقلك ، وحرصك على طلب العلم حيث كان . وقد بلغنى عن كتاب بالهند مخزون فى خزائنهم ، وقص عليه

ما بلغه عنه . وقال له : تجهز فانى مرَحِلُك الى ارض الهند ؛ فتلطف بعقلك وحسن أدبك وناقد رأيك ، لاستخراج هـذا الكتاب من خزائنهم ومن قِبل علمائهم ؛ فتستفيد بذلك وتفيدنا . وما قَدَرتَ عليه من كتب الهند مما ليس فى خزائننا منه شئ فاحمله معك ؛ وخذ معك من المال ما تحتاج اليه ، وعجل ذلك ، ولا تقصر فى طلب العلوم وان اكثرت فيه النفقة : فان جميع ما فى خزائنى مبذول لك فى طلب العلوم. وأمر باحضار المنجمين : فاختاروا له يوما يسير فيه ، وساعة صالحة يخرج فيها . وحمل معه من المال عشرين جرَابا ؛ كل جراب فيه عشرة آلاف دينار . فلما قدم برزويه بلاد الهند طاف بباب الملك ومجالس السوقة(١) ، وسأل عن خواص الملك والاشراف والعلماء والفلاسفة ؛ فجعل يغشاهم فى منازلهم ، ويتلقاهم بالتحية ، ويخبرهم بانه رجل غريب قدم بلادَهم لطلب العلوم والادب ، وانه محتاج الى مُعاونتهم فى ذلك. فلم يزل كذلك زمانا طويلا يتأدب عن علماء الهند بما هو عالم بجميعه ؛ وكأنه لا يعلم منه شيئا ؛ وهو فيما بين ذلك يستر بغيتَه وحاجتَه. واتخذ فى تلك الحالة لطول مقامه اصدقاء كثيرة من الاشراف والعلماء والفلاسفة والسوقة ومن اهل كل طبقة وصناعة ؛ وكان قد اتخذ من بين اصدقائه رجلا واحدا قد اتخذه لسرِّه وما يحب مشاورته فيه : للذى ظهر له من فضله وأدبه ، واستبان له من صحة اخائه ؛ وكان يشاوره فى الامور ، ويرتاح اليه فى جميع ما اهمه . الا انه كان يكتم منه الامر الذى قدم من اجله لكى يبلوَهُ ويُخبِرَهُ ، وينظر هل هو أهل ان يُطلِعَه على سرّه . فقال له يوما وهما جالسان : يا أخى ما أريد ان

(١) الرعية

اكتمك من أمرى فوق الذى كتمتك . فاعلم انى لأمر قدمت، وهو غيرُ الذى يظهر منى ؛ والعاقل يكتفى من الرجل بالعلامات من نظره، حتى يعلم سر نفسه وما يضمره قلبه . قال له الهندى : انى وان لم أكن بدأتك وأخبرتك بما جئت له ، واياه تريد ؛ وانك تكتم أمرا تطلبه ، وتظهر غيره ؛ ماخفى علىّ ذلك منه . ولكنى لرغبتى فى إخائك، كرهت ان أواجهك به ، وانه قد استبان ما تخفيه منى . فأما إذ قد أظهرتَ ذلك ، وأفصحت به وبالكلام فيه ، فانى مخبرك عن نفسك ، ومظهر لك سريرتك ، ومعلمك بحالك التى قدمت لها : فانك قدمت بلادنا لتسلبنا كنوزنا النفيسة ، فتذهبُ بها الى بلادك ، وتُسرّ بها ملكك . وكان قدومك بالمكر والخديعة . ولكنى لما رأيت صبرك ، ومواظبتك على طلب حاجتك ، والتحفظَ من ان يسقطَ منك الكلام ، مع طول مكثك عندنا ، بشئ يستدل به على سريرتك وأمورك ؛ ازددت رغبة فى إخائك ، وثقة بعقلك، فاحببت مودتك . فانى لم أر فى الرجال رجلا هو أرصن(١) منك عقلا ، ولا أحسن أدبا ، ولا أصبر على طلب العلم ولا اكتم لسره منك ؛ ولا سيما فى بلاد غربة ، ومملكة غير مملكتك ، عند قوم لا تعرف سنتهم . وان عقل الرجل ليبين فى ثمانى خصال : الاولى الرفق . والثانية ان يعرف الرجل نفسه فيحفظها . والثالثة طاعة الملوك ، والتحرى لما يرضيهم . والرابعة معرفة الرجل موضع سره ، وكيف ينبغى ان يطلع عليه صديقه . والخامسة ان يكون على أبواب الملوك اديبا مَلق اللسان(٢) . والسادسة ان يكون لسره وسر غيره حافظا . والسابعة ان يكون على لسانه قادرا ، فلا يتكلم الا بما يأمن

(١) اثبت (٢) متوددا متلطفا

تبعته. والثامنة ان كان بالمحفل لا يتكلم الا بما يسأل عنه. فمن اجتمعت فيه هذه الخصال كان هو الداعي الخير الى نفسه. وهذه الخصال كلها قد اجتمعت فيك، وبانت لى منك. فالله تعالى يحفظك، ويعينك على ما قدمت له؛ فمصادقتك اياى، وان كانت لتسلبنى كنزى وفخرى وعلمى، تجعلك أهلا لأن تسعف بحاجتك، وتشفع بطَلِبتك[1]، وتعطى سؤلك[2]. فقال له برزويه: انى قد كنت هيأت كلاما كثيرا، وشعبت له شعوبا، وأنشأت له أصولا وطرقا؛ فلما انتهيت الى ما بدأتنى به من اطلاعك على أمرى والذى قدمت له؛ وألقيته علىّ من ذات نفسك، ورغبتك فيما ألقيت من القول، اكتفيت باليسير من الخطاب معك، وعرفت الكبير من أمورى بالصغير من الكلام؛ واقتصرت به معك على الايجاز. ورأيت من إسعافك إياى بحاجتى مادلنى على كرمك وحسن وفائك: فان الكلام اذا أُلقى الى الفيلسوف والسرّ اذا استودع الى اللبيب الحافظ، فقد حصن وبلغ به نهاية امل صاحبه، كما يحصن الشيء النفيس فى القلاع الحصينة. قال له الهنديّ: لاشيء أفضل من المودة. ومن خلَصت مودته كان أهلا ان يخلطه الرجل بنفسه، ولا يدخر عنه شيئا، ولا يكتمه سرًّا: فان حفظ السرّ رأس الادب. فاذا كان السرّ عند الامين المكتوم فقد احترز من التضييع؛ مع انه خليق ألاّ يتكلم به؛ ولا يتمّ سرّ بين اثنين قد علماه وتفاوضاه. فاذا تكلم بالسرّ اثنان فلا بد من ثالث من جهة أحدهما؛ فاذا صار الى الثلاثة فقد شاع وذاع، حتى لا يستطيع صاحبه ان يجحده ويكابر عنه: كالغيم اذا كان متقطعاً في السماء فقال قائل:

(١) مطلوبك (٢) المسئول

هذا غير منقطع ، لا يقدر أحد على تكذيبه . وأنا قد يداخلني من مودتك وخلطتك(١) سرور لا يعدله شيء . وهذا الامر الذى تطلبه منى اعلم انه من الاسرار التى لا تكتم ؛ فلا بدّ ان يفشو ويظهر ، حتى يتحدّث به الناس . فاذا فشا فقد سعيتَ فى هلاكى هلاكا لا اقدر على الفداء منه بالمال وان كثر : لان ملكنا فظ غليظ ، يعاقب على الذنب الصغير اشد العقاب ؛ فكيف مثل هذا الذنب العظيم ؟ واذا حملتنى المودة التى بينى وبينك فأسعفتك بحاجتك لم يردّ عقابه عنى شيء . قال برزويه : ان العلماء قد مدحت الصديق اذا كتم سرّ صديقه وأعانه على الفوز . وهذا الامر الذى قدمت له ، لمثلك ذخرته وبك أرجو بلوغه ؛ وأنا واثق بكرم طباعك ووفور عقلك . واعلم انك لا تخشى منى ولا تخاف ان أبديه ؛ بل تخشى أهل بيتك الطاعنين بك وبالملك ان يسعوا بك اليه . وأنا أرجو ان لا يشيع شيء من هذا الامر : لانى أنا ظاعن وأنت مقيم ؛ وما أقمت فلا ثالث بيننا . فتعاهدا على هذا جميعا . وكان الهندىّ خازن الملك ، وبيده مفاتيح خزائنه. فأجابه الى ذلك الكتاب والى غيره من الكتب . فأكبّ على تفسيره ونقله من اللسان الهندىّ الى اللسان الفارسىّ ؛ وأتعب نفسه ، وأنصب بدنه ليلا ونهارا . وهو مع ذلك وجل وفزع من ملك الهند ؛ خائف على نفسه من ان يذكر الملك الكتاب فى وقت ولا يصادفه فى خزائنه . فلما فرغ من انتساخ الكتاب وغيره مما أراد من سائر الكتب ، كتب الى أنوشروان يعلمه بذلك . فلما وصل اليه الكتاب ، سرّ بذلك سروراً شديدا ؛ ثم تخوف معاجلة المقادير ان تنغّص عليه

(١) عشرتك

فرحه ؛ فكتب الى برزويه يأمره بتعجيل القدوم . فسار برزويه متوجها نحو كسرى . فلما رأى الملك ما قد مسّه من الشّحوب(١) والتعب والنصب ، قال له : أيها العبد الناصح الذى يأكل ثمرة ماقد غرس، أبشر وقرّ عينا : فانى مشرّفك وبالغ بك أفضلَ درجة. وأمره ان يريح بدنه سبعة أيام . فلما كان اليوم الثامن ، أمر الملك ان يجتمع اليه الامراء والعلماء . فلما اجتمعوا ، أمر برزويه بالحضور . فحضر ومعه الكتب ؛ ففتحها وقرأها على من حضر من اهل المملكة . فلما سمعوا مافيها من العلم فرحوا فرحا شديدا ؛ وشكروا الله على مارزقهم، ومدحوا برزويه وأثنوا عليه ؛ وأمر الملك ان تُفتح لبرزويه خزائن اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؛ وأمره ان يأخذ من الخزائن ما شاء من مال او كُسْوَة ؛ وقال : يا برزويه إنى قد أمرت ان تجلس على مثل سريرى هذا ، وتلبس تاجا ، وتترأس على جميع الاشراف. فسجد برزويه للملك ودعا له وطلب من الله وقال: أكرمَ الله تعالى الملك كرامة الدنيا والآخرة ، وأحسن عنى ثوابه وجزاءه : فانى بحمد الله مستغن عن المال بما رزقنى الله على يد الملك السعيد الجد ، العظيم الملك ؛ ولا حاجة لى بالمال ؛ لكن لما كلفنى الملك ذلك وعلمت انه يسره ، أنا أمضى الى الخزائن فآخذ منها طلبا لمرضاته وامتثالا لأمره . ثم قصد خزانة الثياب فاخذ منها تختا(٢) من طرائف خراسان من ملابس الملوك . فلما قبض برزويه ما اختاره ورضيه من الثياب قال : أكرم الله الملك ومد فى عمره أبدا . لابد أن الانسان اذا أكرم وجب عليه الشكر ؛ وان كان قد استوجبه تعبا ومشقة :

(١) تغيُّر اللون من السفر ونحوه (٢) وعاء تصان فيه الثياب

فقد كان فيهما رضا الملك . وأما أنا فما لقيته من عناء وتعب ومشقة ، لما أعلم ان لكم فيه الشرف يا أهل هذا البيت : فانى لم أزل الى هذا اليوم تابعا رضاكم ، أرى العسير فيه يسيرا ، والشاق هينا ، والنصب والأذى سرورا ولذة : لما أعلم أن لكم فيه رضا وقربة عندكم . ولكنى أسألك أيها الملك حاجة تسعفنى بها ، وتعطينى فيها سؤلى: فان حاجتى يسيرة ، وفى قضائها فائدة كثيرة . قال أنوشروان : قل فكل حاجة لك قبلنا مقضية : فانك عندنا عظيم ؛ ولو طلبت مشاركتنا فى ملكنا لفعلنا ، ولم نرد طلبتك؛ فكيف ماسوى ذلك ؟ فقل ولا تحتشم: فان الامور كلها مبذولة لك . قال برزويه : أيها الملك لا تنظر الى عنائى فى رضاك وانكماشى(١) فى طاعتك ؛ فانما أنا عبدك يلزمنى بذل مهجتى فى رضاك ؛ ولو لم تجزنى لم يكن ذلك عندى عظيما ولا واجبا على الملك ؛ ولكن لكرمه وشرف منصبه عمد الى مجازاتى ؛ وخصنى وأهل بيتى بعلو المرتبة ورفع الدرجة ؛ حتى لو قدر ان يجمع لنا بين شرف الدنيا والآخرة لفعل . فجزاه الله عنا أفضل الجزاء . قال أنوشروان : أذكر حاجتك ، فعلىّ ما يسرك . فقال برزويه : حاجتى ان يأمر الملك ، أعلاه الله تعالى ، وزيره بزرجمهر بن البختكان ؛ ويقسم عليه ان يعمل فكره ، ويجمع رأيه ، ويجهد طاقته ، ويفرغ قلبه فى نظم تأليف كلام متقن محكم ؛ ويجعله بابا يذكر فيه أمرى ويصف حالى ؛ ولا يدع من المبالغة فى ذلك أقصى ما يقدر عليه . ويامره اذا استتمه ان يجعله أول الابواب التى تقرأ قبل باب الأسد والثور : فان الملك اذا فعل ذلك فقد بلغ بى وبأهلى غاية الشرف وأعلى

(١) الانكماش فى الامر الجد فيه

المراتب ؛ وأبقى لنا مالا يزال ذكره باقيا على الابد ، حيثما قرئ هذا الكتاب .

فلما سمع كسرى أنوشروان والعظماء مقالته وما سمت اليه نفسه من محبة ابقاء الذكر استحسنوا طلبته واختياره ، وقال كسرى : حبا وكرامة لك يا برزويه ، انك لأهل ان تسعف بحاجتك ؛ فما أقل ما قنعت به وأيسره عندنا ، وان كان خطره[1] عندك عظيما . ثم أقبل أنوشروان على وزيره بزرجمهر فقال له : قد عرفت مناصحة برزويه لنا ، وتجشمه[2] المخاوف والمهالك فيما يقربه منا ، واتعابه بدنه فيما يسرنا ؛ وما أتى به الينا من المعروف ، وما أفادنا الله على يده من الحكمة والادب الباقي لنا فخره ؛ وما عرضنا عليه من خزائننا لنجزيه بذلك على ما كان منه ، فلم تمل نفسه الى شئ من ذلك ؛ وكان بغيته وطلبته منا أمرا يسيرا رآه هو الثواب منا له والكرامة الجليلة عنده ؛ فانى أحب ان تتكلم فى ذلك وتسعفه بحاجته وطلبته . واعلم ان ذلك مما يسرنى ؛ ولا تدع شيئا من الاجتهاد والمبالغة الا بلغته ، وان نالتك فيه مشقة . وهو ان تكتب بابا مضارعا لتلك الابواب التى فى الكتاب ، وتذكر فيه فضل برزويه ، وكيف كان ابتداء أمره وشأنه ؛ وتنسبه اليه والى حسبه وصناعته ، وتذكر فيه بعثته الى بلاد الهند فى حاجتنا ؛ وما أفدنا على يديه من هنالك ؛ وشرفنا به وفضلنا على غيرنا ؛ وكيف كان حال برزويه وقدومه من بلاد الهند ؛ فقل ما تقدر عليه من التقريظ والاطناب فى مدحه ، وبالغ فى ذلك أفضل المبالغة ؛ واجتهد فى ذلك اجتهادا يسر برزويه وأهل المملكة . وان برزويه أهل ذلك منى ومن

(١) القدر والشرف (٢) تجشم الامر تكلفه على مشقة

جميع أهـل المملكة ومنك أيضا : لمحبتك للعلوم . واجهد أن يكون غرض هـذا الكتاب الذى ينسب الى برزويه أفضل من أغراض تلك الابواب عند الخاص والعام ، وأشد مشاكلة لحال هـذا العلم : فانك أسـعد الناس كلهم بذلك : لانفرادك بهذا الكتاب ؛ واجعله أول الابواب . فاذا أنت عملته ووضعته فى موضعه فأعلمنى لأجمع أهل المملكة وتقرأه عليهم ، فيظهر فضلك واجتهادك فى محبتنا ؛ فيكون لك بذلك فخر . فلما سمع بزرجمهر مقالة الملك خرّ له ساجدا ، وقال: أدام الله لك ايها الملك البقاء ، و بلغك افضـل منازل الصالحـين فى الآخرة والاولى ؛ لقد شرفتنى بذلك شرفا باقيا الى الابد . ثم خرج بزرجمهر من عند الملك ، فوصف برزويه من أول يوم دفعه أبواه الى المعلم ، ومضيه الى بلاد الهند فى طلب العقاقير[1] والادوية ؛ وكيف تعـلم خطوطهم ولغتهـم ؛ الى ان بعثه أنوشروان الى الهند فى طلب الكتاب . ولم يدع من فضائل برزويه وحكمته وخلائقه ومذهبـه أمرا الا نسّقه ، وأتى به بأجود ما يكون من الشرح . ثم أعلم الملك بفراغه منه . فجمع أنوشروان أشراف قومه وأهل مملكته ، وأدخلهم اليه؛ وأمر بزرجمهر بقراءة الكتاب ، وبرزويه قائم الى جانب بزرجمهر ، وابتدأ بوصف برزويه حتى انتهى الى آخره . ففرح الملك بما أتى به بزرجمهر من الحكمة والعلم . ثم أثنى الملك وجميع من حضره على بزرجمهر ، وشكروه ومدحوه ؛ وأمر له الملك بمال جزيل وكسوة وحلى وأوان ؛ فلم يقبل من ذلك شيئا غير كسوة كانت من ثياب الملوك . ثم شكر له ذلك برزويه وقبّل رأسـه ويده ؛ وأقبل برزويه على الملك

(١) اصول الادوية مفرده عقار

وقال : أدام الله لك الملك والسعادة فقد بلغت بى و باهلى غاية الشرف بما أمرت به بزرجمهر من صنعة الكتاب[1] فى أمرى وإبقاء ذكرى

باب عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع

هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والاحاديث التى ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول فى النحو الذى أرادوا . ولم تزل العلماء من أهل كلّ ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون فى ذلك بصنوف الحيل ؛ ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل ، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير . فاجتمع لهم بذلك خلال. أما هم فوجدوا متصرفا فى القول وشعابا يأخذون منها . وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا ؛ فاختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه ؛ والمتعلم من الاحداث ناشط فى حفظ ماصار اليه من أمر يربط فى صدره ولا يدرى ماهو ؛ بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم . وكان كالرجل الذى لما استكمل الرجوليّة وجد أبويه قد كنزا له كنوزاً وعقدا له عقوداً استغنى بها عن الكدح[2] فيما يعمله من أمر معيشته ؛ فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة الى غيرها من وجوه الادب .

و ينبغى لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التى وضعت له ؛ والى أىّ غاية جرى مؤلفه فيه عند مانسبه الى البهائم وأضافه الى غير مفصح ؛ وغير ذلك من الاوضاع التى جعلها أمثالا : فان قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ماأريد بتلك المعانى ، ولا أىّ ثمرة يجتنى منها ، ولا

(١) مصدر كتب (٢) الكد والسعى

أيّ نتيجة تحصل له من مقدّمات ماتضمنه هذا الكتاب . وانه وان كان غايته استتمام قراءته الى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع اليه نفعه . ومن استكثر من جمع العلوم وقراءة الكتب ، من غير اعمال الروية فيما يقرؤه ، كان خليقاً ألا يصيبه إلا ما أصاب الرجل الذى زعمت العلماء أنه اجتاز ببعض المفاوز ، فظهر له موضع آثار كنز ؛ فجعل يحفر ويطلب ، فوقع على شيء من عين وورِق : فقال فى نفسه : إن أنا أخذت فى نقل هذا المال قليلا قليلا طال علىّ ، وقطعنى الاشتغال بنقله وإحرازه عن اللذة بما أصبت منه ؛ ولكن سأستأجر أقواماً يحملونه الى منزلى ، وأكون أنا آخرهم ، ولا يكون بقى ورائى شيء يشغل فكرى بنقله؛ وأكون قد استظهرت(١) لنفسى فى اراحة بدنى عن الكدّ بيسير أجرة أعطيهم اياها . ثمّ جاء بالحمالين ، فجعل يحمّل كلّ واحد منهم ما يطيق ، فينطلق به الى منزله فيفوز به ؛ حتى لم يبق من الكنز شيء . فانطلق خلفهم إلى منزله : فلم يجد فيه من المال شيئا ، لا قليلا ولا كثيرا . وإذا كلّ واحد من الحمّالين ، قد فاز بما حمله لنفسه . ولم يكن له من ذلك إلا العناء والتعب : لأنه لم يفكر فى آخر أمره . وكذلك من قرأ هذا الكتاب ، ولم يفهم ما فيه ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ؛ كما لو أنّ رجلا قُدّمَ له جوزٌ صحيح لم ينتفع به إلاّ أن يكسره ؛ وكان أيضا كالرجل الذى طلب علم الفصيح من كلام الناس؛ فأتى صديقا له من العلماء ، له علم بالفصاحة ، فأعلمه حاجته الى علم الفصيح فرسم له صديقه فى صحيفة صفراء فصيح الكلام وتصاريفه

(١) استمنت

ووجوهه ؛ فانصرف المتعلم الى منزله ؛ فجعل يكثر قراءتها ولا يقف على معانيها . ثم انه جلس ذات يوم فى محفل من أهل العلم والأدب، فأخذ فى محاورتهم ؛ فجرت له كلمة أخطأ فيها ؛ فقال له بعض الجماعة: انك قد أخطأتَ ؛ والوجه غير ما تكلمت به. فقال : فكيف أخطىء وقد قرأت الصحيفة الصفراء ؛ وهى فى منزلى ؟ فكانت مقالته لهم أوجب للحجة عليه ؛ وزاده ذلك قربا من الجهل وبعدا من الأدب

ثمّ انّ العاقل اذا فهم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه ، ينبغى له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ؛ ويجعله مثلا لا يحيد عنه . فاذا لم يفعل ذلك ، كان مثله كالرجل الذى زعموا أن سارقا تسوّر عليه وهو نائم فى منزله ، فعلم به فقال : والله لأسكتنّ حتى أنظر ماذا يصنع ، ولا أذعره ؛ ولا أعلمه أنى قد علمت به . فاذا بلغ مراده قمت إليه ، فنغصت ذلك عليه . ثم إنه أمسك عنه . وجعل السارق يتردّد ، وطال تردّده فى جمعه ما يجده ؛ فغلب الرجل النعاس فنام ، وفرغ اللص مما أراد ، وأمكنه الذهاب . واستيقظ الرجل ، فوجد اللص قد أخذ المتاع وفاز به . فأقبل على نفسه يلومها ، وعرف أنه لم ينتفع بعلمه باللص : إذ لم يستعمل فى أمره ما يجب . فالعلم لا يتم إلا بالعمل ، وهو كالشجرة والعمل به كالثمرة . وانما صاحب العلم يقوم بالعمل لينتفع به ؛ وان لم يستعمل ما يعلم لا يسمّى عالما . ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ، ثم سلكه على علم به ، سمى جاهلا ؛ ولعله ان حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك فى الطريق المخوف الذى قد جهله . ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو

أو أعلمه به غيره ، كان كالمريض العالم برديء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله ، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب الى النجاة والتخلص من علته . وأقل الناس عذرا فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعض ؛ كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل الى حفرة فوقعا فيها ، كانا اذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة ؛ غير أن البصير أقل عذراً عند الناس من الضرير : اذ كانت له عينان يبصر بهما ؛ وذاك بما صار اليه جاهل غير عارف .

وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدّبها بعلمه ، ولا تكون غايته اقتناؤه العلم لمعاونة غيره ، ويكون كالعين التى يشرب الناس ماءها وليس لها فى ذلك شيء من المنفعة ، وكدودة القز التى تحكم صنعته ولا تنتفع به . فينبغى لمن طلب العلم أن يبدأ بعظة نفسه ، ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه ؛ [1] فان خلالا ينبغى لصاحب الدنيا أن يقتنيها ويقبسها : منها العلم والمال . ومنها اتخاذ المعروف . وليس للعالم ان يعيب امرأ بشيء فيه مثله ، ويكون كالأعمى الذى يعيّر الأعمى بعماه . وينبغى لمن طلب أمرا أن يكون له فيه غاية ونهاية ، ويعمل بها ، ويقف عندها ؛ ولا يتمادى فى الطلب ؛ فانه يقال : من سار الى غير غاية يوشك أن تنقطع به مطيته ؛ وأنه كان حقيقا ألاّ يعنى نفسه [2] فى طلب مالا حدّ له ، وما لم ينله أحد قبله ، ولا يتأسف عليه ؛ ولا يكون لدنياه مؤثرا على آخرته : فان من لم يعلق قلبه بالغايات قلت

(١) أقبسه العلم وقبسه اياه يقبسه أفاده اياه ويقال اقتبست منه علما وقبست استفدت ، (٢) يتعبها

حسرته عند مفارقتها . وقد يقال فى أمرين انهما يجملان بكل أحد: أحدهما النسك [١] والآخر المال الحلال . ولا يليق بالعاقل أن يؤنب نفسه على مافاته وليس فى مقدوره ؛ فربما أتاح الله له ما يهنأ به ولم يكن فى حسبانه . ومن أمثال هذا أنّ رجلا كان به فاقة وجوع وعرى ، فألجأه ذلك إلى أن سأل أقاربه وأصدقاءه ، فلم يكن عند أحد منهم فضل يعود به عليه . فبينما هو ذات ليلة فى منزله إذ بصر [٢] بسارق فيه ؛ فقال : والله مافى منزلى شىء أخاف عليه : فليجهد السارق جهده . فبينما السارق يجول إذ وقعت يده على خابية فيها حنطة ؛ فقال السارق : والله ما أحبّ أن يكون عنائى الليلة باطلا . ولعلى لا أصل إلى موضع آخر ، ولكن سأحمل هذه الحنطة. ثم بسط قميصه ليصب عليه الحنطة . فقال الرجل : أيذهب هذا بالحنطة وليس ورائى سواها ؟ فيجتمع علىّ مع العرى ذهاب ما كنت أقتات به . وما تجتمع والله هاتان الخلتان على أحد إلاّ أهلكتاه . ثم صاح بالسارق ؛ وأخذ هراوة [٣] كانت عند رأسه ؛ فلم يكن للسارق حيلة إلاّ الهرب منه ؛ وترك قميصه ونجا بنفسه ؛ غدا الرجل به كاسيا . وليس ينبغى أن يركن إلى مثل هذا ويدع ما يجب عليه من الحذر والعمل فى مثل هذا لصلاح معاشه ؛ ولا ينظر إلى من تؤاتيه المقادير وتساعده على غير التماس منه : لانّ أولئك فى الناس قليل ؛ والجمهور منهم من أتعب نفسه فى الكدّ والسعى فيما يصلح أمره وينال به ما أراد . وينبغى أن يكون

(١) العبادة (٢) بصر به كظرف وفرح أبصره (٣) الهراوة بالكسر العصا الضخمة

حرصه على ما طاب كسبه وحسن نفعه ؛ ولا يتعرض لما يجلب عليه العناء والشقاء ؛ فيكون كالحمامة التى تفرخ الفراخ فتأخذ وتذبح ، ثم لا يمنعها ذلك أن تعود فتفرخ موضعها ، وتقيم بمكانها فتؤخذ الثانية من فراخها فتذبح . وقد يقال : ان الله تعالى قد جعل لكل شىء حدًّا يوقف عليه . ومن تجاوز فى اشياء حدّها أوشك أن يلحقه التقصير عن بلوغها . ويقال : من كان سعيه لآخرته ودنياه فحياته له وعليه . ويقال فى ثلاثة اشياء يجب على صاحب الدنيا اصلاحها وبذل جهده فيها : منها أمر معيشته ؛ ومنها ما بينه وبين الناس ؛ ومنها ما يكسبه الذكر الجميل بعد . وقد قيل فى أمور من كنّ فيه لم يستتم له عمل : منها التوانى ؛ ومنها تضييع الفرص ؛ ومنها التصديق لكل مخبر . فربّ مخبر بشىء عقله ولا يعرف استقامته فيصدقه . وينبغى للعاقل أن يكون لهواه متهما ، ولا يقبل من كل أحد حديثا ؛ يتمادى فى الخطإ اذا ظهر له خطؤه ؛ ولا يقدم على أمر حتى يتبين له الصواب ، وتتضح له الحقيقة ؛ ولا يكون كالرجل الذى يحيد عن الطريق ؛ فيستمر على الضلال فلا يزداد فى السير إلاّ جهدا ، وعن القصد إلا بعدا ؛ وكالرجل الذى تقذى عينه فلا يزال يحكها ، وربما كان ذلك الحك سببا لذهابها . ويجب على العاقل أن يصدّق بالقضاء والقدر ، ويأخذ بالحزم ، ويحبّ للناس ما يحبّ لنفسه ، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره : فانه من فعل ذلك كان خليقا أن يصيبه ما أصاب التاجر من رفيقه : فانه يقال : إنه كان رجل تاجر ، وكان له شريك ؛ فاستأجرا حانوتا ، وجعلا متاعهما فيه . وكان أحدهما قريب المنزل من الحانوت ؛ فاضمر فى

نفسه أن يسرق عِدْلا من أعدال (١) رفيقه ؛ ومكر الحيلة في ذلك ، وقال : إن أتيت ليلا لم آمن ان احمل عِدْلا من اعدالي او رزمة (٢) من رِزَمي ولا أعرفها ؛ فيذهب عنائي وتعبي باطلا . فأخذ رداءه ، وألقاه على العدل الذي اضمر أخذه . ثم انصرف الى منزله وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح أعداله ، فوجد رداء شريكه على بعض أعداله ؛ فقال : والله هذا رداء صاحبي ؛ ولا أحسبه إلا قد نسيه. وما الرأي ان ادعه هاهنا ؛ ولكن أجعله على رُزَمه ؛ فلعله يسبقني الى الحانوت فيجده حيث يحب . ثم اخذ الرداء فألقاه على عدل من اعدال رفيقه ؛ وأقفل الحانوت ؛ ومضى الى منزله . فلما جاء الليل اتى رفيقه ومعه رجل قد واطأه (٣) على ماعزم عليه ؛ وضمن له جعلا على حمله ؛ فصار الى الحانوت ؛ فالتمس الازار في الظلمة فوجده على العدل ؛ فاحتمل ذلك العدل ، واخرجه هو والرجل ، وجعلا يتراوحان (٤) على حمله ؛ حتى أتى منزله ، ورمى نفسه تعباً . فلما أصبح افتقده فاذا هو بعض اعداله ؛ فندم أشدّ الندامة . ثم انطلق نحو الحانوت ، فوجد شريكه قد سبقه اليه ففتح الحانوت ، ووجد العدل مفقودا : فاغتم لذلك غمّا شديدا ؛ وقال : واسوءتاه من رفيق صالح قد ائتمنني على ماله وخلفني فيه ! ماذا يكون حالي عنده ؟ ولست اشكّ في تهمته اياي . ولكن قد وطنت نفسي على غرامته . ثم أتى صاحبه فوجده مغتما ؛ فسأله عن حاله ؛ فقال : اني قد افتقدت الأعدال ، وفقدت عِدلا من اعدالك ، ولا اعلم (٥) بسببه ؛ واني لا اشكّ في تهمتك اياي ؛ واني قد وطنت نفسي على

(١) الأعدال الأمتعة (٢) الرزمة بالكسر هي التي فيها ضروب من الثياب (٣) وافقه (٤) يتناوبان (٥) أشعر

غرامته . فقال له : يا اخي لا تغتمّ : فان الخيانة شرّ ما عمله الانسان ، والمكر والخديعة لا يؤدّيان الى خير ، وصاحبهما مغرور أبدا ؛ وما عاد وبال البغي الاّ على صاحبه ؛ وأنا احد من مكر وخدع واحتال . فقال له صاحبه : وكيف كان ذلك ؟ فاخبره بخبره ؛ وقص عليه قصته . فقال له رفيقه : ما مثلك الاّ مثل اللص والتاجر. فقال له : وكيف كان ذلك ؟

قال زعموا ان تاجرا كان له فى منزله خابيتان (١) احداهما مملوءة حنطةً ، والأخرى مملوءة ذهبا . فترقبه بعض اللصوص زمانا ؛ حتى اذا كان بعض الأيام تشاغل التاجر عن المنزل ؛ فتغفله (٢) اللص ، ودخل المنزل ، وكمن فى بعض نواحيه . فلمّا همّ بأخذ الخابية التى فيها الدنانير اخذ التى فيها الحنطة ، وظنها التى فيها الذهب ؛ ولم يزل فى كد وتعب ، حتى اتى بها منزله . فلما فتحها وعلم ما فيها ندم . قال له الخائن : ما ابْعَدْتَ المَثل ، ولا تجاوزْتَ القياس ؛ وقد اعترفت بذنبي وخطئي عليك ، وعزيزٌ عليّ ان يكون هذا كهذا ؛ غير انّ النفس الرديئة تأمر بالفَحْشاءِ . فقبِل الرجل مَعْذِرَتَه ، واضرب عن توبيخه وعن الثقة به ؛ وندِم هو عند ما عايَنَ من سُوءِ فعله وتقديم جَهْلِهِ .

وقد ينبغى للناظر فى كتابنا هذا ألاّ تكون غايته التصفح لتزاويقه ، بل يشرف (٣) على ما يتضمن من الأمثال ، حتى ينتهى منه ؛ ويَقِف عند كل مثل وكلمة ، ويعمل فيها رويته ؛ ويكونَ مثل أصغر

(١) الخابية الجبّ أى الجرّة الضخمة وأصلها الهمز لأنّها من خبأ (٢) اغتنم غفلته (٣) أصل معناه يطلع عليه من فوق والمراد هنا يدقق ويتأمل

الاخوة الثلاثة الذين خلف لهم ابوهم المال الكثير ، فتنازعوه (١) بينهم ؛ فأما الكبيران فانهما أسرعا فى اتلافه و إنفاقه فى غير وجهه ؛ وأمّا الصغير فانه عند ما نظر ما صار اليه أخواه من اسرافهما وتخلّيهما من المال، أقبل على نفسه يشاورها وقال: يا نفسى انما المال يطلبه صاحبه ، ويجمعه من كل وجه ، لبقاء حاله ، وصلاح معاشه ودنياه ، وشرف منزلته فى أعين الناس ، واستغنائه عمّا فى أيديهم ، وصرفه فى وجهه : من صلة الرّحم ، والانفاق على الولد ، والافضال على الاخوان . فمن كان له مال ولا ينفقه فى حقوقه ، كان الذى يعدّ فقيرا وان كان مُوسِرا ؛ وان هو أحسنَ امساكَه والقيام عليه ، لم يعدَم الأمرين جميعا من دنيا تبقى عليه وحمدٍ يُضَافُ اليه ؛ ومتى قصد انفاقه على غير الوجوه التى علمت ، لم يلبث أن يتلفه و يبقى على حسرة وندامة . ولكنّ الرأىَ أن أمسك هذا المال ، فانى أرجو أن ينفعنى الله به : ويغنى أخوَىَّ على يدىّ : فانما هو مال أبى ومال أبيهما . وانّ أولى الانفاق على صلة الرحم وان بعُدت ، فكيف بأخوىّ ؟ فأنفذ فأحضرهما وشاطرهما ماله . وكذلك يجب على قارئ هذا الكتاب أنْ يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمسَ جواهرَ معانيه ، ولا يظنّ ان نتيجته الاخبار عن حيلة بهيمتين او محاورة سبع لثور : فينصرفَ بذلك عن الغرض المقصود . ويكونَ مثله مثل الصياد الذى كان فى بعض الخُلْجان يصيد فيه السمك فى زورق (٢) فرأى ذات يوم فى أرض الماء صدفة تتلألأ حُسْنًا ، فتوهمها جوهرا له قيمة وكان قد ألقى شبكته فى البحر ، فاشتملت

(١) تناولوه (٢) سفينة صغيرة

على سمكة كانت قوت يومه فخلاها ، وقذف نفسه فى الماء ليأخذ الصدفة ، فلمّا أخرجها وجدها فارغة لا شيء فيها ممّا ظنّ . فندم على ترك ما فى يده للطمع وتأسف على ما فاته . فلمّا كان اليوم الثانى تنحى عن ذلك المكان ، وألقى شبكته ، فأصاب حوتا صغيرا ؛ ورأى أيضا صدفة سنية ، فلم يلتفت اليها ، وساء ظنه بها ، فتركها . فاجتاز بها بعض الصيادين فأخذها ، فوجد فيها درّة تساوى أموالا . وكذلك الجهّال اذا أغفلوا امر التفكر فى هذا الكتاب ، وتركوا الوقوف على أسرار معانيه ، واخذوا بظاهره . ومن صرف همته الى النظر فى أبواب الهزل ، كان كرجل اصاب ارضا طيبة حرّة وحبّا صحيحا ، فزرعها وسقاها ، حتى اذا قرب خيرها وأينعت ، تشاغل عنها بجمع ما فيها من الزهر وقطع الشوك ؛ فأهلك بتشاغله ما كان احسن فائدة وأجمل .

وينبغى للناظر فى هذا الكتاب ان يعلم انه ينقسم الى اربعة اغراض . أحدها ما قصد فيه الى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة : ليسارع الى قراءته اهل الهزل من الشبّان ، فتستمال به قلوبهم : لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثانى اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان : ليكون انسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه اشدّ للنزهة فى تلك الصور . والثالث ان يكون على هذه الصفة : فيتخذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل فيخلق على مرور الايام ؛ ولينتفع بذلك المصوّر والناسخ أبدا . والغرض الرابع ، وهو الاقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصّة (انقضى باب عرض الكتاب)

باب برزويه ترجمة بزرجمهر بن البختكان

قال برزويه ، رأس اطباء فارس، وهو الذى تولى انتساخ هـذا الكتاب ، وترجمه من كتب الهند (وقد مضى ذكر ذلك من قبل) : إنّ أبى كان من المقاتلة ، وكانت امى من عظماء بيوت الزمازمة.(١) وكان منشئى فى نعمة كاملة . وكنت أكرَمَ ولد أبوَىّ عليهما ؛ وكانا بى أشدّ احتفاظا من دون اخوتى ، حتى اذا بلغت سبع سنين ، اسلمانى الى المؤدّب ؛ فلما حذقت فى الكتابة ، شكرت ابوىّ ؛ ونظرت فى العلم ،فكان أول ما ابتدأت به ، وحرصت عليه ، علم الطبّ : لانى كنت عرفت فضله . وكلما سدّدت منه علما ازددت فيه حرصا ، وله اتباعا . فلمّا همت نفسى بمداواة المرضى ، وعزمت على ذلك آمرتها (٢) ثمّ خيّرتها بين الامور الاربعة التى يطلبها الناس ، وفيها يرغبون ، ولها يسعون . فقلت : أى هذه الخلال أبتغى فى علمى ؟ وأيها أحرى بى فأدرك منه حاجتى ؟ المال أم الذكر ام اللذات ام الآخرة ؟ وكنت وجدت فى كتب الطبّ أنّ أفضل الاطباء من واظب على طبّه ، لا يبتغى الاّ الآخرة . فرأيت أنْ أطلبَ الاشتغال بالطبّ ابتغاء الآخرة : لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوى شيئا ؛ مع انى قد وجدت فى كتب الاولين ان الطبيب الذى يبتغى بطبه اجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا . وان مثله مثل الزارع الذى يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ، ثمّ هى لا محالة نابت فيها ألوان

(١) طائفة من الفرس (٢) شاورتها

العشب مع يانع الزرع . فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة ، فلم أدع مريضا أرجو له البرء ، وآخر لا أرجو له ذلك ، إلا انى أطمع ان يخف عنه بعض المرض ، الا بالغت فى مداواته ما أمكننى القيام عليه بنفسى ؛ ومن لم أقدر على القيام عليه وصفت له ما يصلح ، وأعطيته من الدواء ما يعالج به . ولم أرد ممن فعلت معه ذلك جزاء ولا مكافأة ؛ ولم أغبط أحدا من نظرائى الذين هم دونى فى العلم وفوقى فى الجاه والمال وغيرهما مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولا ولا عملا : ولما تاقت نفسى الى غشيانهم وتمنت منازلهم أثبت لها الخصومة (١) ؛ فقلت لها : يا نفس ، اما تعرفين نفعك من ضرك ؟ ألا تنتهين عن تمنى ما لا يناله احد الا قل انتفاعه به ، وكثر عناؤه فيه ، واشتدت المؤونة عليه ، وعظمت المشقة لديه بعد فراقه ؟ يا نفسى ، اما تذكرين ما بعد هذه الدار : فينسيك ما تشرهين اليه منها ؟ ألا تستحيين من مشاركة الفجار فى حب هذه العاجلة الفانية التى من كان فى يده شىء منها فليس له ، وليس بباق عليه ؛ فلا يألفها الا المغترون الجاهلون ؟ يا نفس انظرى فى أمرك ، وانصرفى عن هذا السفه ، واقبلى بقوتك وسعيك على تقديم الخير ، واياك والشر ؛ واذكرى أن هذا الجسد موجود لآفات ، وانه مملوء أخلاطا فاسدة قذرة ، تعقدها الحياة ، والحياة الى نفاد ؛ كالصنم المفصلة أعضاؤه اذا ركبت ووضعت ، يجمعها مسمار واحد ، ويضم بعضها الى بعض ، فاذا أخذ ذلك المسمار تساقطت الاوصال. يا نفس ، لا تغتري بصحبة أحبائك وأصحابك ، ولا تحرصى على

(١) أعلنتها بالمخاصمة

ذلك كل الحرص : فان صحبتهم ـ على ما فيها من السرور ـ كثيرة المؤونة ، وعاقبة ذلك الفراق . ومثلها مثل المغرفة التي تستعمل في جدتها لسخونة المرق ، فاذا انكسرت صارت وقودا . يانفس ، لا يحملنك أهلك وأقاربك على جميع ما تهلكين فيه ، ارادة صلتهم ؛ فاذا أنت كالدُّخْنة (١) الارجة (٢) التي تحترق ويذهب آخرون بريحها . يا نفس ، لا يبعد عليك أمر الآخرة فتميلي الى العاجلة في استعجال القليل وبيع الكثير باليسير ؛ كالتاجر الذي كان له ملء بيت من الصندل ، فقال : ان بعته وزنا طال علىّ فباعه جُزافا (٣) بأبخس الثمن . وقد وجدت آراء الناس مختلفة ، واهواءهم متباينة ؛ وكل على كل رادٌّ ، وله عدوّ ومغتاب ، ولقوله مخالف . فلمّا رأيت ذلك لم أجد الى مُتابَعة أحد منهم سبيلا ؛ وعرفت أني ان صدّقت أحدا منهم لاعلم لي بحاله ، كنت في ذلك كالمصدّق المخدوع الذي زعموا في شأنه أنّ سارقا علا ظهر بيت رجل من الاغنياء ، وكان معه جماعة من اصحابه ، فاستيقظ صاحب المنزل من حركة اقدامهم ، فعرّف امرأته ذلك ؛ فقال لها : رويدا اني لأحْسَبُ اللصوصَ علوا البيت ؛ فأيقظيني بصوت يسمعه اللصوص وقولي : ألا تُخبِرُني أيها الرجل عن اموالك هذه الكثيرة وكنوزك العظيمة ، فاذا نَهَيْتُكِ عن هذا السؤال فألحي علىّ بالسؤال . ففعلت المرأة ذلك وسألته كما أمرها ؛ وأنصتت اللصوص الى سماع قولهما . فقال لها الرجل : أيتها المرأة ، قد ساقك القدر الى رزق واسع كثير : فكلي واسكتي ،

---

(١) الدُّخْنة بخور تبخَّر به الثياب أو البيت (٢) ذات الرائحة الطيبة
(٣) مثلث الفاء أي بالحدس والتقدير

ولا تسألى عن أمر إنْ اخبرتك به لم آمن ان يسمعه احد ، فيكون فى ذلك ما أكره وتَكْرَهين . فقالت المرأة : اخبرنى أيها الرجل ، فلعمرى ما بقربنا احد يسمع كلامنا . فقال لها : فانى اخبرك انى لم أجمع هذه الاموال الا من السرقة . قالت : وكيف كان ذلك ؟ وما كنت تصنع ؟ قال : ذلك لعلم أصبته فى السرقة ، وكان الامر علىّ يسيرا ؛ وانا آمنٌ من أن يتهمني احد او يرتاب فىّ . قالت : فاذكر لى ذلك ، قال : كنت اذهب فى الليلة المقمرة ، انا وأصحابى ، حتى أعلوَ دارَ بعض الاغنياء مثلنا ؛ فأنتهى الى الكوّة التى يدخل منها الضوء فأَرْقِى بهذه الرقية : وهى شَوْلَمْ شَوْلَمْ سبع مرات ، وأعتنِق الضوءَ ؛ فلا يحس بوقوعى احد ؛ فلا ادع مالا ولا متاعا الا أخذته. ثمّ أرقى بتلك الرقيـة سبع مرات ، واعتنق الضوء ؛ فيجـذبنى ؛ فأصعد الى أصحابى ، فنمضى سالمين آمنين . فلما سمع اللصوص ذلك قالوا : قد ظفرنا الليلة بما نريد من المال ؛ ثمّ إنهم أطالوا المكث حتى ظنّـوا أنّ صاحب الدار وزوجتـه قد هجعـا ؛ فقام قائدهم الى مدخل الضوء ؛ وقال : شولم شولم سـبع مرات ؛ ثم اعتنق الضوء ليـنزل الى ارض المنزل ، فوقع على أمّ رأسه منكسا . فوثب اليـه الرجل بهراوته ؛ وقال له : من أنت ؟ قال : انا المصـدّق المخدوع المغترُّ بما لا يكون أبدا ؛ وهذه ثمرة رُقْيتك . فلمّا تحرّزت من تصـديق ما لا يكون ، ولم آمن ان صـدقته أن يُوقِعَنى فى مهلكة عُدْتُ الى طلب الاديان ، والتماس العدل منها ؛ فلم اجد عند احد ممن كلمتُهُ جوابا فيما سألته عنه فيها ، ولم ار فيما كلمونى به شيئا يحِقُّ لى فى عقلى ان أصدق به ولا انا أتّبعَهُ . فقلت لمّا لم اجد ثقة آخذ منه

الرأى ان ألزم دين آبائى وأجدادى الذى وجدتهم عليه . فلمّا ذهبت ألتمس العذر لنفسى فى لزوم دين الآباء والاجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الاباء طاقةً ؛ بل وجدتها تريد أن تتفرّغ للبحث عن الاديان والمسألة عنها ، وللنظر فيها ؛ فهجس (١) فى قلبى وخطر على بالى قرب الاجل وسرعة انقطاع الدنيا واعتباط (٢) أهلها وتخرُّم (٣) الدهر حياتهم . ففكرت فى ذلك . فلمّا خفت من التردّد والتحوّل ، رأيت ألاّ أتعرّض لما أتخوّف منه المكروه ؛ وأن أقتصر على عمل تشهد النفس أنه يوافق كل الاديان . فكففت يدى عن القتل والضرب ، وطرحت نفسى عن المكروه والغضب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان والغيبة ، وأضمرت فى نفسى ألا أبغى على أحد ؛ ولا أكذب بالبعث ولا القيامة ولا الثواب ولا العقاب ، وزايلت الاشرار بقلبى ، وحاولت الجلوس مع الاخيار بجهدى ، ورأيت الصلاح ليس كمثله صاحب ولا قرين ؛ ووجدت مكسبه إذ وفق الله وأعان يسيرا ؛ ووجدته يدل على الخير ، ويشير بالنصح ، فعل الصديق بالصديق ؛ ووجدته لا ينقص على الانفاق منه ؛ بل يزداد جدّة (٤) وحسنا ؛ ووجدته لا خوف عليه من السلطان أن يغصبه ، ولا من الماء أن يغرقه ، ولا من النار أن تحرقه ، ولا من اللصوص أن تسرقه ، ولا من السباع وجوارح الطير أن تمزّقه ؛ ووجدت الرجل الساهى اللاهى المؤثِر اليسيرَ يناله فى يومه ويَعْدَمه فى غده على الكثير الباقى نعيمه ، يصيبه ما أصاب

(١) وقع وخطر وبابه ضرب (٢) هلاكهم بدون مرض (٣) القطع والاستئصال (٤) هى ضد البلى

التاجر الذى زعموا أنه كان له جوهر نفيس ، فاستأجر لثقبه رجلا ، اليوم بمائة دينار ؛ وانطلق به الى منزله ليعمل ؛ واذا فى ناحية البيت صنج [١] موضوع . فقال التاجر للصانع : هل تحسن ان تلعب بالصنج ؟ قال : نعم . وكان بلعبه ماهرا . فقال التاجر : دونك والصنج فأسمعنا ضربك به . فاخذ الرجل الصنج ؛ ولم يزل يسمع التاجر الضرب الصحيح ، والصوت الرفيع ؛ والتاجر يشير بيده ورأسه طربا ؛ حتى أمسى . فلما حان الغروب قال الرجل للتاجر : مر لى بالاجرة. فقال له التاجر : وهل عملت شيئا تستحق به الاجرة؟ فقال له : عملت ما أمرتنى به ، وأنا أجيرك ، وما استعملتنى عملت ؛ ولم يزل به حتى استوفى منه مائة دينار . وبقى جوهره غير مثقوب . فلم أزدد فى الدنيا وشهواتها نظراء الا ازددت فيها زهادة ومنها هربا . ووجدت النسك [٢] هو الذى يمهد للمعاد كما يمهد الوالد لولده ؛ ووجدته هو الباب المفتوح الى النعيم المقيم ؛ ووجدت الناسك قد تدبّر فعلته بالسكينة فشكر ؛ وتواضع وقنع فاستغنى ؛ ورضى ولم يهتم. وخلع الدنيا فنجا من الشرور ؛ ورفض الشهوات فصار طاهرا ؛ واطّرح الحسد فوجبت له المحبة ؛ وسخت نفسه بكل شىء ؛ واستعمل العقل وأبصر العاقبة فأمن الندامة ؛ ولم يخف الناس ولم يدب اليهم فسلم منهم . فلم أزدد فى أمر النسك نظرا ، الا ازددت فيه رغبة ؛ حتى هممت أن أكون من أهله . ثم تخوفت ألا اصبر على عيش الناسك ؛ ولم آمن إن تركت الدنيا وأخذت فى النسك ،

(١) الصنج نوعان ما يتخذ من الصفر يضرب به من الدف (ويسمى عند عوام مصر بالكاسات) وماله أوتار (٢) النسك مثلثة النون وبضمتين العبادة

أن أضعف عن ذلك ؛ ورفضت أعمالا كنت أرجو عائدتها ؛ وقد كنت أعملها فأنتفع بها فى الدنيا ؛ فيكون مثلى فى ذلك مثل الكلب الذى مرّ بنهر وفى فيه ضلع ؛ فرأى ظلّها فى الماء ، فهوى ليأخذها ، فأتلف ما كان معه ؛ ولم يجد فى الماء شيئا . فهبْتُ النسك مهابة شديدة ، وخفْت من الضجر وقلة الصبر ؛ وأردت الثبوت على حالتى التى كنت عليها . ثمّ بدا لى أن أسبر ما أخاف ألاّ أصبر عليه من الأذى والضيق والخشونة فى النسك ؛ وما يصيب صاحب الدنيا من البلاء ؛ وكان عندى أنه ليس شىء من شهوات الدنيا ولذتها إلا هو متحوّل الى الأذى ومُولد للحُزْن . فالدنيا كالماء الملح الذى لا يزداد شاربه شربا ، الا ازداد عطشا . وهى كالعظم الذى يصيبه الكلبُ فيجدُ فيه ريح اللحم ؛ فلا يزال يطلب ذلك حتى يدمى فاه وكالحِدَأة التى تظفر بقطعة من اللحم ، فيجتمع عليها الطير ، فلا تزال تدور وتدأب حتى تعيي وتعطب ؛ فاذا تعبت ألقت ما معها . وكالكوز من العسل الذى فى أسفله السم الذى يُذاقُ منه حلاوة عاجلة وآخره موت ذعاف (١) ؛ وكأحلام النائم التى يفرح بها الانسان فى نومه ، فاذا استيقظ ذهب الفرح . فلمّا فكّرت فى هذه الأمور ، رجعت الى طلب النسك ، وهزّنى الاشتياق اليه ؛ ثمّ خاصمت نفسى إذ هى فى شرورها سارحة، وقد لا تثبت على أمر تعزم عليه : كقاضٍ سمع من خصْم واحد فحكم له ؛ فلما حضر الخصْم الثانى عاد الى الأول وقضى عليه . ثم نظرت فى الذى أكابده من احتمال النسك وضيقه ؛ فقلت : ما أصغر هذه المشقة فى جانب روْح

(١) ذعاف سريع

الأبد وراحته. ثمّ نظرت فيما تشره اليه النفس من لذة الدنيا، فقلت : ما أمرّ هذا وأوجعه ، وهو يدفع الى عذاب الابد وأهواله ! وكيف لا يستحلي الرجل مرارة قليلة تعقبها حلاوة طويلة ؟ وكيف لا تمرّ عليه حلاوة قليلة تعقبها مرارة دائمة ؟ وقلت : لو أنّ رجلا عرض عليه أن يعيش مائة سنة ، لا يأتي عليه يوم واحد إلا بضع[(١)] منه بضعة[(٢)]، ثم أعيد عليه من الغد ؛ غير أنه يشرط له ، اذا استوفى السنين المائة ، نجا من كل ألم وأذى ، وصار الى الامن والسرور ، كان حقيقاً ألا يرى تلك السنين شيئاً . وكيف يأبى الصبر على أيام قلائل يعيشها في النسك، وأذى تلك الايام قليل يعقب خيراً كثيراً ؟ فلنعلم أن الدنيا كلها بلاء وعذاب . أو ليس الانسان انما يتقلب في عذاب الدنيا من حين يكون جنيناً الى أن يستوفي أيام حياته؟ فاذا كان طفلا ذاق من العذاب ألواناً : ان جاع فليس به استطعام ، أو عطش فليس به استسقاء ، أو وجع فليس به استغاثة ؛ مع مايلقى من الوضع والحمل واللف والدهن والمسح ؛ ان أنيم على ظهره لم يستطع تقلباً ؛ ثم يلقى أصناف العذاب ما دام رضيعاً ؛ فاذا أفلت[(٣)] من عذاب الرضاع، أخذ في عذاب الادب، فأذيق منه ألواناً من عنف المعلم وضجر الدرس وسآمة الكتابة ؛ ثم له من الدواء والحمية والاسقام والاوجاع أوفى حظ . فاذا أدرك كانت همته في جمع المال وتربية الولد ومخاطرة الطلب والسعي والكدّ والتعب . وهو مع ذلك يتقلب مع أعدائه الباطنية اللازمة له : وهي الصفراء والسوداء والريح والبلغم والدم والسم المميت والحية اللادغة؛ مع الخوف من السباع والهوامّ ؛

(١) قطع (٢) قطعة (٣) خلص

مع صرف الحر والبرد والمطر والرياح ؛ ثم أنواع عذاب الهرم لمن بلغه . فلو لم يخف من هذه الأمور شيئاً ، وكان قد أمن ووثق بالسلامة منها فلم يفكر فيها ، لوجب عليه أن يعتبر بالساعة التى تحضره فيها الموت ، فيفارق الدنيا ؛ ويتذكر ما هو نازل به فى تلك الساعة من فراق الاحبة والاهل والاقارب وكلّ مضنون به من الدنيا والاشراف على الهول العظيم بعد الموت ؛ فلو لم يفعل ذلك ، لكان حقيقاً أن يعدّ عاجزاً مفرطاً محباً للدناءة مستحقا للوم ؛ فمن ذا الذى يعلم ولا يحتال لغد جهده فى الحيلة ، ويرفض ما يشغله ويلهيه من شهوات الدنيا وغرورها ؟ ولا سيما فى هذا الزمان الشبيه بالصافى وهو كدر ؛ فانه وان كان الملك حازماً عظيم المقدرة ، رفيع الهمة بليغ الفحص ، عدلاً مرجوّا صدوقاً شكوراً ، رحب الذراع ، مفتقداً مواظباً مستمرّا عالماً بالناس والأمور ، محبا للعلم والخير والاخيار شديداً على الظلمة ، غير جبان ولا خفيف القياد ، رفيقاً بالتوسع على الرعية فيما يحبون ، والدفع لما يكرهون ؛ فإنّا قد نرى الزمان مدبراً بكل مكان ، فكأنّ أمور الصدق قد نزعت من الناس ، فأصبح ما كان عزيزا فقده مفقودا ، وموجودا ما كان ضائرا (١) وجوده وكأنّ الخير أصبح ذابلا والشر ناضرا . وكأنّ الفهم أصبح قد زالت سبله . وكأنّ الحق ولّى كسيرا وأقبل الباطل تابعه . وكأنّ اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلا ؛ وأصبح المظلوم بالحيف مقرّا ، والظالم لنفسه مستطيلا ، وكأنّ الحرص أصبح فاغرا (٢) فاه من كل جهة يتلقف ما قرب منه وما بعد . وكأن الرضا

(١) ضارا (٢) فاتحا

أصبح مجهولا . وكأن الاشرار يقصدون السماء صعودا . وكأن الاخيار يريدون بطن الارض ؛ وأصبحت المروءة مقذوفا بها من أعلى شرف الى أسفل درك ؛ وأصبحت الدناءة مكرمة ممكنة ؛ وأصبح السلطان (١) منتقلا عن أهل الفضل الى أهل النقص . وكان الدنيا جذلة مسروقة تقول : قد غيبت الخيرات وأظهرت السيئات . فلما فكرت فى الدنيا وأمورها ؛ وأن الانسان هو أشرف الخلق فيها وأفضله ؛ ثم هو لا يتقلب الا فى الشرور والهموم ، عرفت انه ليس انسان ذو عقل يعلم ذلك ثم لا يحتال لنفسه فى النجاة ؛ فعجبت من ذلك كل العجب ثم نظرت فاذا الانسان لا يمنعه عن الاحتيال لنفسه الا لذة صغيرة حقيرة غير كبيرة من الشم والذوق والنظر والسمع واللمس: فلعله يصيب منها الطفيف او يقتنى منها اليسير ؛ فاذا ذلك يشغله ويذهب به عن الاهتمام لنفسه وطلب النجاة لها .

فالتمست للانسان مثلا ، فاذا مثله مثل رجل نجا من خوف فيل هائج الى بئر ، فتدلى فيها ، وتعلق بغصنين كانا على سمائها ، فوقعت رجلاه على شئ فى طى البئر . فاذا حيات أربع قد أخرجن رءوسهن من أجحارهن ؛ ثم نظر فاذا فى قاع البئر تنين (٢) فاتح فاه منتظر له ليقع فيأخذه ؛ فرفع بصره الى الغصنين فاذا فى أصلهما جرذان (٣) أسود وأبيض ، وهما يقرضان الغصنين دائبين لا يفتران ؛ فبينما هو فى النظر لأمره والاهتمام لنفسه ، اذ أبصر قريباً منه كوارة (٤) فيها

(١) المراد هنا القدرة (٢) ضرب من الحياة (٣) مثنى جرذ ضرب من الفأر
(٤) شئ يتخذ للنحل من القضبان وهى الخلية

عسل نحل ؛ فذاق العسل ؛ فشغلته حلاوته وألهته لذته عن الفكرة في شيء من أمره ، وأن يلتمس الخلاص لنفسه ؛ ولم يذكر أن رجليه على حيات أربع لا يدري متى يقع عليهن ؛ ولم يذكر أن الجرذين دائبان في قطع الغصنين ؛ ومتى انقطعا وقع على التنين . فلم يزل لاهيا غافلا مشغولا بتلك الحلاوة حتى سقط في فم التنين فهلك . فشبهت بالبئر الدنيا المملوءة آفات وشرورا ، ومخافات وعاهات ؛ وشبهت بالحيات الأربع الاخلاط الاربعة التي في البدن : فانها متى هاجت أو أحدها كانت كحمة (١) الافاعي والسم المميت ؛ وشبهت بالغصنين الاجل الذي لا بدّ من انقطاعه ؛ وشبهت بالجرذين الاسود والابيض الليل والنهار اللذين هما دائبان في افناء الأجل ؛ وشبهت بالتنين المصير الذي لا بد منه ؛ وشبهت بالعسل هذه الحلاوة القليلة التي ينال منها الانسان فيطعم ويسمع ويشم ويلمس ، ويتشاغل عن نفسه ، ويلهو عن شأنه ، ويصدّ عن سبيل قصده . فحينئذ صار أمري الى الرضا بحالي واصلاح ما استطعت اصلاحه من عملي ؛ لعلي أصادف باقي أيامي زمانا أصيب فيه دليلا على هداي ، وسلطانا (٢) على نفسي ، وقواما لأمري ، فأقمت على هذه الحال وانتسخت كتبا كثيرة ؛ وانصرفت من بلاد الهند ، وقد نسخت هذا الكتاب .

(انقضى باب برزويه المتطبب)

(١) سمها وضرها (٢) حجة

باب الأسد والثور وهو أوّل الكتاب

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف، وهو رأس البراهمة: اضرب لى مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء. قال بيدبا: اذا ابتلى المتحابان بأن يدخل بينهما الكذوب المحتال، لم يلبثا أن يتقاطعا ويتدابرا. ومن أمثال ذلك أنه كان بأرض دستاوَند رجل شيخ، وكان له ثلاثة بنين. فلمّا بلغوا أشُدّهم أسرفوا فى مال أبيهم؛ ولم يكونوا احترفوا حرفة يكسبون لأنفسهم بها خيرا. فلامهم أبوهم؛ ووَعَظهم على سُوءِ فِعْلِهم؛ وكان من قوله لهم: يا بنى ان صاحبَ الدنيا يطلب ثلاثةَ أمورٍ لن يدركها الا بأربعة أشياء: أما الثلاثة التى يطلب، فالسعة فى الرِّزق والمنزلة فى الناس والزاد للآخرة؛ وأما الأربعة التى يحتاج اليها فى درج هذه الثلاثة، فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثم حسن القيام على ما اكتسبه منه، ثم استثمارُه، ثم انفاقه فيما يُصلِحُ المعيشةَ ويُرْضِى الأهل والإخْوَان، فيعود عليه نفعه فى الآخرة. فمن ضيع شيئا من هذه الأحوال، لم يُدْرِكْ ما أراد من حاجته: لأنه ان لم يكتسب، لم يكن له مال يعيش به؛ وان هو كان ذا مال واكتساب ثم لم يحسن القيام عليه، أوشك المال أن يفْنَى ويبْقَى مُعْدِمًا؛ وان هو وضعه ولم يستثمره، لم تمنعه قلة الانفاق من سرعة الذهاب: كالكحل الذى لا يؤخذ منه الا غُبَار الميل ثم هو مع ذلك سريع فَنَاؤه؛ وان أنفقه فى غير وجهه، ووضعه فى غير موضعه، وأخطأ به مواضع استحقاقِهِ، صار بمنزلة الفقير الذى لا مالَ له؛ ثم لا يمنع ذلك ماله من التلف

بالحوادث والعلل التى تجرى عليه ؛ كمَحْبِس الماء الذى لا تزال المياه تنصب فيه ؛ فان لم يكن له مخرج ومفيض ومُتَنَفَّس يخرج الماء منه بقَدَر ما ينبغى ، خَرِبَ وسال ونز من نواحٍ كثيرة ، وربما انبثق (١) البثقُ العظيم فذهب الماء ضِياعًا . ثم ان بنى الشيخ اتعظوا بقول أبيهم وأخذوا به وعلِموا أن فيه الخير وعوّلوا عليه ؛ فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها مَيُون ؛ فأتى فى طريقه على ما كان فيه وَحَل كثير ؛ وكان معه عَجَلة يجرّها ثوران يقال لأحدهما شترَبة والآخَر بندبة ؛ فوحل شتربة فى ذلك المكان ؛ فعالجه الرجل وأصحابه حتى بلغ منهم الجُهْدُ ، فلم يقدِروا على إخراجه ؛ فذهب الرجل وخلف عنده رجلا يُشارفه : لعل الوحل ينشف فيتْبَعَه بالثور . فلما بات الرجل بذلك المكان ، تبرّم (٢) به واستوحش ؛ فترك الثور والتحق بصاحبه ، فأخبره ان الثور قد مات ؛ وقال له : ان الانسان اذا انقضت مُدّتُه وحانت مَنيته فهو وان اجتهد فى التوقى من الأمور التى يخاف فيها على الهلاك لم يُغْنِ ذلك عنه شيئا ؛ ورُبّما عاد اجتهاده فى توقيه وحذره وبالا عليه (٣)

كالذى قيل : إن رجلا سلك مفازة فيها خوف من السِّباع ؛ وكان الرجل خبيرا بوعث تلك الأرض وخوفها ؛ فلما سار غيرَ بعيد اعترض له ذئب من أحد الذئاب وأضْرَاها ؛ فلما رأى الرجل أن الذئبَ قاصدٌ نحوه خاف منه ؛ ونظر يمينا وشمالا ليجد مَوْضِعًا يتحرزا فيه من الذئب فلم ير الا قرية خلفَ وادٍ؛ فذهب مسرعا نحو القرية فلما أتى الوادىَ لم يَرَ عليه قنطرة ، ورأى الذئب قد أدركه ، فألقى

(١) انشق وانفجر (٢) ضجر (٣) وخيم العاقبة

نفسه فى الماء ، وهو لا يحسن السباحة ، وكاد يغرق ، لولا أن بصر به قوم من أهل القرية ، فتواقعوا لاخراجه فأخرجوه ، وقد أشرف على الهلاك ؛ فلما حصل الرجل عندهم وأمن على نفسه من غائلة الذئب رأى على عدْوة (١) الوادى بيتا مفردا ؛ فقال : أدخل هذا البيت فاستريح فيه ؛ فلما دخله وجد جماعة من اللصوص قد قطعوا الطريق على رجل من التجار . وهما يقتسمون ماله ؛ ويريدون قتله ؛ فلما رأى الرجل ذلك خاف على نفسه ومضى نحو القرية ؛ فأسند ظهره الى حائط من حيطانها ليستريح مما حل به من الهول والاعياء ، اذ سقط الحائط عليه فمات قال التاجر : صدقت ؛ قد بلغنى هذا الحديث . واما الثور فانه خلص من مكانه وانبعث ؛ فلم يزل فى مرج مخصب كثير الماء والكلأ ؛ فلما سمن وأمن جعل يخور ويرفع صوته بالخوار . وكان قريب منه أجمة فيها أسد عظيم ؛ وهو ملك تلك الناحية ؛ ومعه سباع كثيرة وذئاب وبنات آوى وثعالب وفهود ونمور ؛ وكان هذا الأسد منفردا برأيه دون أخذ برأى أحد من أصحابه . فلما سمع خُوار الثور ، ولم يكن رأى ثور قط ، ولا سمع خواره ؛ لأنه كان مقيما مكانه لا يبرح ولا ينشط ؛ بل يؤتى برزقه كل يوم على يد جنده . وكان فيمن معه من السِّباع ابنا آوى يقال لأحدهما كليلة والآخر دمنة ؛ وكان ذوَى دهاء وعلم وأدب فقال دمنة لأخيه كليلة : يا أخى ما شأن الأسد مقيما مكانه لا يبرح ولا ينشَط ؟ قال له كليلة : ما شأنك أنت بالمسألة عن هذا ؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحبّ وتاركين ما يكره ؛ ولسنا من أهل المرتبة

(١) العدوة بضم العين وكسرها جانب الوادى

التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظرَ في أمورهم . فأمسك عن هذا؛ واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شأنه أصابه ما أصاب القرد من النجار .

قال دمنة: وكيف كان ذلك ؟ قال كليلة: زعموا أن قردا رأى نجّارا يشق خشبة بين وتدين ، وهو راكب عليها ؛ فأعجبه ذلك. ثم ان النجار ذهب لبعض شأنه. فقام القرد ، وتكلف ما ليس من شغله ؛ فركب الخشبة ؛ وجعل ظهره قبل الوتد ، ووجهه قِبل الخشبة ؛ فتدلى ذنبه في الشق ؛ ونزع الوتد فلزم (١) الشق عليه فخرّ مغشيّا عليه . ثم ان النجار وافاه فرآه موضعه ، فأقبل عليه يضربه . فكان ما لقي من النجار من الضرب أشدّ ممّا أصابه من الخشبة . قال دمنة : قد سمعت ما ذكرت ، ولكن أعلم ان كل ما يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه ؛ وانما يدنو منهم ليسرّ الصديق ويكبت العدوّ . وان من الناس من لا مروءة له؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون ؛ كالكلب الذي يصيب عظما يابسا فيفرح به . وأما أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل ، ولا يرضون به ، دون أن تسمو به نفوسهم الى ما هم أهل له ، وهو أيضا لهم أهل ؛ كالاسد الذي يفترس الأرنب ؛ فاذا رأى البعير تركها وطلب البعير ؛ ألا ترى أن الكلب يبصبص (٢) بذنبه، حتى ترمى له الكسرة . وان الفيل المعترف بفضله وقوته اذا قدّم اليه علفه لا يعتلفه حتى يُمسَح ويتملق له . فمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على أهله واخوانه فهو وإن قَلَّ عُمْرُه طويل العمر . ومن كان في عيشه ضيقٌ وقلةٌ وامساكٌ على نفسه

(١) انضم (٢) يحرك ذنبه

وذويه فالمقبور أحيا منه . ومن عمل لبطنه وقنع وترك ما سوى ذلك عدّ من البهائم .

قال كليلة : قد فهمت ما قلت ؛ فراجع عقلك ، واعلم ان لكل انسان منزلة وقدرا . فإن كان فى منزلته التى هو فيها متماسكا ، كان حقيقا ان يقنع . وليس لنا من المنزلة ما يحط حالنا التى نحن عليها . قال دمنة : ان المنازل متنازعة مشتركة على قدر المروءة ؛ فالمرء ترفعه مروءته من المنزلة الوضيعة الى المنزلة الرفيعة ؛ ومن لا مروءة له يحط نفسه من المنزلة الرفيعة الى المنزلة الوضيعة . وان الارتفاع الى المنزلة الشريفة شديد ، والانحطاط منها هين ؛ كالحجر الثقيل : رفعه من الأرض الى العاتق عسر ، ووضعه الى الأرض هين . فنحن أحق ان نروم ما فوقنا من المنازل، وأن نلتمس ذلك بمروءتنا . ثم كيف نقنع بها ونحن نستطيع التحوّل عنها ؟ قال كليلة : فما الذى اجتمع عليه رأيك ؟ قال دمنة : أريد ان أتعرّض للأسد عند هذه الفرصة : فان الأسد ضعيف الرأى . ولعلى على هذه الحال أدنو منه فأصيب عنده بمنزلة ومكانة . قال كليلة : وما يدريك ان الأسد قد التبس عليه أمره ؟ قال دمنة : بالحس والرأى أعلم ذلك منه : فان الرجل ذا الرأى يعرف حال صاحبه وباطن أمره بما يظهر له من دله وشكله . قال كليلة : فكيف ترجو المنزلة عند الأسد ولست بصاحب السلطان، ولا لك علم بخدمة السلاطين ؟ قال دمنة : الرجل الشديد القوى لا يعجزه الحمل الثقيل ، وان لم تكن عادته الحمل ؛ والرجل الضعيف لا يستقل به ، وان كان ذلك من صناعته . قال كليلة : فان السلطان لا يتوخى بكرامته فضلاء من بحضرته ؛ ولكنه يؤثر الأدنى ومن قرب

منه . وقال : ان مثل السلطان فى ذلك مثل شجر الكرم الذى لا يعلق إلا بأقرب الشجر . وكيف ترجو المنزلة عند الاسد ولست تدنو منه ؟ قال دمنة : قد فهمت كلامك جميعه وما ذكرت ؛ وأنت صادق. لكن أعلم أنّ الذى هو قريب من السلطان ولا ذلك موضعه ولا تلك منزلته ، ليس كمن دنا منه بعد البعد وله حقٌ وحرمةٌ ؛ وأنا ملتمس بلوغ مكانتهم بجهدى . وقد قيل: لا يواظب على باب السلطان الا من يطرح الأنفة ويحمل الأذى ويكظم الغيظ ويرفق بالناس ويكتم السرّ ؛ فاذا وصل الى ذلك فقد بلغ مراده. قال كليلة : هبْك وَصَلْت الى الأسد ، فما توفيقك عنده الذى ترجو أن تنال به المنزلة والحظوة لديه ؟ قال دمنة : لو دنوتُ منه وعرفتُ أخلاقه ، لرفقتُ فى متابعته وقلة الخلاف له . واذا أراد أمرا هو فى نفسه صواب ، زينته له وصبّرته عليه ، وعرّفته بما فيه من النفع والخير ، وشجعته عليه وعلى الوصول اليه ، حتى يزداد به سرورا . واذا أراد أمرا يخاف عليه ضرّة وشينه ، بصّرته بما فيه من الضرّ والشين ، وأوقفته على ما فى تركه من النفع والزين ، بحسب ما أجد اليه السبيل . وأنا أرجو أن أزداد بذلك عند الاسد مكانة ويرى منى ما لا يراه من غيرى : فان الرجل الأديب الرفيق لوشاء أن يبطل حقا أو يحقّ باطلا لفعل : كالمصوّر الماهر الذى يصوّر فى الحيطان صورا كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة . قال كليلة : أما ان قلت هذا أو قلت هذا فانى أخاف عليك من السلطان فان صحبته خطرة . وقد قالت العلماء : ان امورا ثلاثة لا يجترئ عليهن الا أهوج ، ولا يسلم منهن الا قليل : وهى صحبة

السلطان وائتمان النساء على الأسرار وشرب السم للتجربة . إنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى الذى فيه الثمار الطيبة والجواهر النفيسة والأدوية النافعة . وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف . فالارتقاء اليه شديد ، والمقام فيه أشدّ.
قال دمنة : صدقتَ فيما ذكرتَ ؛ غير انه من لم يركب الاهوال ، لم ينل الرغائب ؛ ومن ترك الامر الذى لعله يبلغ فيه حاجته هيبة ومخافة لما لعله أن يتوقّاه ، فليس ببالغ جسيما . وقد قيل : ان خصالا ثلاثا لن يستطيعها أحد الا بمعونة من علوّ همّة وعظيم خطر : منها عمل السلطان وتجارة البحر ومناجزة (١) العدوّ . وقد قالت العلماء فى الرجل الفاضل الرشيد : انه لا يُرى الا فى مكانين ، ولا يليق به غيرهما : إمّا مع الملوك مكرّما ، وإمّا مع النساك متعبّدا كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين : اما أن تراه وحشيا أو مركبا للملوك . قال كليلة : خار (٢) الله لك فيما عزمت عليه .

ثم ان دمنة انطلق حتى دخل على الأسد فسلم عليه . فقال الاسد لبعض جلسائه : من هذا ؟ فقال : فلان ابن فلان . قال : قد كنت أعرف أباه . ثم سأله أين تكون ؟ قال : لم أزل ملازما باب الملك ، رجاء أن يحضر أمر فأعين الملك فيه بنفسى ورأيى : فان أبواب الملوك تكثر فيها الأمور التى ربما يحتاج فيها الى الذى لا يُؤْبَهُ (٣) له ؛ وليس أحد يصغر أمره الا وقد يكون عنده بعض الغَناء والمنافع على قدره ؛ حتى العود الملقى فى الارض ربما نفع ، فيأخذه الرجل فيكون عدّته عند الحاجة اليه . فلما سمع الاسد قول دمنه أعجبه ، وظن أن

(١) مقاتلة (٢) جعل لك فيه الخير (٣) يفطن

عنده نصيحةً و رأيا . فأقبل على من حضر فقال : ان الرجل ذا العلم والمروءة يكون خاملَ الذكر خافضَ المنزلة ، فتأْبَى منزلتَه الا ان تشبَّ وترتفع ؛ كالشعْلةِ من النار يضربها صاحبها وتأْبى الا ارتفاعا. فلما عرف دمنة أنّ الاسد قد عجب منه قال : ان رعية الملك تحضر باب الملك ، رجاء أن يعرف ما عندها من علم وافر . وقد يقال : ان الفضل فى أمرين : فضل المقاتل على المقاتل والعالم على العالم. وان كثرة الاعوان اذا لم يكونوا مختبرين ربّما تكون مضرة على العمل : فان العمل ليس رجاؤه بكثرة الاعوان ولكن بصالحى الاعوان . ومثل ذلك مثل الرجل الذى يحمل الحجر الثقيل ، فيثقل به نفسه ، ولا يجد له ثمنا . والرجل الذى يحتاج الى الجذوع لا يجزئه القصب وان كثر . فأنت الآن أيها الملك حقيق ألاّ تحقر مروءة أنت تجدها عند رجل صغير المنزلة : فان الصغير ربما عظم ، كالعصب يؤخذ من الميتة فاذا عُمِلَ منه القوسُ أُكرِمَ فتقبض عليه الملوك وتحتاج اليه فى البأس واللهو .

وأحبّ دمنة أن يَرَى القومَ أن ما ناله من كرامة الملك انما هو لرأيه ومروءته وعقله : لأنهم عرفوا قبل ذلك أن ذلك لمعرفته أباه ؛ فقال: ان السلطان لا يقرّب الرجال لقرب آبائهم ، ولا يبعّدهم لبعدهم، ولكن ينبغى أن ينظر الى كل رجل بما عنده : لانه لاشىءَ أقرب الى الرجل من جسده ومن جسده ما يَدْوَى (١) حتى يُؤْذِيَهُ ولا يدفع ذلك عنه الا بالدَّواء الذى يأتيه من بعْدٍ .

فلما فرغ دمنة من مقالته هذه أعجب الملك به اعجابا شديدا ، وأحسن الردّ عليه ، وزاد فى كرامته . ثم قال لجلسائه: ينبغى للسلطان

(١) يمرض

ألاّ يلجّ في تضييع حق ذوي الحقوق . والناس في ذلك رجلان : رجل طبعه الشراسة ، فهو كالحية ان وطئها الواطىء فلم تلدغه ، لم يكن جديرا أن يغرّه ذلك منها ، فيعود الى وطئها ثانيا فتلدغه ؛ ورجل أصل طباعه السهولة ، فهو كالصندل البارد الذي اذا أفرط في حكّه صار حارّا مؤذيا .

ثم ان دمنة استأنس بالاسد وخلا به . فقال له يوما : أرى الملك قد أقام في مكان واحد لا يبرح منه ، فما سبب ذلك ؟ فبينما هما في هذا الحديث اذ خار شتربة خوارا شديدا : فهيّج الإسد ، وكره ان يخبر دمنة بما ناله ؛ وعلم دمنة أن ذلك الصوت قد أدخل على الاسد ريبة(١) وهيبة . فسأله : هل راب الملك سماع هذا الصوت ؟ قال لم يربني شيء سوى ذلك . قال دمنة : ليس الملك بحقيق ان يدع مكانه لاجل صوت . فقد قالت العلماء : انه ليس من كل الاصوات تجب الهيبة . قال الاسد : وما مثل ذلك ؟

قال دمنة : زعموا ان ثعلبا أتى أجمة (٢) فيها طبل معلق على شجرة ، وكلما هبت الريح على قضبان تلك الشجرة حركتها ، فضربت الطبل فسمع له صوت عظيم ؛ فتوجه الثعلب نحوه لاجل ما سمع من عظيم صوته ؛ فلما أتاه وجده ضخما ، فأيقن في نفسه بكثرة الشحم واللحم . فعالجه حتى شقه . فلما رآه أجوف لا شيء فيه قال : لا أدري لعل أفشل الاشياء أجهرها صوتا وأعظمها جثة . وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ هذا الصوت الذي راعنا ، لو وصلنا اليه ، لوجدناه أيسر مما في أنفسنا . فان شاء الملك بعثني وأقام

(١) ظنا لما يخاف منه (٢) الشجر الكثير الملتف

بمكانه حتى آتيه ببيان هذا الصوت . فوافق الاسد قوله ، فأذن له بالذهاب نحو الصوت . فانطلق دمنة الى المكان الذى فيه شتربة . فلما فصل دمنة من عند الاسد ، فكر الاسد فى أمره ، وندم على ارسال دمنة حيث أرسله، وقال فى نفسه : ما اصبت فى ائتمانى دمنة، وقد كان ببابى مطروحا ، فان الرجل اذا كان يحضر باب الملك ، وقد أبطلت حقوقه من غير جرم كان منه ، او كان مبغيًّا عليه عند سلطانه ، او كان عنده معروفا بالشره والحرص ، او كان قد أصابه ضرّ وضيق فلم ينعشه ، او كان قد اجترم جرما فهو يخاف العقوبة منه ، او كان يرجو شيئا يضرّ الملك وله منه نفع ، او يخاف فى شىء مما ينفعه ضرًّا ، او كان لعدوّ الملك مسالما ، ولمسالمه محاربا ، فليس السلطان بحقيق أن يعجل بالاسترسال اليه ، والثقة به ، والائتمان له : فان دمنة داهية أريب. وقد كان ببابى مطروحا مجفوًّا. ولعله قد احتمل علىّ بذلك ضغنا ، ولعل ذلك يحمله على خيانتى واعانة عدوّى وتنقيصى عنده ؛ ولعله صادف صاحب الصوت أقوى سلطانا منى فيرغب به عنى ويميل معه علىّ . ثم قام من مكانه فمشى غير بعيد ، فبصر بدمنة مقبلا نحوه ، فطابت نفسه بذلك ، ورجع الى مكانه ؛ ودخل دمنة على الاسد فقال له : ماذا صنعت ؟ وماذا رأيت ؟ قال : رأيت ثورا هو صاحب الخوار والصوت الذى سمعته . قال : فما قوّته ؟ قال : لا شوكة له. وقد دنوت منه وحاورته محاورة الاكفاء فلم يستطع لى شيئا . قال الاسد : لا يغرّنك ذلك منه ولا يصغرنّ عندك أمره : فان الريح الشديدة لا تعبأ بضعيف الحشيش ، لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر . قال دمنة : لا تهابن أيها الملك منه شيئا ؛ ولا

يكبرنّ عليك أمره : فأنا آتيك به ليكون لك عبدا سامعا مطيعا . قال الاسد : دونك وما بدا لك .

فانطلق دمنة الى الثور ، فقال له غير هائب ولا مكترث : إنّ الاسد أرسلنى اليك لآتيه بك . وأمرنى ، ان أنت عجلت اليه طائعا، أن أؤمّنك على ما سلف من ذنبك فى التأخر عنه وتركك لقاءه ؛ وان أنت تأخرت عنه وأحجمت ، أن أعجّل الرجعة اليه فأخبره . قال له شتربة : ومن هو هذا الاسد الذى أرسلك الىّ ؟ وأين هو وما حاله ؟ قال دمنة : هو ملك السباع ، وهو بمكان كذا ، ومعه جند كثير من جنسه . فرعب شتربة من ذكر الاسد والسباع . وقال : ان أنت جعلت لى الأمان على نفسى أقبلت معك اليه . فأعطاه دمنة من الأمان ما وثق به . ثمّ أقبل والثور معه ، حتى دخلا على الاسد فأحسن الاسد على الثور وقرّبه ؛ وقال له : متى قدمت هذه البلاد ؟ وما أقدمكها ؟ فقص شتربة عليه قصته . فقال له الاسد اصحبنى والزمنى : فانى مكرمك . فدعا له الثور وأثنى عليه .

ثم ان الاسد قرّب شتربة وأكرمه وأنس به وائتمنه على أسراره وشاوره فى أمره ، ولم تزده الأيام الا عجبا به ورغبة فيه وتقريبا منه ؛ حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة . فلمّا رأى دمنة ان الثور قد اختص بالاسد دونه ودون أصحابه ، وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه ، حسده حسدا عظيما ، وبلغ منه غيظه كل مبلغ : فشكا ذلك الى أخيه كليلة ؛ وقال له : ألا تعجب يا أخى من عجز رأيى ، وصنعى بنفسى ؟ ونظرى فيما ينفع الاسد ، وأغفلت نفع نفسى حتى جلبت الى الاسد ثورا غلبنى على منزلتى .

قال كليلة : أخبرنى عن رأيك وما تريد أن تعزم عليه فى ذلك . قال دمنة : أمّا أنا فلست اليوم أرجو أن تزداد منزلتى عند الأسد فوق ما كانت عليه ؛ ولكن ألتمس أن أعود الى ما كنت عليه : فان أمورا ثلاثة ، العاقل جدير بالنظر فيها ، والاحتيال لها بجهده : منها النظر فيما مضى من الضرّ والنفع ، فيحترس من الضرّ الذى أصابه فيما سلف لئلا يعود الى ذلك الضرّ ، ويلتمس النفع الذى مضى ويحتال لمعاودته ؛ ومنها النظر فيما هو مقيم فيه من المنافع والمضارّ ، والاستيثاق بما ينفع والهرب ممّا يضرّ ؛ ومنها النظر فى مستقبل ما يرجو من قبل النفع ، وما يخاف من قبل الضرّ ، فيستتمّ ما يرجو ويتوقى ما يخاف بجهده . وإنى لمّا نظرت فى الأمر الذى به أرجو أن تعود منزلتى ، وما غُلبتُ عليه مما كنت فيه ، لم أجد حيلة ولا وجها الا الاحتيال لآكل العُشْبِ هذا ، حتى أفرّق بينه وبين الحياة : فانه ان فارق الاسد ، عادت لى منزلتى . ولعل ذلك يكون خيرا للأسد : فان إفراطه فى تقريب الثور خليق أن يَشينه ويَضُرّه فى أمره . قال كليلة : ما أرى على الاسد فى رأيه فى الثور ومكانه منه ومنزلته عنده شيئا ولا شرّا . قال دمنة : إنما يُؤْتَى (١) السلطان ويُفسَدُ أمرُه من قِبَلِ ستةِ أشياءٍ : الحِرْمان والفتنة والهوى والفظاظة والزمان والخرق .

فامّا الحرمان فانْ يَحْرِمُ صالح الأعوان والنُصَحاء والساسة من أهل الرأى والنجْدة والامانة وترك التفقد لمن هو كذلك . وأما الفتنة فهو تحارب الناس ووقوع الحرب بينهم . وأما الهوى فالغَرام بالحديث

(١) أُتِىَ فلان كعُنِىَ أشرف عليه العدوّ والمراد فتح باب الشر عليه

واللهو والشراب والصيد وما أشبه ذلك . وأما الفظاظة فهى إفراط الشدّة حتى يجمح اللسان بالشتم واليَدُ بالبطش فى غير موضعهما . وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين والموت ونقص الثمرات والغزوات وأشبه ذلك . وأما الخُرق فإعمال الشدة فى موضع اللين ، واللين فى موضع الشدة . وان الاسد قد أغرم بالثور اغراما شديدا هو الذى ذَكرتُ لك أنه خليق أن يَشِينَه ويَضرّه فى أمره . قال كليلة: وكيف تطيق الثور وهو أشد منك وأكرم على الأسد منك وأكثر أعوانا ؟ قال دمنة : لا تنظر الى صِغَرى وضعفى : فان الامور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصِغَر ولا الكِبَر فى الجثّة : فرب صغير ضعيف ، قد بلغ بحيلته ودهائه ورأيه ما يعجز عنه كثير من الاقوياء. أو لم يبلغك أن غرابا ضعيفا احتال لأسود حتى قتله ؟ قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أنّ غرابا كان له وكر فى شجرة على جبل ؛ وكان قريبا منه جحر ثُعبان أسود ، فكان الغراب إذا فرّخ عَمَدُ الأسود الى فراخه فأكلها ؛ فبلغ ذلك من الغراب وأحزنه ، فشكا ذلك الى صديق له من بنات آوى ، وقال له : أريد مشاورتك فى أمر قد عزمتُ عليه ؛ قال : وما هو ؟ قال الغراب : قد عزمتُ أن أذهب الى الأسود اذا نام ، فأنقر عينيه ، فأفقأهما ، لعلى أستريح منه ، قال ابن آوى : بئس الحيلة التى احتلتَ ؛ فالتمس أمرا تصيب فيه بغيتك من الاسود ، من غير أن تُغَرّرَ بنفسك وتخاطِرَ بها . واياك أن يكون مثلك مَثَلَ العلجوم (١) الذى أراد قتل السرطان (٢) فقتل

(١) طائر ابيض (٢) حيوان بحرى معروف

نفسه . قال الغراب : وكيف كان ذلك ؟

قال ابن آوى : زعموا أن علجوما عشش فى أجمة كثيرة السمك ؛ فعاش بها ما عاش ؛ ثم هَرِمَ فلم يستطع صيدا ؛ فأصابه جوع وجهد شديد ؛ فجلس حزينا يلتمس الحيلة فى أمره ؛ فمرّ به سرطان ، فرأى حالته وما هو عليه من الكآبة والحزن ؛ فدنا منه وقال : مالى أراك أيها الطائر هكذا حزينا كئيبا ؟ قال العلجوم : وكيف لا أحزن وقد كنت أعيش من صيد ما هاهنا من السمك ؟ وانى قد رأيت اليوم صيادَيْن قد مرّا بهذا المكان؛ فقال أحدهما لصاحبه ان : هاهنا سمكا كثيرا أفلا نصيده أوّلا ؟ فقال الآخر: انى قد رأيت فى مكان كذا سمكا أكثر من هذا السمك؛ فلنبدأ بذلك ، فاذا فرغنا منه جئنا الى هذا فأفنيناه . وقد علمتُ أنهما اذا فرغا ممـا هناك ، انتهيا الى هذه الأجمة فاصطادا ما فيها؛ فاذا كان ذلك فهو هلاكى ونَفاد مُدّتى . فانطلق السرطان من ساعته الى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك ؛ فأقبلن إلى العلجوم فاستشرنه ؛ وقلن له : إنا أتيناك لتشير علينا : فان ذا العقل لا يدع مشاورة عدوّه . قال العلجوم : أما مكابرة الصيادين فلا طاقة لى بها ؛ ولا أعلم حيلة الا المصير الى غدير قريب من هاهنا ، فيه سمك ومياه عظيمة وقصب ؛ فان استطعتن الانتقال اليه ، كان فيه صلاحكنّ وخِصْبُكنّ . فقلن له : ما يَمُنُّ علينا بذلك غيْرُك . فجعل العلجوم يحمل فى كلّ يوم سمكتين حتى ينتهى بهما الى بعض التلال فيأكلهما؛ حتى اذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين ، فجاءه السرطان ؛ فقال له : إنى أيضا قد أشفقت من مكانى هذا واستوحشت منه فاذهب بى الى ذلك الغدير ؛ فاحتمله وطار به ،

حتى اذا دنا من التل الذى كان يأكل السمك فيه نظر السَّرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك ؛ فعلم أن العلجوم هو صاحبها ؛ وأنه يريد به مثل ذلك . فقال فى نفسه : اذا لقى الرجل عدوَّه فى المواطن التى يعلم أنه فيها هالِكٌ ، سواء قاتل أم لم يقاتل ؛ كان حقيقا أن يقاتل عن نفسه كرما وحفاظا (١) ، ثمّ أهوى بكلبتيه (٢) على عنق العلجوم، فعصره فمات ؛ وتخلّص السرطان الى جماعة السمك فأخبرهنّ بذلك. وإنمّا ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ بعض الحيلة مهلكة للمحتال. ولكنى أدلّك على أمر ، إن أنت قدرت عليه ، كان فيه هلاك الأسود ، من غير أن تهلك به نفسك ، وتكون فيه سلامتك . قال الغراب : وما ذاك ؟

قال ابن آوى : تنطلق فتبصّرُ فى طيرانك : لعلك أن تظفر بشىء من حُلِىّ النِسَاء فتَخْطَفَه ؛ ولا تزال طائرا واقعا ، بحيث لا تفوت العيون ، حتى تأتِىَ جحر الأسود فترمى بالحلى عنده . فاذا رأى الناس ذلك أخذوا حليهم وأراحوك من الأسود . فانطلق الغراب محلّقا (٣) فى السماء ؛ فوجد امرأة من بنات العظماء فوقَ سَطْح تغتسل ؛ وقد وضعت ثيابَها وحُلِيَّها ناحيةً ؛ فانقض واختطف من حليها عِقْدا ، وطار به ؛ فتبعه الناس ؛ ولم يزل طائرا واقعا ، بحيث يراه كلّ أحد ؛ حتى انتهى الى جحر الأسود ؛ فألقى العِقْدَ عليه ؛ والناس ينظرون اليه . فلمّا أتوه اخذوا العقد وقتلوا الاسود . وإنما

(١) أنفة (٢) كلبتا السرطان هما قرناه اللذان يشبهان الأداة التى يأخذ بها الحداد الحديد المحمى أو التى يخرج بها النجار المسامير من الخشب (الكماشة) (٣) مستديرا فى طيرانه كالحلقة

ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الحيلة تجزئ ما لا تجزىء القوّة. قال كليلة : ان الثور لو لم يجتمع مع شدّته رأيه لكان كما تقول. ولكن له مع شدته وقوته حسن الرأى والعقل. فماذا تستطيع له ؟ قال دمنة : إن الثور لكما ذكرتَه فى قوته ورأيه ، ولكنه مُقِرٌّ لى بالفضل ؛ وانا خليق أن أصرعه كما صرعت الأرنب الأسد. قال كليلة: وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أن أسدا كان فى أرض كثيرة المياه والعشب ؛ وكان فى تلك الأرض من الوحوش فى سعة المياه والمرعى شىء كثير؛ الا أنه لم يكن ينفعها ذلك : لخوفها من الاسد ؛ فاجتمعت وأتت الى الاسد ؛ فقالت له : انك لتصيب منّا الدابة بعد الجهد والتعب ؛ وقد رأينا لك رأيا فيه صلاح لك وأمن لنا. فان أنت أمَّنْتَنا ولم تُخِفْنا ، فلك علينا فى كلّ يوم دابة نرسل بها اليك فى وقت غدائك : فرضى الاسد بذلك ؛ وصالحَ الوحوشَ عليه ، ووفين له به. ثم ان أرنبا أصابتها القرعة ، وصارت غداء الاسد ؛ فقالت للوحوش : ان أنتنّ رفقتن بى فيما لا يضرّكنّ ؛ رجوت أن أريحكنّ من الاسد. فقالت الوحوش : وما الذى تكليفننا من الامور ؟ قالت : تأمرن الذى ينطلق بى الى الاسد ان يمهلنى ريثما أبطىء عليه بعض الإبطاء. فقلن له : ذلك لكِ. فانطلقت الارنب متباطئةً ؛ حتى جاوزتِ الوقتَ الذى كان يتغدّى فيه الاسد. ثمّ تقدّمت اليه وحدها رويدا ، وقد جاع ؛ فغَضِبَ وقام من مكانه نحوها ؛ فقال لها : منْ أينَ أقبلتِ ؟ قالت : أنا رسول الوحوش اليك : بعثنى ومعى أرنب لك ،

فتبعني أسد في بعض تلك الطريق ؛ فأخذها مني، وقال أنا : أولى بهذه الارض وما فيها من الوحش . فقلت : ان هذا غداء الملك أرسلني به الوحوش اليه . فلا تغصبنه ، فسبّك وشتمك . فأقبلت مسرعة لأخبرك . فقال الاسد : انطلقي معي فأريني موضع هذا الاسد . فانطلقت الارنب الى جبّ فيه ماء غامر صاف ؛ فاطلعت فيه ؛ وقالت : هذا المكان . فاطلع الاسد ، فرأى ظله وظل الارنب في الماء ؛ فلم يشكّ في قولها ؛ ووثب اليه ليقاتله ، فغرق في الجبّ . فانقلبت الارنب الى الوحوش فأعلمتهنّ صنيعها بالاسد . قال كليلة : ان قدرت على هلاك الثور بشيء ليس فيه مضرّة للاسد فشأنك : فان الثور قد أضرّ بي و بك و بغيرنا من الجند ؛ وان أنت لم تقدر على ذلك إلاّ بهلاك الاسد ، فلا تقدم عليه ؛ فانه غدر مني ومنك . ثم ان دمنة ترك الدخول على الاسد أياماً كثيرة ؛ ثم أتاه على خلوة منه ؛ فقال له الاسد : ما حبسك عني ؟ منذ زمان لم أرك . ألا لخير كان انقطاعك ؟ قال دمنة : فليكنْ خيرا أيها الملك . قال الاسد : وهل حَدَث أمرٌ ؟ قال دمنة: حدث ما لم يكن الملك يريده ولا أحد من جنده . قال : وما ذاك ؟ قال : كلام فظيع . قال : أخبرني به . قال دمنة انه كلام يكرهه سامعه ، ولا يشجع عليه قائله . وإنك أيها الملك لذو فضيلة ؛ ورأيك يدلك على أن يوجعني أن أقول ما تكره ؛ وأثق بك أن تعرف نصحي وايثاري اياك على نفسي . وانه ليعرض لي أنك غير مصدّقي فيما أخبرك به ؛ ولكني اذا تذكرت وفكرت أن نفوسنا ، معاشر الوحوش ، متعلقة بك لم أجد بدّا من اداء الحق الذي يلزمني وان أنت لم تسألني وخفت ألا تقبل

منى فانه يقال : من كتم السلطان نصيحته والاخوان رأيه فقد خان نفسه . قال الاسد : فما ذاك ؟

قال دمنة : حدّثنى الأمين الصدوق عندى أن شتربة خلا برءوس جندك ، وقال : قد خبرت الاسد و بلوت رأيه ومكيدته وقوّته : فاستبان لى أن ذلك يؤول منه الى ضعف وعجز ، وسيكون لى وله شأن من الشؤون . فلمّا بلغنى ذلك علمت أن شتربة خوّان غدّار ؛ وأنك أكرمته الكرامة كلها ، وجعلته نظير نفسك ، وهو يظن أنه مثلك . وأنك متى زلت عن مكانك صار له ملكك ؛ ولا يدع جهدا الا بلغه فيك . وقد كان يقال : اذا عرف الملك من الرجل انه قد ساواه فى المنزلة والحال ، فليصرعه ؛ فان لم يفعل به ذلك ، كان هو المصروع . وشتربة أعلم بالأمور وأبلغ فيها ؛ والعاقل هو الذى يحتال للأمر قبل تمامه ووقوعه : فانك لا تأمن أن يكون ولا تستدركه . فانه يقال : الرجال ثلاثة : حازم وأحزم منه وعاجز ؛ فأحد الحازمين مَنْ اذا نزل به الأمر لم يدهش له ، ولم يذهب قلبه شعاعا (١) ، ولم تعى به حيلته ومكيدته التى يرجو بها المخرج منه ؛ وأحزم من هذا المتقدّم ذو العدّة الذى يعرف الابتلاء قبل وقوعه ؛ فيعظمه اعظاما ، ويحتال له حتى كأنه قد لزمه : فيحسم (٢) الداء قبل ان يبتلى به ؛ ويدفع الامر قبل وقوعه وأما العاجز فهو فى تردّد وتمنّ وتوان حتى يهلك . ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث . قال الاسد : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أن غديرا كان فيه ثلاث سمكات : كيسة وأكيس

(١) متفرقا (٢) يقطع

منها وعاجزة ؛ وكان ذلك الغدير بنجوة (١) من الارض لا يكاد يقرب به أحد ؛ بقربه نهر جار . فاتفق انه اجتاز بذلك النهر صيادان ؛ فأبصرا للغدير ، فتواعدا أن يرجعا اليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك . فسمع السمكات قولهما : فاما اكيسهن لما سمعت قولهما ، ارتابت بهما ؛ وتخوفت منهما ؛ فلم تعرج (٢) على شيء حتى خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر الى الغدير . واما الكيسة فانها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ؛ فلما رأتهما ، وعرفت مايريدان ، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ؛ فاذا بهما قد سدا ذلك المكان ؛ فحينئذ قالت : فرطت ، وهذه عاقبة التفريط ؛ فكيف الحيلة على هذا الحال ؟ وقلما تنجح حيلة العجلة والارهاق (٣) ، غير ان العاقل لا يقنط من منافع الرأى ، ولا ييأس على حال ، ولا يدع الرأى والجهد . ثم انها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة ، وتارة على بطنها ؛ فأخذها الصيادان فوضعاها على الارض بين النهر والغدير ؛ فوثبت الى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل فى اقبال وادبار حتى صيدت .

قال الأسد : قد فهمت ذلك ؛ ولا أظن الثور يغشني و يرجو لى الغوائل (٤) . وكيف يفعل ذلك ولم ير منى سوءا قط ؟ ولم أدع خيرا الا فعلته معه ؟ ولا أمنية الا بلغته اياها ؟ . قال دمنة : ان اللئيم لا يزال نافعا ناصحا حتى يرفع الى المنزلة التى ليس لها باهل ؛ فاذا بلغها التمس ما فوقها ؛ ولا سيما أهل الخيانة والفجور : فان اللئيم الفاجر لا يخدم السلطان ولا ينصح له الا من فرق (٥) . فاذا استغنى

(١) مرتفع من الارض (٢) لم تقف (٣) الضيق والعسر (٤) الدواهى (٥) خوف

وذهبت الهيبة عاد الى جوهره ؛ كذنب الكلب الذى يربط ليستقيم فلا يزال مستويا ما دام مربوطا ؛ فاذا حلّ انحنى واعوج كما كان . واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصحائه ما يثقل عليه ممّا ينصحون له به ، لم يحمد رأيه ؛ كالمريض الذى يدع ما يبعث له الطبيب ؛ ويعمد الى ما يشتهيه . وحق على موازر السلطان أن يبالغ فى التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه ؛ والكف عما يضره ويشينه ؛ وخير الاخوان والاعوان أقلهم مداهنة فى النصيحة ؛ وخير الاعمال أحلاها عاقبة ؛ وخير النساء الموافقة لبعلها ؛ وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ؛ وأشرف الملوك من لم يخالطه بطر ؛ وخير الأخلاق أعونها على الورع . وقد قيل : لو أن امرأ توسد النار وافترش الحيات ، كان احق ألا يهنئه النوم . والرجل اذا احس من صاحبه بعداوة يريده بها ، لا يطمئن اليه ؛ واعجز الملوك . آخذهم بالهوينا ، وأقلهم نظرا فى مستقبل الأمور ، وأشبههم بالفيل الهائج الذى لا يلتفت الى شيء : فان حزَبه أمر تهاون به ؛ وان أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه . قال الأسد : لقد أغلَظْتَ في القول ؛ وقول الناصح مقبول محمول . وان كان شتربة معاديا لى ، كما تقول ، فانه لا يستطيع لى ضرّا ؛ وكيف يقدر على ذلك وهو آكل عشب وأنا آكل لحم؟ وانما هو لى طعام ، وليس علىّ منه مخافة . ثم ليس الى الغدر به سبيل بعد الامان الذى جعلته له ، وبعد اكرامى له ، وثنائى عليه . وان غيرت ما كان منى وبدّلته ، سَفِهْتُ رأيى وجهلت نفسي وغدرت بذمتى . قال دمنة : لا يغرّنك قولك : هو لى طعام وليس علىّ منه مخافة : فان شتربة ان لم يستطعْك بنفسه احتال لك

من قِبَل غيره . ويقال : إن استضافك ضيف ساعة من نهار ، وأنت لا تعرف أخلاقَه فلا تأمنــه على نفسك ؛ ولا تأمن أن يصلك منه أو بسببه ما أصــاب القملة من البرغوث . قال الأســد : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا ان قملة لزمتْ فراش رجل من الأغنياء دهرا ؛ فكانت تصيب من دمــه وهو نائم لا يشــعر ، وتدب دبيبا رفيقا ؛ فمكثت كذلك حينا حتى استضافها ليلة من الليالى برغوث ؛ فقالت له : بِتْ الليلة عندنا فى دم طيب وفراش لين ؛ فأقام البرغوث عندها حتى اذا أوى الرجل الى فراشــه وثب عليــه البرغوث فلدغه لدغة ايقظته ؛ وأطارت النوم عنه ؛ فقام الرجل وامر ان يفتش فراشه ؛ فنظر فلم ير إلا القملة ؛ فأخذت فقصعت (١) وفرّ البرغوث . وانما ضربت لك هذا المثل لتعلم ان صاحب الشرّ لا يسلم من شرّه أحد ؛ وان هو ضعف عن ذلك الشرّ جاء بسببه . وان كنت لا تخاف من شتربة، فخف غيرَه من جندك الذين قد حملهم(٢)عليك وعلى عداوتك. فوقع فى نفس الأسد كلام دمنة . فقال : فما الذى ترى اذا ؟ وبماذا تشير ؟ قال دمنة : ان الضرس لا يزال متأكلاً ، ولا يزال صاحبه منه في ألم وأذى حتى يفارقه . والطعام الذى قد عَفِنَ فى البطن ، الراحة فى قذفه . والعدوّ المَخُوف ، دواؤه قتلُه . قال الاســد : لقد تركتنى أكره مجاورة شتربة إياى ؛ وأنا مرسل اليــه ؛ وذاكر له ما وقع فى نفسى منه ؛ ثم آمره باللحاق حيث أَحَبَّ . فكره دمنة ذلك ، وعلم أن الأسد متى كلم شتربة فى ذلك وسمع منه جوابا عرف باطل ما أتى

(١) قتلت بالظفر (٢) أغرامهم

به ؛ واطلع على غدره وكذبه ؛ ولم يخف عليه أمره . فقال للأسد : أما إرسالك الى شتربة فلا أراه لك رأيا ولا حزما ؛ فلينظر الملك فى ذلك : فان شتربة متى شعر بهذا الأمر ، خفت أن يعاجل الملك بالمكابرة . وهو ان قاتلك ، قاتلك مستعدا ؛ وان فارقك ، فارقك فراقا يليك منه النقص ، ويلزمك منه العار . مع أن ذوى الرأى من الملوك لا يعلنون عقوبة من لم يعلن ذنبه ؛ ولكن لكل ذنب عندهم عقوبة : فلذنب العلانية عقوبة العلانية ، ولذنب السر عقوبة السر . قال الاسد : ان الملك اذا عاقب أحدا عن ظنة [1] ظنها من غير تيقن بجرمه ، فنفسه عاقب واياها ظلم . قال دمنة : أما اذا كان هذا رأى الملك ، فلا يدخلن عليك شتربة الا وأنت مستعد له ؛ واياك أن تصيبك منه غرة أو غفلة : فانى لا أحسب الملك حين يدخل عليه الا سيعرف أنه قد هم بعظيمة . ومن علامات ذلك أنك ترى لونه متغيرا ؛ وترى أوصاله ترعد ؛ وتراه ملتفتا يمينا وشمالا ؛ وتراه يهز قرنيه فعل الذى هم بالنطاح والقتال . قال الاسد : سأكون منه على حذر ؛ وان رأيت منه ما يدل على ما ذكرت علمت أن ما فى أمره شك .

فلما فرغ دمنة من حمل الاسد على الثور ، وعرف أنه قد وقع فى نفسه ما كان يلتمس ، وان الاسد سيتحذر الثور ، ويتهيأ له ، أراد أن يأتى الثور ليغريه بالاسد ؛ وأحب أن يكون اتيانه من قبل الاسد مخافة أن يبلغه ذلك فيتأذى به . فقال : أيها الملك ألا آتى شتربة فأنظر الى حاله وأمره ؛ وأسمع كلامه : لعلى أطلع على سره ،

(١) تهمة

فأطلع الملك على ذلك ، وعلى ما يظهرُ لى منه ؟ فأذن له الاسد فى ذلك . فانطلق فدخل على شتربة كالكئيب الحزين . فلما رآه الثور رحّب به ، وقال : ما كان سبب انقطاعك عنى ؟ فانى لم أرك منذ أيام ؛ ولعلك فى سلامة ! قال دمنة : ومتى كان من أهل السلامة من لا يملك نفسه ، وأمره بيد غيره ممّن لا يُوثَق به ؛ ولا ينفك على خطر وخوف . حتى ما من ساعة تمرّ ويأمن فيها على نفسه . قال شتربة : وما الذى حدث ؟ قال دمنة : حدث ما قدّرَ وهو كائن . ومن ذا الذى غالب القدر ؟ ومن ذا الذى بلغ من الدنيا جسيما من الأمور فلم يبْطَر ؟ ومن ذا الذى بلغ مناه فلم يغترّ ؟ ومن ذا الذى تبع هواه فلم يخسر ؟ ومن ذا الذى طلب من اللئام فلم يحرم ؟ ومن ذا الذى خالط الأشرار فسلم ؟ ومن ذا الذى صحب السلطان فدام له منه الأمْنُ والاحسانُ ؟ قال شتربة : انى أسمع منك كلاما يدل على أنه قد رابك من الأسد ريب ، وهَالَكَ منه أمر . قال دمنة : أجل، لقد رابنى منه ذلك ؛ وليس هو فى أمر نفسى . قال شتربة : ففى نفس من رابك ؟ قال دمنة : قد تعلم ما بينى وبينك ، وتعلم حقك علىّ ، وما كنت جعلت لك من العهد والميثاق أيامَ أرسلنى الأسد اليك ، فلم أجد بدّا من حفظك واطلاعك على ما اطلعت عليه ممّا أخاف عليك منه . قال شتربة : وما الذى بلغك ؟ قال دمنة: حدّثنى الخبيرُ الصَّدوق الذى لا مِرْيَةَ فى قوله أن الاسد قال لبعض أصحابه وجلسائه : قد أعجبنى سمن الثور ؛ وليس لى الى حياته حاجة ؛ فأنا آكله ومطعِمٌ أصحابى من لحمه . فلما بلغنى هذا القول ، وعرفت غدره ونقض عهده ؛ أقبلت اليك لأقضى حقَّكَ ؛ وتحتال أنت لأمرك .

فلما سمع شتربة كلام دمنة ، وتذكر ما كان دمنة جعل له من العهد والمثياق ، وفكر فى أمر الاسد ، ظنّ أن دمنة قد صدقه ونصح له ؛ ورأى أن الامر شبيه بما قال دمنة . فأهمه ذلك ، وقال : ما كان للأسد أن يغدر بى ولم آت اليه ذنبا ، ولا الى أحد من جنده ، منذ صحبته ؛ ولا أظنّ الأسد الا قد حمل علىّ بالكذب وشُبّهَ [1]عليه أمرى : فان الاسد قد صحبه قوم سَوْء ؛ وجرّب منهم الكذب وأمورا هى تصدق عنده ما بلغه من غيرهم : فان صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء ظن بالاخيار ؛ وحملته تجربته على الخطإ كخطإ البطة التى زعموا أنها رأت فى الماء ضوء كوكب ، فظنته سمكة ، فحاولت أن تصيدها ؛ فلما جربت ذلك مرارا ، علمت أنه ليس بشىء يصاد فتركته . ثم رأت من غد ذلك اليوم سمكة ، فظنت أنها مثل الذى رأته بالأمس ، فتركتها ولم تطلب صيدها . فان كان الاسد بلغه عنى كذب فصدّقه علىّ وسمعه فىّ ، فما جرى على غيرى يجرى علىّ . وان كان لم يبلغه شىء ، وأراد السوء بى من غير علة ، فان ذلك لمن أعجب الأمور . وقد كان يقال : ان من العجب أن يطلب الرجل رِضَا صاحبه ولا يرضى . وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط . فاذا كانت الموجدة [2] عن علة ، كان الرّضا موجودا والعفو مأمولا . واذا كانت عن غير علة ، انقطع الرجاء : لأن العلة اذا كانت الموجدة فى ورودها ، كان الرّضا مأمولا فى صدورها .

وقد نظرت : فلا أعلم بينى وبين الاسد جرما ، ولا صغير ذنب ،

(١) لبس (٢) الغضب

ولا كبيره . ولعمري ما يستطيع أحد أطال صحبة صاحب أن يحترس فى كل شيء من أمره ، ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه ؛ ولكنّ الرجل ذا العقل وذا الوفاء اذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها ، وعرف قدر مبلغ خطئه عمدا كان أو خطأ . ثم ينظر هل فى الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه ؟ فلا يؤاخذ صاحبه بشيء يجد فيه الى الصفح عنه سبيلا . فان كان الاسد قد اعتقد علىّ ذنبا ، فلست أعلمه ؛ الا أنى خالفته فى بعض رأيه نصيحة له ؛ فعساه أن يكون قد أنزل أمرى على الجراءة عليه والمخالفة له ؛ ولا أجد لى فى هذا المحضر إثما ما : لأنى لم أخالفه فى شيء الا ما قد ندر من مخالفة الرشد والمنفعة والدين ؛ ولم أجاهر بشيء من ذلك على رءوس جنده وعند أصحابه ؛ ولكنّى كنت أخلو به وأكلمه سرّا كلام الهائب الموقر ؛ وعلمت أنه من التمس الرخص (١) من الاخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة ، أخطأ منافع الرأى ؛ وازداد فيما وقع فيه من ذلك تورطا (٢) ، وحمل الوزر . وان لم يكن هذا ، فعسى ان يكون ذلك من بعض سكرات السلطان : فان مصاحبة السلطان خطرة ، وان صوحب بالسلامة والثقة والمودّة وحسن الصحبة . وان لم يكن هذا ، فبعض ما أوتيت من الفضل قد جعل لى فيه الهلاك . وان لم يكن هذا ولا هذا ، فهو إذًا من مواقع القضاء والقدر الذى لا يُدْفَعُ ؛ والقدر هو الذى يسلب الاسدَ قوته وشدّته ، ويُدخِله القبرَ ؛ وهو الذى يحمل الرجل الضعيف على

(١) جمع رخصة وهى التسهيل (٢) ارتكابا

ظهر الفيل الهائج ؛ وهو الذى يسلط على الحية ذات الحُمَة من ينزع حمتها ويلعب بها ؛ وهو الذى يجعل العاجز حازما ، ويثبط [1] الشهم ، ويوسع على المقتر [2] ، ويشجع الجبان ، ويجبن الشجاع عند ما تعتريه المقادير من العلل التى وضعت عليها الاقدار .

قال دمنة : ان ارادة الاسد بك ليست من تحميل الأشرار ولا سكرة السلطان ولا غير ذلك ، ولكنها الغدر والفجور منه : فانه فاجر خوّان غدّار : لطعامه حلاوة وآخره سمّ مميت . قال شتربة : فأرانى قد استلذذت الحلاوة اذ ذقتها : وقد انتهيت الى آخرها الذى هو الموت ؛ ولولا الحين [3] ما كان مقامي عند الاسد ، وهو آكل لحم وأنا آكل عشب . فأنا فى هذه الورطة كالنحلة التى تجلس على نور النيلوفر [4] اذ تستلذ ريحه وطعمه ، فتحبسها تلك اللذة ؛ فاذا جاء الليل ينضم عليها ، فترتبك فيه وتموت . ومن لم يرض من الدنيا بالكفاف الذى يغنيه ، وطمحت [5] عينه الى ما سوى ذلك ، ولم يتخوف عاقبتها ، كان كالذباب الذى لا يرضى بالشجرة والرياحين ، ولا يقنعه ذلك ، حتى يطلب الماء الذى يسيل من أذن الفيل ، فيضربه الفيل بآذانه فيهلكه . ومن يبذل وده ونصيحته لمن لا يشكره ، فهو كمن يبذر فى السباخ . ومن يشر على المعجب ، فهو كمن يشاور الميت أو يسار الأصم . قال دمنة : دع عنك هذا الكلام واحتل لنفسك . قال شتربة : باىّ شيء أحتال لنفسي اذا أراد الاسد أكلى ، مع ما عرفتنى من رأى الاسد وسوء أخلاقه ؟ وأعلم أنه لو لم يرد بى الا خيرا ، ثم أراد أصحابه بمكرهم وفجورهم هلاكى لقدروا على ذلك :

(١) يسوّقه (٢) الفقير (٣) الهلاك والمحنة (٤) ضرب من الرياحين (٥) ارتفعت

فانه اذا اجتمع المكرة الظلمة على البرىء الصحيح ، كانوا خلقاء أن يهلكوه ، وإن كانوا ضعفاء وهو قوىّ ؛ كما أهلك الذئب والغراب وابن آوى الجمل ، حين اجتمعوا عليه بالمكر والخديعة والخيانة . قال دمنة : وكيف كان ذلك :

قال شتربة : زعموا أنّ أسدا كان في أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس ؛ وكان له أصحاب ثلاثة : ذئب وغراب وابن آوى ؛ وأنّ رعاة مرّوا بذلك الطريق ، ومعهم جمال ، فتخلّف منها جمل ، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى الى الاسد ؛ فقال له الاسد : من أين أقبلت ؟ قال : من موضع كذا . قال : فما حاجتك ؟ قال : ما يأمرني به الملك . قال : تقيم عندنا في السعة والامن والخصب . فأقام الاسد والجمل معه زمناً طويلا . ثم إنّ الاسد مضى في بعض الايام لطلب الصيد ، فلقى فيلا عظيما ، فقاتله قتالا شديدا ؛ وأفلت منه مثقلا مثخنا بالجراح ، يسيل منه الدم ، وقد خدشه الفيل بأنيابه . فلمّا وصل الى مكانه ، وقع لا يستطيع حراكا ، ولا يقدر على طلب الصيد ؛ فلبث الذئب والغراب وابن آوى أياما لا يجدون طعاما : لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الاسد وطعامه ؛ فأصابهم جوع شديد وهزال ، وعرف الاسد ذلك منهم ؛ فقال لقد جهدتم (١) واحتجتم الى ما تأكلون . فقالوا : لا تهمنا أنفسنا : لكنا نرى الملك على ما نراه . فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه . قال الاسد : ما أشكّ في نصيحتكم ؛ ولكن انتشروا لعلّكم تصيبون صيدا تأتونني به ؛ فيصيبني ويصيبكم منه رزق . فخرج الذئب والغراب وابن آوى من

(١) جهد حصل له مشقة

عند الاسد ؛ فتنحوا ناحية ، وتشاوروا فيما بينهم ؛ وقالوا : مالنا ولهذا الآكل العشب الذى ليس شأنه من شأننا ، ولا رأيه من رأينا؟ ألا نزين للاسد فيأكله ويطعمنا من لحمه ؟ قال ابن آوى : هذا مما لا نستطيع ذكره للاسد : لانه قد أمَّن الجمل ، وجعل له من ذمته عهدا . قال الغراب : أنا أكفيكم أمر الاسد . ثم انطلق فدخل على الاسد ؛ فقال له الاسد : هل أصبْتَ شيئا ؟ قال الغراب : انما يصيب من يسعى ويُبْصِر . وأما نحن فلا سعى لنا ولا بصر : لما بنا من الجوع ؛ ولكن قد وفِّقنا لرأى واجتمعنا عليه ؛ ان وافقنا الملك فنحن له مجيبون . قال الاسد : وما ذاك ؟ قال الغراب : هذا الجمل آكل العشب المتمرِّغ بيننا من غير منفعة لنا منه ، ولا ردّ عائدة ، ولا عمل يعقب مصلحة . فلما سمع الاسد ذلك غضب وقال : ما أخطأ رأيك ، وما أعجز مقالك ، وأبعدك من الوفاء والرحمة ! وما كنت حقيقا أن تجترئ عليّ بهذه المقالة ، وتستقبلنى بهذا الخطاب ؛ مع ما علمت من أنى قد أمنت الجمل ، وجعلت له من ذمتى . أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هى أعظم أجرا ممن أمّن نفسا خائفة ؟ وحقّن دما مُهْدرا ، وقد أمَّنته ولست بغادر به . قال الغراب : انى لأعرف ما يقول الملك ؛ ولكن النفس الواحدة يفتدى به أهل البيت ؛ وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة ؛ والقبيلة يفتدى بها أهل المصر ؛ وأهل المصر فداء الملك . وقد نزلتُ بالملك الحاجة ؛ وأنا أجعل له من ذمته مخرجا ، على ألا يتكلف الملك ذلك ، ولا يليهُ بنفسه ، ولا يأمر به أحدا ؛ ولكنا نحتال بحيلة لنا وله فيها اصلاح وظفر . فسكت الاسد عن جواب الغراب عن هذا

الخطاب . فلما عرف الغراب اقرار الاسد أتى أصحابه ؛ فقال لهم : قد كلمت الاسد فى أكله الجمل ؛ على أن نجتمع نحن والجمل عند الاسد ؛ فنذكر ما أصابه ؛ ونتوجع له اهتماماً منا بأمره ؛ وحرصاً على صلاحه ؛ وَيعرِضُ كل واحد منا نفسه عليه تجملا ليأكله ؛ فيردّ الآخران عليه ، ويسفهان رأيه ، ويبينان الضرر فى أكله . فاذا فعلنا ذلك ، سلمنا كلنا ورضى الأسد عنا . ففعلوا ذلك، وتقدموا الى الأسد ، فقال الغراب : قد احتجت أيها الملك إلى ما يقوّيك ؛ ونحن أحق أن نَهبَ أنفسنا لك : فانا بك نعيش ؛ فاذا هلكت فليس لأحد منا بقاء بعدك ، ولا لنا فى الحياة من خيرة ؛ فَلْيَأْكُلْنى الملك : فقد طبت بذلك نفسا . فأجابه الذئب وابن آوى أن اسكت ؛ فلا خير للملك فى أكلك ؛ وليس فيك شبع . قال ابن آوى لكن أنا أشبع الملك ، فليأكلنى : فقد رضيت بذلك ، وطبت عنه نفسا . فردّ عليه الذئب والغراب بقولهما : إنك لمنتن قذر . قال الذئب : إنى لست كذلك، فليأكلنى الملك، فقد سمحت بذلك، وطبت عنه نفسا؛ فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا: قد قالت الأطباء: من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب. فظن الجمل أنه اذا عرض نفسه على الأكل ، التمسوا له عذرا، كما التمس بعضهم لبعض الاعذار ، فيسلم ويرضى الاسد عنه بذلك، وينجو من المهالك . فقال : لكن أنا فىّ للملك شبع ورِى ، ولحمى طيب هنىّ ، وبطنى نظيف ؛ فليأكلنى الملك ، ويطعم أصحابه وخدمه: فقد رضيت بذلك ، وطابت نفسى عنه ، وسَمحتُ به . فقال الذئب والغراب وابن آوى : لقد صَدَق الجمل وكَرُمَ ؛ وقال ما عرف . ثم أنهم وثبوا عليه فمزقوه .

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنه إن كان أصحاب الاسد قد اجتمعوا على هلاكى، فانى لست أقدر أن أمتنع منهم، ولا أحترس؛ وان كان رأى الأسد لى على غير ما هم عليه من الرأى فىّ، فلا ينفعنى ذلك، ولا يغنى عنى شيئاً. وقد يقال: خير السلاطين من عدل فى الناس. ولو أن الأسد لم يكن فى نفسه لى الا الخير والرحمة، لغيرته كثرة الاقاويل: فانها اذا كثرت لم تلبث دون أن تذهب الرقة والرأفة. ألا ترى أن الماء ليس كالقول؛ وأن الحجر أشد من الانسان: فالماء اذا دام انحداره على الحجر لم يلبث حتى يثقبه ويؤثر فيه. وكذلك القول فى الانسان. قال دمنة: فماذا تريد أن تصنع الآن؟ قال شتربة: ما أرى الا الاجتهاد والمجاهدة بالقتال: فانه ليس للمصلى فى صلاته، ولا للمتصدق فى صدقته، ولا للورع فى ورعه من الاجر ما للمجاهد عن نفسه، اذا كانت مجاهدته على الحق. قال دمنة: لا ينبغى لاحد أن يخاطر بنفسه، وهو يستطيع غير ذلك؛ ولكن ذا الرأى جاعل القتال آخر الحيل؛ وبادئ قبل ذلك بما استطاع من رفق وتمحل. وقد قيل: لاتحقرنّ العدوّ الضعيف المهين؛ ولا سيما اذا كان ذا حيلة ويقدر على الأعوان؛ فكيف بالاسد على جراءته وشدته؟ فان من حقر عدوّه لضعفه أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى قال شتربة: وكيف كان ذلك؟

قال دمنة: زعموا أنّ طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوى[1] كان وطنه على ساحل البحر؛ ومعه زوجة له، فلما جاء أوان تفريخهما قالت الأنثى للذكر: لو التمسنا مكاناً حريزاً نفرخ فيه: فانى أخشى

(١) الطيطوى ضرب من القطا

من وكيل البحر اذا مدّ الماء أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرخى مكانك : فانه موافق لنا ؛ والماء والزهر منا قريب. قالت له : ياغافل ليحسن نظرك : فانى أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا . فقال لها : أفرخى مكانك : فانه لا يفعل ذلك . فقالت له : ما أشد تعنتك(١) أما تذكر وعيده وتهدّده اياك ؟ ألا تعرف نفسك وقدرك ؟ فأبى أن يطيعها . فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها ، قالت له : ان من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما اصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين . قال الذكر : وكيف كان ذلك ؟

قالت الأنثى : زعموا أن غديراً كان عنده عشب؛ وكان فيه بطتان؛ وكان فى الغدير سلحفاة ، بينها و بين البطتين مودّة وصداقة . فاتفق أن غيض ذلك الماء ؛ فجاء البطتان لوداع السلحفاة ؛ وقالتا : السلام عليك،فاننا ذاهبتان عن هذا المكان لاجل نقصان الماء عنه. فقالت: انما يبين نقصان الماء على مثلى : فانى كأنى السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء . فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما . فاذهبا بى معكما . قالتا لها : نعم . قالت : كيف السبيل الى حملى ؟ قالتا : نأخذ بطرفى عود ؛ وتتعلقين بوسطه ؛ ونطير بك فى الجوّ . واياك ، اذا سمعت الناس يتكلمون ، أن تنطق . ثمّ أخذتاها فطارتا بها فى الجوّ . فقال الناس : عجب : سلحفاة بين بطتين ، قد حملتاها . فلما سمعت ذلك قالت : فقأ الله أعينكم أيها الناس . فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الارض فماتت . قال الذكر : قد سمعت مقالتك! فلا تخافى وكيل البحر . فلما مدّ الماء ذهب بفراخهما . فقالت

(١) التعنت ادخال المشقة

الأنثى : قد عرفت فى بدء الامر أن هذا كائن . قال الذكر : سوف أنتقم منه . ثم مضى الى جماعة الطير فقال لهنّ : انكن أخواتى وثقاتى : فأعننى . قلن : ماذا تريد أن نفعل ؟ قال : تجتمعن وتذهبن معى الى سائر الطير ، فنشكو اليهنّ ما لقيت من وكيل البحر ؛ ونقول لهنّ : انكنّ طير مثلنا : فأعننا . فقالت له جماعة الطير : ان العنقاء هى سيدتنا وملكتنا : فاذهب بنا اليها حتى نصيح بها ؛ فتظهر لنا ؛ فنشكو اليها ما نالك من وكيل البحر ؛ ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوة ملكها . ثم انهنّ ذهبنَ اليها مع الطيطوى ، فاستغثنها ؛ وصحن بها ؛ فتراءت لهنّ فأخبرنها بقصتهنّ ؛ وسألنها أن تسير معهنّ الى محاربة وكيل البحر ، فأجابتهن الى ذلك . فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته فى جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له به . فردّ فراخ الطيطوى وصالحه فرجعت العنقاء عنه .

وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم أن القتال مع الاسد لا أراه لك رأيا . قال شتربة : فما أنا بمقاتل الاسد ؛ ولا ناصب له العداوة سرًّا ولا علانية ؛ ولا متغير له عما كنت عليه ؛ حتى يبدو لى منه ما أتخوف فأغالبه . فكره دمنة قوله ؛ وعلم أن الاسد ان لم يرَ من الثور العلامات التى كان ذكرها له اتهمه وأساء به الظنّ . فقال دمنة لشتربة : اذهب الى الاسد فستعرف حين ينظر اليك مايريد منك . قال شتربة : وكيف أعرف ذلك ؟ قال دمنة : سترى الاسد حين تدخل عليه مقعياً على ذنبه ، رافعاً صدره اليك ، مادًّا بصره نحوك ؛ قد صرّ(١) أذنيه ، وفغر فاه ، واستوى للوثبة . قال شتربة : ان رأيت هذه العلامات

(١) نصبهما للاستماع

من الاسد عرفت صدقك فى قولك . ثم ان دمنة لما فرغ من حمل الاسد على الثور، والثور على الاسد توجه الى كليلة . فلما التقيا ، قال كليلة : إلامَ انتهى عملك الذي كنت فيه ؟ قال دمنة : قريب من الفراغ على ما أحبّ وتحبّ . ثم ان كليلة ودمنة انطلقا جميعاً ليحضرا قتال الاسد والثور، وينظرا مايجرى بينهما ، ويعاينا مايؤول اليه أمرهما . وجاء شتربة ، فدخل على الاسد ؛ فرآه مُقعياً كما وصفه له دمنة ، فقال : ماصاحب السلطان إلا كصاحب الحية التى فى مبيته ومقيله ؛ فلا يدرى متى تهيج به . ثم ان الاسد نظر الى الثور فرأى الدلالات التى ذكرها له دمنة : فلم يشكّ أنه جاء لقتاله. فواثبه؛ ونشأ بينهما الحرب ، واشتدّ قتال الثور والاسد ، وطال وسالت بينهما الدماء . فلما رأى كليلة أن الاسد قد بلغ منه ما قد بلغ . قال لدمنة: أيها الفسل[1] ما أنكر جهلتك وأسوأ عاقبتك فى تدبيرك ! قال دمنة: وماذاك ؟ قال كليلة : جُرِحَ الاسد وهلك الثور . وان أخرق الخُرق من حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال ، وهو يجد الى غير ذلك سبيلا . وان العاقل يدبر الاشياء ويقيسها قبل مباشرتها : فما رجا أن يتمّ له منها أقدم عليه ؛ وما خاف أن يتعذّر عليه منها انحرف عنه، ولم يلتفت اليه . وانى لأخاف عليك عاقبة بغيك هذا : فانك قد أحسنت القول ولم تحسن العمل . أين معاهدتك إياى أنك لا تضرّ بالاسد فى تدبيرك ؟ وقد قيل : لا خير فى القول إلا مع العمل ، ولا فى الفقه إلا مع الورع ، ولا فى الصدقة إلا مع النية ، ولا فى المال إلا مع الجود ، ولا فى الصدق إلا مع الوفاء ، ولا فى الحياة إلا مع

(١) الفسل الرذل الذى لامروءة له

الصحة ، ولا فى الأمن إلا مع السرور .

واعلم أن الادب يذهب عن العقل الطيش ، ويزيد الاحمق طيشاً ؛ كما أن النهار يزيد كل ذى بصر نظرا ، ويزيد الخفاش سوء النظر .

وقد أذكرنى أمرك شيئاً سمعته : فانه يقال : ان السلطان اذا كان صالحاً ، ووزراؤه وزراء سوء ، منعوا خيره ، فلايقدر أحد أن يدنو منه . ومثله فى ذلك مثل الماء الطيّب الذى فيه التماسيح : لا يقدر أحد أن يتناوله ، وان كان الى الماء محتاجاً . وأنت يادمنة أردت ألا يدنو من الاسد احد سواك . وهذا أمر لا يصحّ ولا يتمّ أبداً . وذلك للمثل المضروب : ان البحر بأمواجه ، والسلطان بأصحابه . ومن الحمق الحرص على التماس الاخوان بغير الوفاء لهم ، وطلب الآخرة بالرياء ، ونفع النفس بضرّ الغير . وما عظتى وتأديبى اياك إلا كما قال الرجل للطائر : لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم ، ولا تعالج تأديب من لا يتأدب .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أن جماعة من القردة كانوا سكاناً فى جبل ؛ فالتمسوا فى ليلة باردة ذات رياح وأمطار ناراً ، فلم يجدوا ؛ فرأوا يراعة[1] تطير كأنها شرارة نار ، فظنوها ناراً ؛ وجمعوا حطباً كثيراً فألقوه عليها ؛ وجعلوا ينفخون طمعاً أن يوقدوا ناراً يصطلون[2] بها من البرد . وكان قريباً منهم طائر على شجرة ، ينظرون اليه وينظر اليهم ؛ وقد رأى ماصنعوا ؛ فجعل يناديهم ويقول : لا تتعبوا فان الذى رأيتموه ليس بنار . فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عما هم فيه ؛ فمرّ به رجل فعرف ما عزم عليه . فقال له : لا تلتمس تقويم ما لا

(١) اليراع ذباب يطير بالليل كأنه نار (٢) يستدفئون

يستقيم : فان الحجر المانع(١) الذى لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف ، والعود الذى لا ينحنى لا يعمل منه القوس : فلا تتعب . فأبى الطائر أن يطيعه ؛ وتقدم الى القردة ليعرّفهم أن اليراعة ليست بنار . فتناوله بعض القردة فضرب به الارض فمات . فهذا مثلى معك فى ذلك . ثم قد غلب عليك الخبُّ(٢) والفجور ؛ وهما خلتا سوء ؛ والخبّ شرهما عاقبة . ولهذا مثل . قال دمنة : وما ذلك المثل ؟

قال كليلة : زعموا أن خَبًّا(٣) ومغفلا اشتركا فى تجارة وسافرا ؛ فبينما هما فى الطريق ، اذ تخلّف المغفل لبعض حاجته ؛ فوجد كيساً فيه ألف دينار ، فاخذه ؛ فأحسّ به الخبّ ؛ فرجعا الى بلدهما ؛ حتى اذا دنوا من المدينة ، قعدا لاقتسام المال . فقال المغفّل : خذ نصفه وأعطنى نصفه ؛ وكان الخبّ قد قرّر فى نفسه أن يذهب بالالف جميعه . فقال له : لا نقتسم : فان الشركة والمفاوضة أقرب الى الصفاء والمخالطة ؛ ولكنّ آخذ نفقة ، وتأخذ مثلها ؛ وندفن الباقى فى أصل هذه الشجرة : فهو مكانٌ حريز . فاذا احتجنا جئنا أنا وأنت فنأخذ حاجتنا منه ؛ ولا يعلم بموضعنا أحد . فأخذا منه يسيراً ؛ ودفنا الباقى فى أصل دَوْحَة(٤) ، ودخلا البلد . ثم ان الخبّ خالف(٥) المغفّل الى الدنانير فأخذها ؛ وسوّى الارض كما كانت . وجاء المغفل بعد ذلك بأشهر فقال للخبّ : قد احتجتُ الى نفقة فانطلق بنا نأخذ حاجتنا ؛ فقام الخبّ معه وذهبا الى المكان فحفرا : فلم يجدا شيئاً . فأقبل الخبّ على وجهه يلطمه يقول : لا تغترّ بصحبة صاحب : خالفتنى الى الدنانير

(١) الصلد (٢) الخداع (٣) الخب المفسد الخدّاع اللئيم (٤) شجرة عظيمة
(٥) قصد الدنانير مخالفاً له

فأخذتها . فجعل المغفّل يحلف ويلعن آخذها ولا يزداد الخبّ الا شدّة فى اللطم . وقال : ما أخذها غيرك . وهل شعُرَ بها أحد سواك ثم طال ذلك بينهما ، فترافعا الى القاضى ؛ فاقتص القاضى قصتهما ؛ فادّعى الخبّ أن المغفَّل أخذها ؛ وجحد المغفل . فقال للخبّ : ألك على دعواك بينة ؟ قال : نعم الشجرة التى كانت الدنانير عندها تشهد لى أن المغفّل أخذها . وكان الخبّ قد أمر أباه أن يذهب فيتوارَى فى الشجرة بحيث اذا سئلت اجاب. فذهب أبو الخبّ فدخل جوف الشجرة . ثم ان القاضى لما سمع ذلك من الخبّ أكْبَرَه ، وانطلق هو وأصحابه والخبّ والمغفّل معه ؛ حتى وافى الشجرة ؛ فسألها عن الخبر . فقال الشيخ من جوفها : نعم المغفل أخذها . فلما سمع القاضى ذلك اشتدّ تعجّبه . فدعا بحُطَب وأمر أن تُحْرَق الشجرة . فأضرمت حولها النيران : فاستغاث أبو الخبّ عند ذلك . فأُخْرِجَ وقد أشْرَفَ على الهلاك . فسأله القاضى عن القِصّة فأخبره بالخَبَر ؛ فأوقع بالخبّ ضرباً ، وبأبيه صفعاً (١) ، وأركبه مشهوراً (٢) ؛ وغرّم الخبّ الدنانير ؛ فأخذها وأعطاها المغفَّل .

وانما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الخبّ والخديعة ربما كان صاحبهما هو المغبون . وانك يا دمنة جامع للخبّ والخديعة والفجور . وانى أخشى عليك ثمرة عملك ، مع أنك لستَ بناجٍ من العقوبة : لانك ذو لونَيْن ولِسَانَيْن . وانما عذوبة ماء الانهار ما لم تبْلُغْ الى البِحار . وصلاح أهل البيت ما لم يكن فيهم المفسد . وانه لاشئ أشبه بك من الحية ذات اللسانين التى فيها السمّ : فانه قد يجرى من لسانك كسمّها .

(١) الصفع ضرب القفا (٢) شهره كشهره اظهره فى شنعة

وانى لم أزل لذلك السمّ من لسانك خائفاً ، ولما يحلّ بك متوقعاً ؛ والمفسد بين الاخوان والاصحاب كالحيّة يربيها الرجل ويطعمها ويمسحها ويكرمها ، ثم لايكون له منها غير اللدغ . وقد يقال : الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل اليهما ؛ وإياك ومفارقتهما ؛ واصحب الصاحب اذا كان عاقلا كريما أو عاقلا غير كريم : فالعاقل الكريم كامل ، والعاقل غير الكريم اصحبه ، وان كان غير محمود الخليقة ؛ واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله ؛ والكريم غير العاقل الزمه ، ولا تدع مواصلته ، وان كنت لاتحمد عقله ؛ وانتفع بكرمه ، وانفعه بعقلك ؛ والفرار كلّ الفرار من اللئيم الاحمق . وانى بالفرار منك لجدير ! وكيف يرجو اخوانك عندك كرماً وودًّا وقد صنعت بملكك الذى أكرمك وشرّفك ما صنعت ؟ وان مثلك مثل التاجر الذى قال : ان أرضاً تا كل جرذانها(١) مائة منّ(٢) حديداً ، ليس بمستنكر على بزاتها أن تخطف الافيال . قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال كليلة : زعموا أنه كان بأرض كذا تاجر ؛ فأراد الخروج الى بعض الوجوه لابتغاء الرزق ؛ وكان عنده مائة منّ حديداً ؛ فأودعها رجلا من اخوانه ؛ وذهب فى وجهه . ثم قدم بعد ذلك بمدة ؛ فجاء والتمس الحديد ، فقال له : انه قد أكلته الجرذان . فقال قد سمعت أنه لا شىء أقطع من أنيابها للحديد . ففرح الرجل بتصديقه على ما قال وادّعى . ثم ان التاجر خرج ، فلقى ابناً للرجل ؛ فأخذه وذهب به الى منزله ؛ ثم رجع اليه الرجل من الغد فقال له : هل عندك علم بابنى ؟ فقال له التاجر : انى لما خرجت من عندك بالامس ، رأيت

(١) من نوع الفيران مفرده جرذ (٢) المنّ رطلان

بازياً قد اختطف صبيا ، ولعله ابنك . فلطم الرجل على رأسه وقال: ياقوم هل سمعتم أو رأيتم أن البزاة تخطف الصبيان ؟ فقال : نعم. وان أرضاً تأكل جرذانها مائة من حديداً ليس بعجب أن تختطف بزاتها الفيلة . قال له الرجل : أنا أكلت حديدك وهـذا ثمنه ، فاردد على ابني . وانما ضربت لك هـذا المثل لتعلم أنك اذا غدرتَ بصاحبك فلا شكّ أنك بمن سواه أغدر ؛ وأنه اذا صاحَبَ أحد صاحباً وغدر بمن سواه فقد علم صاحبه أنه ليس عنـده للمودة موضع : فلا شيء أضيع من مودّة تمنح من لاوفاء له ، وحِباء يصطنع عند من لا شكر له ، وأدب يحمَل الى من لايتأدّب به ولا يسمعه ، وسرّ يستودع من لا يحفظه : فان صحبة الاخيار تورث الخير ، وصحبـة الاشرار تورث الشر : كالريح اذا مرّت بالطيب حملت طيباً ، واذا مرت بالنتن حملت نتناً ، وقد طال وثقل كلامى عليك . فانتهى كليلة من كلامه الى هذا المكان وقد فرغ الاسـد من الثور . ثم فكّر فى قتله بعد أن قتله وذهب عنه الغضب . وقال : لقد فجعنى شتربة بنفسه ؛ وقد كان ذا عقل ورأى وخلق كريم؛ ولا أدرى لعله كان بريئاً أو مكذوباً عليه؛ فحزن وندم على ما كان منه ؛ وتبين ذلك فى وجهه ؛ وبصر به دمنة؛ فترك محاورة كليلة ؛ وتقدّم الى الاسد فقال له : ليهنئك الظفر اذ أهلك الله أعداءك . فماذا يحزنك أيها الملك ؟ قال : أنا حزين على عقـل شتربة ورأيه وأدبه ! قال له دمنة : لا ترحمه أيها الملك : فان العاقل لايرحم من يخافه . وان الرجل الحازم ربما أبغض الرجل وكرهه ، ثم قرّبه وأدناه: لما يعلم عنده من الغنى والكفاءة، كفعل الرجل المتكاره على الدواء الشنيع رجاء منفعته . وربما أحبّ الرجلُ، وعزّ عليه ،

فأقصاه وأهلكه مخافة ضرره؛ كالذى تلدغه الحيّة فى أصبعه فيقطعها، ويتبرّأ منها مخافةَ أن يسرى سمّها الى بدنه . فرضى الاسد بقول دمنة . ثم علم بعد ذلك بكذبه وغدره وفجوره فقتله شرّ قتلة

(انقضى باب الاسد والثور)

باب الفحص عن أمر دمنة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد حدثتنى عن الواشى الماهر المحتال، كيف يفسد بالنميمة المودّةَ الثابتةَ بين المتحابين . فحدّثني حينئذ بما كان من حال دمنة وما آل أمره اليه بعد قتل شتربة ، وما كان من معاذيره عند الاسد وأصحابه حين راجع الاسد رأيه فى الثور ، وتحقّق النميمة من دمنة ، وما كانت حجّته التى احتجّ بها . قال الفيلسوف : أنا وجدت فى حديث دمنة أن الاسد حين قتل شتربة ندم على قتله ، وذكر قديم صحبته وجسيم خدمته ؛ وأنه كان أكرم أصحابه عليه ، وأخصهم منزلة لديه، وأقربهم وأدناهم اليه؛ وكان يواصل له المشورة دون خواصّه . وكان من أخصّ أصحابه عنده بعد الثور النّمِرُ . فاتّفق أنه أمسَى النمر ذات ليلة عند الاسد ؛ فخرج من عنده جوف الليل يريد منزله ، فاجتاز على منزل كليلة ودمنة . فلما انتهى الى الباب ، سمع كليلة يعاتب دمنة على ما كان منه ، ويلومه على النميمة واستعمالها ؛ خصوصاً مع الكذب والبهتان فى حقّ الخاصّة . وعرف النمر عصيان دمنة وترك القبول له . فوقف يستمع ما يجرى بينهما ؛ فكان فيما قال كليلة لدمنة : لقد ارتكبت مركباً

صعباً ، ودخلت مدخلا ضيّقاً ، وجنيت على نفسك جناية موبقة، وعاقبتها وخيمة ؛ وسوف يكون مَصْرعك شديداً ، اذا انكشف للاسد أمرك ، واطّلع عليه ، وعرف غدرك ومحالك(١) ، وبقيتَ لا ناصر لك ؛ فيجتمع عليك الهوان والقتل ، مخافة شرّك ، وحذراً من غوائلك ؛ فلست بمتّخذك بعد اليوم خليلا، ولا مفش اليك سرًّا: لان العلماء قد قالوا : تباعد عمّن لا رغبة فيه . وأنا جدير بمباعدتك، والتماس الخلاص لى ممّا وقع فى نفس الاسد من هذا الامر .

فلما سمع النمر هذا من كلامهما قفل راجعاً، فدخل على أمّ الاسد؛ فأخذ عليها العهود والمواثيق أنها لا تفشي ما يسرّ اليها ، فعاهدته على ذلك ؛ فاخبرها بما سمع من كلام كليلة ودمنة. فلما أصبحت دخلت على الاسد ، فوجدته كئيباً حزيناً مهموماً : لما ورد عليه من قتل شتربة . فقالت له : ما هذا الهمّ الذى قد أخذ منك ، وغلب عليك ؟ قال : يحزننى قتل شتربة ، اذا تذكّرت صحبته ومواظبته على خدمتى، وما كنت أسمع من نصيحته ، وأسكن اليه من مشاورته، وأقبل من مناصحته . قالت أمّ الاسد : ان أشدّ ما شهد امرؤ على نفسه ؛ وهذا خطأ عظيم ؛ كيف أقدمْتَ على قتل الثور بلا علم ولا يقين ؟ ولولا ما قالت العلماء فى اذاعة الاسرار ، وما فيها من الاثم والشّنار(٢)، لذكرت لك وأخبرتك بما علمتُ . قال الاسد : ان أقوال العلماء لها وجوه كثيرة ، ومعان مختلفة . وانى لأعلم صواب ما تقولين : وان كان عندك رأى فلا تطويه عنى ؛ وان كان قد أسرّ اليك أحد سرًّا فأخبريني به ، وأطلعينى عليه ، وعلى جملة الامر . فأخبرته بجميع

(١) كيدك واحتيالك (٢) الشنار أقبح العيب والعار.

ما ألقاه اليها النمر من غير أن تخبره باسمه . وقالت : انى لم أجهل قول العلماء فى تعظيم العقوبة وتشديدها ، وما يدخل على الرجل من العار فى اذاعة الاسرار ؛ ولكنى أحببت أن أخبرك بما فيه المصلحة لك ؛ وان وصل خطؤه وضرره الى العامة : فاصرارهم على خيانة الملك مما لا يدفع الشر عنهم ، وبه يحتج السفهاء ، ويستحسنون ما يكون من أعمالهم القبيحة . وأشد معارّهم(١) إقدامهم على ذي الحزم . فلما قضت أم الاسد هذا الكلام ، استدعى أصحابه وجنده فأدخلوا عليه . ثم أمر أن يؤتى بدمنة . فلما وقف بين يدى الاسد ، ورأى ماهو عليه من الحزن والكآبة ، التفت الى بعض الحاضرين فقال : ماالذى حدث؟ وما الذى أحزن الملك ؟ فالتفتت أم الاسد اليه وقالت : قد أحزن الملك بقاؤك ولو طرفة عين ؛ ولن يدعك بعد اليوم حيًا ! قال دمنة : ما ترك الاول للآخر شيئاً : لأنه يقال : أشد الناس فى توقى الشر ، يصيبه الشر قبل المستسلم له . فلا يكونن الملك وخاصته وجنوده المثل السوء ؛ وقد علمت أنه قد قيل: من صحب الاشرار ، وهو يعلم حالهم، كان أذاه من نفسه : ولذلك انقطعت النساك بأنفسها عن الخلق ، واختارت الوحدة على المخالطة ، وحب العمل لله على حب الدنيا وأهلها . ومن يجزى بالخير خيراً وبالاحسان احساناً إلا الله ؟ ومن طلب الجزاء على الخير من الناس ، كان حقيقاً أن يحظى بالحرمان ؛ اذ يخطىء الصواب فى خلوص العمل لغير الله تعالى وطلب الجزاء من الناس. وان أحق مارغبت فيه رعية الملك هو محاسن الاخلاق ومواقع الصواب وجميل السير ؛ وقد قالت العلماء : من صدق ما ينبغى أن

(١) المعار جمع معرة وهى الاثم والخيانة والاذى .

يكذب ، وكذب ما ينبغى أن يصدق ، خرج من مصاف العقلاء ، وكان جديراً بالازدراء . فينبغى ألا يعجّل الملك فى أمرى بشبهة ؛ ولست أقول هذا كراهة للموت : فانه وان كان كريهاً ، لامنجى منه وكل حى هالك . ولو كانت لى مائة نفس وأعلم أن هوى الملك فى اتلافهنّ ، لطبت له بذلك نفسا . فقال بعض الجند : لم ينطق بهذا لحبه الملك ، ولكن لخلاص نفسه ، والتماس العذر لها. فقال له دمنة: ويلك ! وهل علىّ فى التماس العذر لنفسى عيب ؟ وهل أحد أقرب الى الانسان من نفسه ؟ واذا لم يلتمس لها العذر ، فلمن يلتمسه ؟ لقد ظهر منك ما لم تكن تملك كتمانه من الحسد والبغضاء ؛ ولقد عرف من سمع منك ذلك أنك لا تحب لاحد خيراً ؛ وأنك عدوّ نفسك ، فمن سواها بالأولى . فمثلك لا يصلح أن يكون مع البهائم ، فضلا عن أن يكون مع الملك ، وأن يكون ببابه . فلما أجابه دمنة بذلك ، خرج مكتئباً حزيناً مستحياً . فقالت أم الاسد لدمنة : لقد عجبت منك ، أيها المحتال ، فى قلة حيائك ، وكثرة وقاحتك ، وسرعةِ جوابك لمن كلمك . قال دمنة : لانك تنظرين الىّ بعين واحدة ، وتسمعين منى بأذن واحدة ، مع أن شقاوة جدى قد زوت[1] عنى كل شىء ؛ حتى لقد سعوا الى الملك بالنميمة علىّ ، ولقد صار من بباب الملك لاستخفافهم به ، وطول كرامته اياهم ، وما هم فيه من العيش والنعمة ، لا يدرون فى أى وقت ينبغى لهم الكلام ؟ ولا متى يجب عليهم السكوت؟ قالت: ألا تنظرون الى هذا الشقى ، مع عظم ذنبه ، كيف يجعل نفسه بريئاً كمن لا ذنب له ؟ قال دمنة : ان الذين يعملون غير أعمالهم ليسوا على

(١) نحت وابعدت

شيء ؛ كالذى يضع الرمادموضعاً ينبغى أن يضعفيه الرمل،ويستعمل فيه السرجين[١]؛ والرجل الذى يلبس لباس المرأة ، والمرأة التى تلبس لباس الرجل ، والضيف الذى يقول : أنا رب البيت ، والذى ينطق بين الجماعة بما لايسأل عنه . وانما الشقىّ من لايعرف الأمور ولا أحوال الناس ، ولايقدر على دفع الشرّ عن نفسه ، ولايستطيع ذلك. قالت أم الاسد: أتظن أيها الغادر المحتال بقولك هذا أنك تخدع الملك، ولا يسجنك ؟ قال دمنة : الغادر الذى لايأمن عدوه مكره ، واذا استمكن من عدوه قتله على غير ذنب . قالت أم الاسد : أيها الغادر الكذوب، أتظن أنك ناج من عاقبة كذبك ؟ وأن محالك هذا ينفعك مع عظم جرمك ؟ قال دمنة : الكذوب الذى يقول مالم يكن ، ويأتى بما لم يقل ولم يفعل ، وكلامي واضح مبين. قالت أم الاسد : العلماء منكم هم الذين يوضحون أمره بفصل الخطاب. ثم نهضت فخرجت. فدفع الاسد دمنة الى القاضى ؛ فأمر القاضى بحبسه ؛ فألقى فى عنقه حبل ، وانطلق به الى السجن .

فلما انتصف الليل اخبر كليلة أن دمنة فى الحبس. فأتاه مستخفياً؛ فلما رآه وما هو عليه من ضيق القيود ، وحرج المكان ، بكى ، وقال له : ما وصلت الى ما وصلت اليه إلا لاستعمالك الخديعة والمكر ، واضرابك عن العظة ؛ ولكن لم يكن لى بد فيما مضى من انذارك والنصيحة لك والمسارعة اليك فى خلوص الرغبة فيك : فانه لكل مقام مقال ؛ ولكل موضع مجال . ولو كنت قصرت فى عظتك ، حين كنت فى عافية ، لكنت اليوم شريكك فى ذنبك ؛ غير أن العجب

(١) السرجين بكسر أوله الزبل

دخل منك مدخلا قهر رأيك ، وغلب على عقلك ؛ وكنت أضرب لك الامثال كثيراً ، وأذكرك قول العلماء . وقد قالت العلماء : انّ المحتال يموت قبل أجله . قال دمنة : قد عرفت صدق مقالتك . وقد قالت العلماء : لا تجزع من العذاب ، اذا وقعت منك على خطيئة ؛ ولأن تعذّب فى الدنيا بجرمك ، خير من أن تعذّب فى الآخرة بجهنم مع الاثم . قال كليلة : قد فهمت كلامك ؛ ولكن ذنبك عظيم ؛ وعقاب الاسد شديد أليم . وكان بقربهما فى السِجن فهد[1] معتقَل[2] يسمع كلامهما ، ولا يَرَيانه ؛ فعرف معاتبة كليلة لدمنة على سوء فعله ، وما كان منه ؛ وأنّ دمنة مقرّ بسوء عمله ، وعظيم ذنبه ؛ فحفظ المحاورة بينهما ، وكتمها ليشهد بها ان سئل عنها . ثم انّ كليلة انصرف الى منزله ، ودخلت أمّ الاسد حين أصبحت على الاسد ؛ وقالت له : يا سيّدَ الوحوش ، حوشيت[3] أن تنسى ما قلت بالامس ؛ وأنّك أمرت به لوقته ؛ وأرضيت به ربّ العباد . وقد قالت العلماء : لا ينبغى للانسان أن يتوانى فى الجدّ للتقوى ؛ بل لا ينبغى أن يدافع عن ذنب الاثيم . فلما سمع الاسد كلام أمّه ، أمر أن يحضر النمر ، وهو صاحب القضاء . فلمّا حضر قال له وللجوّاس[4] العادل : اجلسا فى موضع الحكم ، وناديا فى الجند صغيرهم وكبيرهم أن يحضروا وينظروا فى حال دمنة ، ويبحثوا عن شأنه ، ويفحصوا عن ذنبه ، ويثبتوا قوله وعذره فى كتب القضاء ؛ وارفعا الىّ ذلك يوما فيوما . فلما سمع ذلك النمر والجوّاس العادلُ وكان هذا الجوّاس عمّ الاسد ، قالا : سمعا وطاعة لما أمر الملك . وخرجا من عنده ؛ فعملا بمقتضى

(١) نوع من السباع (٢) محبوس (٣) نزهت (٤) الاسد

ما أمرها به ؛ حتى اذا مضى من اليوم الذى جلسوا فيه ثلاث ساعات ، أمر القاضى أن يؤتى بدمنة ؛ فأتى به ، فأوقف بين يديه ، والجماعة حضور . فلمّا استقرّ به المكان نادى سيّد الجمع بأعلى صوته : أيها الجمع ، انكم قد علمتم أن سيّد السباع لم يزل منذ قتل شتربة خاثر(١) النفس ، كثير الهمّ والحزن ، يرى أنه قد قتل شتربه بغير ذنب ؛ وأنه أخذه بكذب دمنة ونميمته . وهذا القاضى قد أمر أن يجلس مجلس القضاء ، ويبحث عن شأن دمنة . فمن علم منكم شيئا فى أمر دمنة من خير أو شرّ فليقل ذلك، وليتكلم به على رءوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء فى أمره بحسب ذلك ؛ فاذا استوجب القتل فالتثبت فى أمره أولى ، والعَجَلَة من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذلّ . فعندها قال القاضى : أيها الجمع اسمعوا قول سيدكم، ولا تكتموا ماعرفتم من أمره؛ واحذروا فى الستر عليه ثلاث خصال: إحداهنّ ، وهى أفضلهن ، ألا تزدروا فعله ، ولا تعدوه يسيرا : فمن أعظم الخطايا قتل البرىء الذى لاذنب له بالكذب والنميمة ؛ ومن علم من أمر هذا الكذاب الذى اتهم البرىء بكذبه ونميمته شيئا ، فستر عليه ، فهو شريكه فى الاثم والعقوبة . والثانية اذا اعترف المذنب بذنبه ، كان أسلم له، وأحرى بالملك وجنده أن يعفوا عنه ويصفحوا. والثالثة ترك مراعاة أهل الذمّ والفُجور ، وقَطْع أسباب مواصلاتهم ومودتهم عن الخاصة والعامة ؛ فمن علم من أمر هذا المحتال شيئا ، فليتكلم به على رءوس الأشهاد ممن حضر، ليكون ذلك حجة عليه ؛ وقد قيل : انه من كتم شهادة ميت، أُلْجِمَ بلجام من نار يوم القيامة ؛

(١) نفسها

فليقل كل واحد منكم ماعلم . فلما سمع ذلك الجمع كلامه ، أمسكوا عن القول . فقال دمنة : مايسكتكم ؟ تكلموا بما علمتم ؛ واعلموا أن لكل كلمة جوابا . وقد قالت العلماء : من يشهد بما لم ير ، ويقول مالا يعلم ، أصابه ماأصاب الطبيب الذى قال لما لا يعلمه : انى أعلمه.

قالت الجماعة : وكيف كان ذلك ؟

قال دمنة : زعموا أنه كان فى بعض المدن طبيب له رفق وعلم وكان ذا فطنة فيما يجرى على يديه من المعالجات ؛ فكبر ذلك الطبيب وضعف بصره . وكان لملك تلك المدينة ابنة قد زوجها لابن أخ له ؛ فعرض لها مايعرض للحوامل من الأوجاع . فجىء بهذا الطبيب ؛ فلما حضر ، سأل الجارية عن وجعها وما تجد ، فأخبرته ، فعرف داءها ودواءها ؛ وقال: لو كنت أبصر ، لجمعت الاخلاط على معرفتى بأجناسها ؛ ولا أثق فى ذلك بأحد غيرى . وكان فى المدينة رجل سفيه، فبلغه الخبر ، فأتاهم وادعى علم الطب ، وأعلمهم أنه خبير بمعرفة أخلاط الأدوية والعقاقير(١)، عارف بطبائع الأدوية المركبة والمفردة ؛ فأمره الملك أن يدخل خزانة الأدوية ، فيأخذ من أخلاط الدواء حاجته ؛ فلما دخل السفيه الخزانة ، وعرضت عليه الأدوية ، ولا يدرى ماهى ، ولا له بها معرفة ، أخذ فى جملة ما أخذ منها صرة فيها سم قاتل لوقته ، وخلطه فى الأدوية، ولا علم له به ، ولا معرفة عنده بجنسه. فلما تمت أخلاط الأدوية، سقى الجارية منه ، فماتت لوقتها. فلما عرف الملك ذلك ، دعا بالسفيه ، فسقاه من ذلك الدواء ، فمات من ساعته . وانما ضربت لكم هذا المثل لتعلموا ما يدخل على القائل

(١) مفرده عقار



والعامل من الزلة بالشبهة فى الخروج عن الحدّ ؛ فمن خرج منكم عن حدّه أصابه ما أصاب ذلك الجاهل ، ونفسه الملومة . وقد قالت العلماء : ربما جزِىَ المتكلم بقوله . والكلام بين أيديكم : فانظروا لأنفسكم .

فتكلم سيد الخنازير ، لإدلاله وتيهه بمنزلته عند الأسد ؛ فقال: يأهل الشرف من العلماء ، اسمعوا مقالتى، وعوا بأحلامكم كلامى، فالعلماء قالوا فى شأن الصالحين : انهم يُعرفون بسيماهم ؛ وأنتم ، معاشرَ ذوى الاقتدار ، بحسن صنع الله لكم ، وتمام نعمته لديكم، تعرفون الصالحين بسيماهم وصُوَرهم ؛ وتخبُرون الشىءالكبير بالشىء الصغير ؛ وهاهنا أشياء كثيرة تدلّ على هذا الشقىّ دمنة ، وتُخبِّر عن شرّه ؛ فاطلبوها على ظاهر جسمه: لتستيقنوا وتسكنوا الى ذلك. قال القاضى لسيد الخنازير: قد علمت ، وعلم الجماعة الحاضرون ، أنك عارف بما فى الصور من علامات السوء ؛ ففسر لنا ما تقول ، وأطلعنا على ما ترى فى صورة هذا الشقىّ . فأخذ سيد الخنازير يذمّ دمنة ، وقال : انّ العلماء قد كتبوا وأخبروا : أنه من كانت عينه اليسرى أصغر من عينه اليمنى وهى لا تزال تختلج ، وكان أنفه مائلا الى جنبه الأيمن ، فهو شقىّ خبيث . قال له دمنة : شأنك عجب ، أيها القذر ، ذو العلامات الفاضحة القبيحة، ثم العجب من جراءتك على طعام الملك ، وقيامك بين يديه ، مع ما بجسمك من القذر والقبح ، ومع ما تعرفه أنت ويعرفه غيرك من عيوب نفسك؛ أفتتكلم فى النقى الجسم الذى لاعيب فيه ؟ ولست أنا وحدى أطلع على عيبك ؛ لكن جميع من حضر قد عرف ذلك . وقد كان يحجزنى عن اظهاره ما بينى و بينك من الصداقة.

فأما اذ قد كذبت عليّ وبهتني(١) في وجهي، وقمت بعداوتي، فقلت ماقلت فيّ بغير علم على رءوس الحاضرين، فاني أقتصر على اظهار ما أعرف من عيوبك، وتعرف الجماعة؛ وحقّ على من عرفك حق معرفتك أن يمنع الملك من استعماله اياك على طعامه: فلو كلفت أن تعمل الزراعة لكنت جديرا بالخذلان فيها. فالاحرى بك ألا تدنو الى عمل من الأعمال، وألا تكون دباغا ولا حجاما لعاميّ فضلا عن خاصّ خدمة الملك. قال سيد الخنازير: أتقول لي هذه المقالة. وتلقاني بهذا الملتقى؟ قال دمنة: نعم، وحقا قلت فيك، واياك أعني، أيها الأعرج المكسور الأفدع(٢) الرجل، المنفوخ البطن، الافلح(٣) الشفتين، السيء المنظر والمخبر. فلما قال ذلك دمنة، تغير وجه سيد الخنازير واستعبر(٤) واستحى، وتلجلج لسانه، واستكان(٥) وفتر نشاطه. فقال دمنة، حين رأى انكساره و بكاءه: انما ينبغي أن يطول بكاؤك، اذا اطلع الملك على قذرك وعيوبك فعزلك عن طعامه، وحال بينك و بين خدمته، وأبعدك عن حضرته. ثم ان شغبرا كان الأسد قد جرّبه فوجد فيه أمانة وصدقا، فرتبه في خدمته، وأمره أن يحفظ مايجري بينهم، ويطلعه على ذلك. فقام الشغبر فدخل على الأسد فحدثه بالحديث كله على جليته. فأمر الأسد بعزل سيد الخنازير عن عمله؛ وأمر أن لايدخل عليه، ولا يرى وجهه؛ وأمر بدمنة أن يسجن، وقد مضى من النهار أكثره؛ وجميع ما جرى وقالوا وقال قد كتب وختم عليه بخاتم النمر؛ ورجع كلّ واحد منهم الى منزله.

---

(١) قلتَ عليّ ما لم أفعل (٢) الاعوج (٣) المشقوق (٤) جرت عبرته وحزن (٥) ذل

ثم ان شغبرا (ابن آوى) يقال له روزبة ، بينه و بين كليلة إخاء ومودة ؛ وكان عند الأسـد وجيها ، وعليه كريما ؛ واتفق انّ كليلة اخـذه الوجد إشفاقا وحذرا على نفسه واخيـه ، فمرض ومات ؛ فانطلق هـذا الشغبر إلى دمنة ، فأخبره بموت كليلة ؛ فبكى وحزن ؛ وقال : ما اصنع بالدنيا بعـد مفارقة الاخ الصفىّ ! ولكن أحمد الله تعالى حيث لم يمت كليلة حتى أبقى لى من ذوى قرابتى أخا مثلك : فانى قد وثقت بنعمة الله تعالى و إحسانه إلىّ فيما رأيت من اهتمامك بي ومراعاتك لى ، وقد علمت أنك رجائى وركنى فيما أنا فيه ؛ فأريد من إنعامك أن تنطلق إلى مكان كذا ، فتنظر إلى ما جمعته أنا وأخى بحيلتنا وسعينا ومشيئة الله تعالى ، فتأتينى به ؛ ففعل الشغبر ما أمره به دمنة . فلما وضع المال بين يديه أعطاه شطره ؛ وقال له : إنك على الدخول والخروج على الأسد أقدر من غيرك ؛ فتفرّغ لشأنى، واصرف اهتمامك الىّ ؛ واسمع ما أذكر به عند الأسد ، اذا رفع اليه ما يجرى بينى و بين الخصوم ؛ وما يبدو من أمّ الأسد فى حقى ، وما ترى من متابعة الأسد لها ، ومخالفته اياها فى أمرى ؛ واحفظ ذلك كلّه . فأخذ الشغبر ما أعطاه دمنة وانصرف عنه على هذا العهد . فانطلق الى منزله فوضع المال فيه . ثم ان الأسد بكر من الغد فجلس ، حتى اذا مضى من النهار ساعتان ، استأذن عليه أصحابه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه ، ووضعوا الكتاب بين يديه . فلما عرف قولهم وقول دمنة دعا أمـه فقرأ عليها ذلك . فلما سمعت ما فى الكتاب نادت بأعلى صوتها : ان أنا أغلظت فى القول فلا تلمنى : فانك لست تعرف ضرّك من نفعك . أليس هذا مما كنت أنهاك عن سماعه : لأنه كلام هذا المجرم

المسيء الينا . الغادر بذمتنا ؟ ثم انها خرجت مغضبة ، وذلك بعين الشعبر الذي آخاه دمنة و بسمعه . فخرج فى أثرها مسرعا ، حتى أتى دمنة ، فحدثه بالحديث . فبينما هو عنده اذ جاء رسول ، فانطلق بدمنة الى الجمع عند القاضي. فلما مثل بين يدى القاضى استفتح سيدالمجلس فقال : يادمنة ، قد أنبأنى بخبرك الأمين الصادق ؛ وليس ينبغى لنا أن نفحص عن شأنك أكثر من هذا : لأن العلماء قالوا : ان الله تعالى جعل الدنيا سببا ومصداقا للآخرة : لأنها دار الرسل والانبياء الدالين على الخير ، الهادين الى الجنة ، الداعين الى معرفة الله تعالى . وقد ثبت شأنك عندنا ؛ وأخبرنا عنك من وثقنا بقوله ؛ الا أن سيدنا أمرنا بالعود فى أمرك ، والفحص عن شأنك ، وان كان عندنا ظاهرا بينًا . قال دمنة : أراك أيها القاضى لم تتعود العدل فى القضاء ؛ وليس فى عدل الملوك دفع المظلومين ومن لاذنب له الى قاض غير عادل ؛ بل المخاصمة عنهم والذود . فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم ؟ وتعجل ذلك موافقة لهواك ، ولم تمض بعد ذلك ثلاثة أيام . ولكن صدق الذى قال : ان الذى تعود عمل البر هين عليه عمله ، وان أضر به. قال القاضى : انا نجد فى كتب الاولين : أن القاضى ينبغى له أن يعرف عمل المحسن والمسيء،ليجازى المحسن باحسانه والمسيءباساءته؛ فاذا ذهب الى هذا ازداد المحسنون حرصا على الاحسان، والمسيئون اجتنابا للذنوب . والرأى لك ، يادمنة ، أن تنظر الذى وقعت فيه ، وتعترف بذنبك ، وتقر به ، وتتوب . فأجابه دمنة : ان صالحى القضاة لايقطعون بالظن ، ولا يعملون به ، لا فى الخاصة ولا فى العامة : لعلمهم أن الظن لايغنى من الحق شيئا . وأنتم ان ظننتم أنى مجرم فيما

فعلت ، فانى أعلم بنفسى منكم ؛ وعلمى بنفسى يقين لا شك فيه ؛ وعلمكم بى غاية الشك ؛ وانما قبح أمرى عندكم أنى سعيت بغيرى ، فما عذرى عندكم اذا سعيت بنفسى كاذبا عليها ، فأسلمتها للقتل والعطب ، على معرفة منى ببراءتى وسلامتى مما قرفت(١) به ؟ ونفسى أعظم الانفس علىّ حرمة وأوجبها حقا : فلو فعلت هذا بأقصاكم وأدناكم ، لما وسعنى فى دينى ، ولا حسن بى فى مروءتى ، ولا حق لى أن أفعله ؛ فكيف أفعله بنفسى ؟ فاكفف أيها القاضى عن هذه المقالة : فانها ان كانت منك نصيحة ، فقد أخطأت موضعها ؛ وان كانت خديعة ، فان أقبح الخداع ما نظرته وعرفت أنه من غير أهله ؛ مع أن الخداع والمكر ليسا من أعمال صالحى القضاة ، ولا تقاة الولاة .

واعلم أن قولك مما يتخذه الجهال والاشرار سنة يقتدون بها : لان أمور القضاء يأخذ بصوابها أهل الصواب ، وبخطئها أهل الخطإ والباطل والقليلو الورع ؛ وأنا خائف عليك أيها القاضى من مقالتك هذه أعظم الرزايا والبلايا ؛ وليس من البلاء والمصيبة أنك لم تزل فى نفس الملك والجند والخاصة والعامة فاضلا فى رأيك ، مقنعا فى عدلك ، مرضيا فى حكمك وعفافك وفضلك ؛ وانما البلاء كيف أتيت ذلك فى أمرى .

فلما سمع القاضى ذلك من لفظ دمنة ، نهض فرفعه الى الاسد على وجهه ، فنظر فيه الاسد ، ثم دعا أمه فعرضه عليها . فقالت حين تدبرت كلام دمنة للاسد : لقد صار اهتمامى بما أتخوف من احتيال دمنة لك بمكره ودهائه ، حتى يقتلك أو يفسد عليك أمرك ، أعظم من

(١) اتهمت

اهتمامى بما سلف من ذنبه إليك فى الغشّ والسعاية ، حتى قتلت صديقك بغير ذنب . فوقع قولها فى نفسه . فقال لها : أخبرينى عن الذى أخبرك عن دمنة بما أخبرك ، فيكون حجة لى فى قتلى دمنة . فقالت : إنى لأكره أن أفشىَ سرّ من استكتمنيه ؛ فلا يهنئنى سرورى بقتل دمنة إذا تذكرت أنى استظهرت عليه بركوب مانهت عنه العلماء من كشف السرّ ؛ ولكنى أطالب الذى استودعنيه أن يجعلنى فى حلّ من ذكره لك ؛ ويقوم هو بعلمه وما سمع منه . ثمّ انصرفت ، وأرسلت الى النمر ، وذكرت له ما يحقّ عليه من حسن معاونته الأسد على الحقّ ، وإخراج نفسه من الشهادة التى لا يكتمها مثله ، مع ما يحقّ عليه من نصر المظلومين ، وتثبيت حجة الحقّ فى الحياة والممات : فانه قد قالت العلماء : من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة . فلم تزل به ، حتى قام فدخل على الأسد ، فشهد عنده بما سمع من إقرار دمنة . فلما شهد النمر بذلك ، أرسل الفهدُ المحبوس الذى سمع إقرار دمنة وحفظه الى الأسد فقال : إنّ عندى شهادة . فأخرجوه . فشهد على دمنة بما سمع من إقراره . فقال لهما الأسد : ما منعكما أن تقوما بشهادتكما ، وقد علمتما أمرنا واهتمامنا بالفحص عن أمر دمنة ؟ فقال كلّ واحد منهما : قد علمنا أنّ شهادة الواحد لا توجب حكما فكرهنا التعرّض لغير ما يقضى به الحكم ؛ حتى اذا شهد أحدنا قام الآخر بشهادته ، فقبل الأسد قولهما . وأمر بدمنة أن يقتل فى حبسه : فقتل أشنع قتلة . فمن نظر فى هذا فليعلم أنّ من أراد منفعة نفسه بضرّ غيره بالخلابة[1] والمكر ، فانه سيجزى على خلابته ومكره

(انقضى باب الفحص عن أمر دمنة)

(١) الخديعة بلطف القول

باب الحمامة المطوّقة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب ، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك . فحدثني ، إن رأيت ، عن اخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ؟ قال الفيلسوف : إنّ العاقل لا يعدل بالاخوان شيئا . فالاخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه. ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوّقة والجرذ والظبي والغراب. قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا انه كان بأرض سكاوندجين، عند مدينة داهر، مكان كثير الصيد، ينتابه الصيادون؛ وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق ، فيها وكر غراب . فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره اذ بصر بصياد قبيح المنظر ، سيء الخلق ، على عاتقه شبكة ، وفي يده عصا ، مقبلا نحو الشجرة ؛ فذعر[1] منه الغراب ؛ وقال : لقد ساق هذا الرجل ، الى هذا المكان : اما حيني واما حين غيري . فلأثبتن مكاني حتى أنظر ماذا يصنع . ثمّ انّ الصياد نصب شبكته ، ونثر عليها الحب، وكمن[2] قريبا منها ؛ فلم يلبث الا قليلا ، حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة؛ وكانت سيدة الحمام، ومعها حمام كثير، فعميت هي وأصحابها عن الشرك ، فوقعن على الحبّ يلتقطنه ، فعلقن في الشبكة كلهن ؛ وأقبل الصياد فرحا مسرورا ؛ فجعلت كلّ حمامة تضطرب في حبائلها ، وتلتمس الخلاص لنفسها . قالت المطوقة : لا تخاذلن[3]

(١) خاف (٢) توارى (٣) لا تتركن مساعدة بعضكن

فى المعالجة ، ولا تكن نفس احدا كنّ أهمّ اليها من نفس صاحبتها ؛ ولكن نتعاون جميعا ، فنقلع الشبكة ، فينجو بعضنا ببعض ، فقلعن الشبكة جميعهنّ بتعاونهم ، وعلون في الجوّ ؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظنّ أنهنّ لا يجاوزن الا قريبا ويقعن . فقال الغراب : لأتبعهنّ وأنظر ما يكون منهنّ . فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهنّ فقالت للحمام: هذا الصياد مجد فى طلبكنّ ؛ فان نحن أخذنا فى الفضاء لم يخف عليه أمرنا ، ولم يزل يتبعنا ؛ وان نحن توجهنا الى العمران خفى عليه أمرنا ، وانصرف . وبمكان كذا جرذ هو لى أخ ؛ فلو انتهينا اليه قطع عنا هـذا الشرك . ففعلن ذلك . وأيس الصياد منهنّ وانصرف. وتبعهن الغراب. فلما انتهت الحمامة المطوقة الى الجرذ ، أمرت الحمام أن يسقطن ، فوقعن ؛ وكان للجرذ مائة جحر للمخاوف ؛ فنادته المطوّقة باسمه ، وكان اسمه زيرك ، فأجابها الجرذ من جحره : من أنت ؟ قالت : أنا خليلتك المطوقة . فأقبل اليها الجرذ يسعى ، فقال لها : ما اوقعك فى هذه الورطة ؟ قالت له : ألم تعلم أنه ليس من الخير والشرّ شىء الا وهو مقدّر على من تصيبه المقادير ؛ وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة(١) ؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم أمرا ؛ وقد تنكسف الشمس والقمر اذا قضى ذلك عليهما . ثمّ ان الجرذ أخـذ فى قرض العقد الذى فيه المطوقة . فقالت له المطوقة : ابدأ بقطع عقد سائر الحمام ، وبعد ذلك أقبل على عقدى ؛ وأعادت ذلك عليه مرارا ، وهو لا يلتفت الى قولها ؛ فلما أكثرت عليه القول وكررت ، قال لها : لقد كررت القول علىّ كانك ليس

(١) كل امر تعسر النجاة منه

لك فى نفسك حاجة ، ولا لك عليها شفقة ، ولا ترعين لها حقا . قالت : انى أخاف ، ان أنت بدأت بقطع عقدى ، ان تمل وتكسل عن قطع ما بقى ؛ وعرفت أنك ان بدأت بهن قبلى ، وكنت أنا الأخيرة ، لم ترض ، وان أدركك الفتور ، أن أبقى فى الشرك . قال الجرذ : هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك : ثم ان الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منها ، فانطلقت المطوقة وحمامها معها .

فلما رأى الغراب صنع الجرذ ، رغب فى مصادقته ؛ فجاء وناداه باسمه ، فأخرج الجرذ رأسه ، فقال له : ما حاجتك ؟ قال : انى أريد مصادقتك . قال الجرذ : ليس بينى و بينك تواصل ؛ وانما العاقل ينبغى له أن يلتمس ما يجد اليه سبيلا ، ويترك التماس ما ليس اليه سبيل ؛ فانما أنت الآكل ، وأنا طعام لك . قال الغراب : ان أكلى اياك ، وان كنت لى طعاما ، مما لا يغنى عنى شيئا ؛ وان مودتك آنس لى مما ذكرت ؛ ولست بحقيق ، اذا جئت أطلب مودتك ، أن تردنى خائباً . فانه قد ظهر لى منك من حسن الخلق ما رغبنى فيك ، وان لم تكن تلتمس اظهار ذلك : فان العاقل لا يخفى فضله ، وان هو أخفاه ؛ كالمسك الذى يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والارج الفائح . قال الجرذ : ان اشد العداوة عداوة الجوهر : وهى عداوتان : منها ما هو متكافىء كعداوة الفيل والأسد . فانه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد ؛ ومنها ما قوته من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بينى و بين السنور و بينى و بينك : فان العداوة التى بيننا ليست تضرك ؛ وانما ضررها عائد على : فان الماء لو أطيل اسخانه لم يمنعه ذلك من اطفائه النار اذا صب عليها ؛ وانما مصاحب

العدوّ ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه ، والعاقل لا يستأنس الى العدو الأريب

قال الغراب : قد فهمت ما تقول ؛ وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك ، وتعرف صدق مقالتى ، ولا تصعب علىّ الأمر بقولك : ليس الى التواصل بيننا سبيل : فان العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها، بطىء انقطاعها . ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب : بطىء الانكسار، سريع الاعادة ، هين الاصلاح ، ان أصابه ثلم أو كسر ؛ والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها ، بطىء اتصالها . ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار ، سريع الانكسار ، ينكسر من أدنى عيب ، ولا وصل له أبدا . والكريم يودّ الكريم ، واللئيم لا يودّ أحدا إلا عن رغبة أو رهبة . وأنا إلى ودك ومعروفك محتاج : لأنك كريم ؛ وأنا ملازم لبابك ، غير ذائق طعاما ، حتى تؤاخينى . قال الجرذ : قد قبلت إخاءك : فانى لم أردد أحدا عن حاجة قط ؛ وأنما بدأتك بما بدأتك به إرادة التوثق لنفسى ؛ فان أنت غدرت بى لم تقل : إنى وجدت الجرذ سريع الانخداع : ثم خرج من جحره ، فوقف عند الباب . فقال له الغراب : ما يمنعك من الخروج الىّ ، والاستئناس بى ؟ فهل فى نفسك بعد ذلك منى ريبة ؟ قال الجرذ : ان أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ، ويتواصلون عليهما ، وهما ذات النفس ، وذات اليد . فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء ؛ وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض . ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا . فانما مثله فيما يبذل و يعطى كمثل الصياد والقائه الحبّ للطير ،

لا يريد بذلك نفع الطير، وانما يريد نفع نفسه . فتعاطى ذات النفس أفضل من تعاطى ذات اليد . وانى وثقت منك بذات نفسك ، ومنحتك من نفسى مثل ذلك ، وليس يمنعنى من الخروج اليك سوء ظنّ بك ؛ ولكن قد عرفت أنّ لك أصحابا جوهرهم كجوهرك ، وليس رأيهم فىّ كرأيك .

قال الغراب : إنّ من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقا ، ولعدوّ صديقه عدوّا ؛ وليس لى بصاحب ولا صديق من لا يكون لك محبا ؛ وانه يهون علىّ قطيعة من كان كذلك من جوهرى . ثم ان الجرذ خرج الى الغراب ، فتصافحا وتصافيا ، وأنس كل واحد منهما بصاحبه ؛ حتى اذا مضت لهم أيام قال الغراب للجرذ : ان جحرك قريب من طريق الناس ، وأخاف أن يرميك بعض الصبيان بحجر ؛ ولى مكان فى عزلة ، ولى فيه صديق من السلاحف ، وهو مخصب من السمك ؛ ونحن واجدون هناك ما نأكل ؛ فأريد أن أنطلق بك الى هناك لنعيش آمنين. قال الجرذ: انّ لى اخبارا وقصصا سأقصها عليك اذا انتهينا حيث تريد ، فافعل ما تشاء . فأخذ الغراب بذنب الجرذ ، وطار به حتى بلغ به حيث أراد . فلما دنا من العين التى فيها السلحفاة ، بصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ ، فذعرت منه ، ولم تعلم أنه صاحبها ؛ فناداها ، فخرجت اليه ، وسألته من أين أقبلت ؟ فأخبرها بقصته حين تبع الحمام ، وما كان من أمره وأمر الجرذ حتى انتهى اليها . فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ ، عجبت من عقله ووفائه ، ورحبت به ، وقالت له : ما ساقك الى هـذه الأرض ؟ قال الغراب للجرذ : اقصص على الاخبار التى زعمتَ انك

تحدثنى بها ، فأخبرنى بها مع جواب ما سألت السلحفاة : فانها عندك بمنزلتى . فبدأ الجرذ وقال : . .

كان منزلى أول أمرى بمدينة ماروت فى بيت رجل ناسك ؛ وكان خاليا من الأهل والعيال ؛ وكان يؤتى فى كل يوم بسلة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلق الباقى ؛ وكنت أرصد الناسك ، حتى يخرج وأثب الى السلّة ، فلا أدع فيها طعاما الا أكلته ، وأرمى به الى الجرذان . فجهد الناسك مرارا أن يعلق السلة مكانا لا أناله فلم يقدر على ذلك ، حتى نزل به ذات ليلة ضيف ، فأكلا جميعا ؛ ثمّ أخذا فى الحديث ، فقال الناسك للضيف : من أى أرض أقبلت ؟ وأين تريد الآن ؟ وكان الرجل قد جاب الآفاق ، ورأى عجائب ؛ فأنشأ يحدث الناسكَ عما وطىء من البلاد ، ورأى من العجائب ؛ وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه ، لينفرنى عن السلة ؛ فغضب الضيف وقال : أنا أحدثك وأنت تهزأ بحديثى ! فما حملك على ان سألتنى ؟ فاعتذر اليه الناسك ، وقال : انما اصفق بيدى لأنفر جُرَذا قد تحيرتُ فى أمره ، ولستُ أضع فى البيت شيئا الا وأكله . فقال الضيف : جرذ واحد يفعل ذلك أم جرذان كثيرة ؟ فقال الناسك : جرذان البيت كثيرة ، ولكن فيها جرذ واحد هو الذي غلبنى ، فما أستطيع له حيلة . قال الضيف : لقد ذكّرتنى قولَ الذى قال : لأمرما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور ! قال الناسك : وكيف كان ذلك ؟

قال الضيف : نزلت مرة على رجل بمكان كذا ، فتعشينا ، ثمّ فرش لى . وانقلب الرجل على فراشه ، فسمعته يقول فى آخر الليل

لامرأته : انى أريد أن أدعو غدا رهطا ليأكلوا عندنا ، فاصنعى لهم طعاما . فقالت المرأة كيف تدعو الناس الى طعامك ، وليس فى بيتك فضل عن عيالك ؟ وأنت رجل لا تبقى شيئا ولا تدّخره . قال الرجل : لا تندمى على شىء أطعمناه وأنفقناه : فان الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب . قالت المرأة : وكيف كان ذلك ؟

قال الرجل : زعموا أنه خرج ذات يوم رجل قانص ، ومعه قوسه ونُشّابه[١] فلم يجاوز غير بعيد ، حتى رمى ظبيا ، فحمله ورجع طالبا منزله ؛ فاعترضه خنزير برى فرماه بنُشّابة نفذت فيه ؛ فأدركه الخنزير وضربه بانيابه ضربة أطارت من يده القوس ، ووقعا ميتين ؛ فأتى عليهم ذئب فقال : هـذا الرجل والظبي والخنزير يكفينى أكلهم مدة ؛ ولكن أبدأ بهـذا الوتر فآكله ، فيكون قوت يومى ؛ فعالج الوتر حتى قطعه ، فلما انقطع طارت سية[٢] القوس ، فضربت حلقه فمات . وانما ضربت لكِ هـذا المثل لتعلمى أن الجمع والادخار وخيم العاقبة . فقالت المرأة : نعم ما قلت ! وعندنا من الارز والسِمْسِم ما يكفى ستة نفر أو سبعة ؛ فأنا غادية على اصطناع الطعام ؛ فادع من احببت . وأخذت المرأة حين أصبحت سِمسِما فقشرته ، وبسطته فى الشمس ليجفّ ؛ وقالت لغلام لهم : اطرد عنه الطير والكلاب ؛ وتفرغت المرأة لصنعها ؛ وتغافل الغلام عن السمسم ؛ فجاء كلب ، فعاث[٣] فيه ؛ فاستقذرته المرأة ، وكرهت أن تصنع منه طعاما ما ، فذهبت به الى السوق ، فأخذت به مقايضة سمسماً غير مقشور : مثلا بمثل ، وأنا واقف فى السوق ؛ فقال رجل : لأمر ما باعت هذه

(١) جمع نُشّابة وهى السهم (٢) طرفها (٣) أفسده

المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور . وكذلك قولى فى هذا الجرذ الذى ذكرت أنه على غير علة ما يقدر على ماشكوت منه . فالتمس لى فأسا لعلى أحتفر جحره فأطلع على بعض شأنه ! فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسا ، فأتى بها الضيف ؛ وأنا حينئذ فى جحر غير جحرى ، أسمع كلامهما ، وفى جحرى كيس فيه مائة دينار ، لا أدرى من وضعها ، فاحتفر الضيف حتى انتهى إلى الدنانير فأخذها وقال للناسك : ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب إلا بهذه الدنانير : فان المال جعل له قوة وزيادة فى الرأى والتمكن . وسترى بعد هذا أنه لا يقدر على الوثوب حيث كان يثب . فلما كان من الغد اجتمع الجرذان التى كانت معى فقالت : قد أصابنا الجوع ، وأنت رجاؤنا . فانطلقت ومعى الجرذان إلى المكان الذى كنت أثب منه إلى السلة ، فحاولت ذلك مرارا : فلم أقدر عليه . فاستبان للجرذان نقص حالى ؛ فسمعتهن يقلن : انصرفن عنه ، ولا تطمعن فيما عنده : فانا نرى له حالا لا نحسبه إلا قد احتاج معها إلى من يعوله . فتركتنى ، ولحقن بأعدائى ، وجفوننى ، وأخذن فى غيبتى عند من يعادينى ويحسدنى . فقلت فى نفسى : ما الاخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء الا بالمال . ووجدت من لا مال له ، إذا أراد أمرا ، قعد به العدم عما يريده : كالماء الذى يبقى فى الأودية من مطر الشتاء : لا يمر إلى نهر ، ولا يجرى إلى مكان ، فتشربه أرضه . ووجدت من لا إخوان له لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ، ولا دنيا ولا آخرة له : لأن الرجل اذا افتقر قطعه أقاربه واخوانه : فان الشجرة النابتة فى السباخ ، المأكولة من كل جانب ، كحال الفقير المحتاج الى ما فى أيدى الناس .

ووجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالبا الى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة . ووجدت الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا ، وأساء به الظن من كان يظن فيه حسنا : فان أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا. وليس من خلة هى للغنى مدح الا وهى للفقير ذم : فان كان شجاعا قيل : أهوج ؛ وان كان جوادا سمى مبذرا ؛ وان كان حليما سمى ضعيفا ؛ وان كان وقورا سمى بليدا . فالموت أهون من الحاجة التى تحوج صاحبها الى المسألة ، ولا سيما مسئلة الاشحاء واللئام : فان الكريم لو كلف أن يدخل يده فى فم الأفعى ، فيخرج منه سما فيبتلعه ، كان ذلك أهون عليه ، وأحب إليه ، من مسألة البخيل اللئيم . وقد كنت رأيت الضيف حين أخذ الدنانير فقاسمها الناسك ، فجعل الناسك نصيبه فى خريطة عند رأسه لمّا جن الليل ، فطمعت أن أصيب منها شيئا فأردّه إلى جحرى ، ورجوت أن يزيد ذلك فى قوتى ، ويراجعنى بسببه بعض أصدقائى . فانطلقت إلى الناسك وهو نائم ، حتى انتهيت عند رأسه ، ووجدت الضيف يقظان ، وبيده قضيب ، فضربنى على رأسى ضربة موجعة ، فسعيت الى جحرى . فلما سكن عنى الألم ، هيجنى الحرص والشره ، فخرجت طمعا كطمعى الأوّل ، وإذا الضيف يرصدنى ، فضربنى ضربة أسالت منى الدم ؛ فتقلبت ظهر البطن إلى جحرى ، فخررت مغشيا علىّ ، فاصابنى من الوجع ما بغض إلىّ المال ، حتى لا أسمع بذكره إلاّ تداخلنى من ذكر المال رعدة وهيبة . ثم تذكرت فوجدت البلاء فى الدنيا إنما يسوقه الحرص والشره ، ولا يزال صاحب الدنيا فى بلية وتعب ونصب ؛ ووجدت تجشم (١) الأسفار البعيدة فى طلب الدنيا أهون علىّ من

(١) تكلف الأمر على مشقه

بسط اليد الى السخيّ بالمال ؛ ولم أر كالرضا شيئا ، فصار أمري الى أن رضيت وقنعت ، وانتقلت من بيت الناسك الى البرية ؛ وكان لى صديق من الحمام ، فسبقت الىّ بصداقته صداقة . ثمّ ذكر لى الغراب ما بينك و بينه من المودّة ، وأخبرنى أنه يريد اتيانك ، فأحببت أن آتيك معه ، فكرهت الوحدة ، فانه لاشيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الاخوان ، ولا غمّ فيها يعدل البعد عنهم . وجرّبت : فعلمت أنه لاينبغى للعاقل أن يلتمس من الدنيا غيرَ الكفاف الذى يدفع به الأذى عن نفسه : وهو اليسير من المَطْعَم والمشرب ، اذا اشتمل على صحّة البدن و رفاهة البال . ولو أن رجلا وُهِبَتْ له الدنيا بما فيها ، لم يك ينتفع من ذلك الا بالقليل الذى يدفع به عن نفسه الحاجة : فأقبلتُ مع الغراب اليك على هذا الرأى ، وأنا لك أخ ، فلتكن منزلتى عندك كذلك

فلمّا فرغ الجرذ من كلامه أجابته السلحفاة بكلام رقيق عذب ، وقالت : قد سمعت كلامك ، وماأحسن ماتحدّثت به ! الاّ أنى رأيتك تذكر بقايا أمور هى فى نفسك . واعلم أن حسن الكلام لا يتمّ الا بحسن العمل . وأن المريض الذى قد علم دواء مرضه ان لم يتداو به ، لم يغن علمه به شيئا ، ولم يجد لدائه راحة ولاخفة . فاستعمل رأيك ، ولا تحزن لقلة المال : فان الرجل ذا المروءة قد يُكرَمُ على غير مال : كالأسد الذى يهاب ، وان كان رابضا ؛ والغنىّ الذى لا مروءة له يهان، وان كان كثير المال : كالكلب لا يُحفَل به، وان طوّق وخلخل(١)

(١) يمكن أن يكون مأخوذا من المخلخل وهو موضع الخلخال والا فان كلمة خلخل لم ترد صريحا الا في معنى خلخل العظم أخذ ما عليه من اللحم

بالذهب . فلا تكبرنّ عليك غربتك : فان العاقل لاغربة له : كالأسد الذى لاينقلب الاّ معه قوّته . فلتحسن تعاهدك لنفسك : فانك اذا فعلت ذلك جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره . وانما جعل الفضل للحازم البصير بالأمور ؛ وأما الكسلان المتردّد فان الفضل لايصحبه . وقد قيل فى أشياءَ ليس لها ثبات ولا بقاء : ظلّ الغمامة فى الصيف ، وخلة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والمال الكثير : فالعاقل لايحزنُ لقلته ، وانما مال العاقل عقله ، وما قدّمَ من صالح عمله ؛ فهو واثق بأنه لايُسلبُ ماعمِلَ ، ولا يؤاخذ بشىء لم يعمله ؛ وهو خليق ألا يغفل عن أمر آخرته : فانّ الموت لايأتى الا بغتة ، ليس له وقت معين . وأنت عن موعظتى غنيّ بما عندك من العلم . ولكن رأيتُ أن أقضىَ مالك من حقّ قبلنا : لأنك أخونا ، وما عندنا من النصح مبذول لك .

فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ، وردّها عليه ، وملاطفتها اياه فرح بذلك؛ وقال : لقد سررتنى، وأنعمت علىّ،وأنت جديرة أن تسرّى نفسك بمثل ماسررتنى به . وان أولى أهل الدنيا بشدة السرور من لايزال رَبعه من اخوانه وأصدقائه من الصالحين معمورا ، ولا يزال عنده منهم جماعة يسرّهم ويسرونه ، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد : فان الكريم اذا عثر لا يأخذ بيده الاّ الكرام : كالفيل اذا وَحِلَ لا تخرجه الا الفيلة .

فبينما الغراب فى كلامه ، اذ أقبل نحوهم ظبى يسعى ، فذُعِرَت منه السلحفاة ، فغاصت فى الماء ، وخرج الجرذ الى جحره، وطار الغراب ، فوقع على شجرة . ثم انّ الغراب حلقَ فى السماء لينظر هل للظبى

طالب ؟ فنظر فلم ير شيئا ؛ فناد الجرذ والسلحفاة ، وخرجا ؛ فقالت السلحفاة للظبي ، حين رأته ينظر الى الماء : اشرب ان كان بك عطش ، ولا تخف : فانه لا خوف عليك . فدنا الظبي ، فرحبت به السلحفاة وحيته ، وقالت له : من أين أقبلت ؟ قال : كنت أسنح [١] بهذه الصحارى ، فلم تزل الأساورة [٢] تطردني من مكان الى مكان ، حتى رأيت اليوم شبحا ، فخفت أن يكون قانصا . قالت : لا تخف : فانا لم نر هاهنا قانصا قط ؛ ونحن نبذل لك ودّنا ومكاننا ، والماء والمرعى كثيران عندنا : فارغب في صحبتنا . فأقام الظبي معهم ، وكان لهم عريش [٣] يجتمعون فيه ، ويتذاكرون الأحاديث والأخبار . فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش ، غاب الظبي ، فتوقعوه ساعة ، فلم يأت . فلما أبطأ أشفقوا [٤] أن يكون قد أصابه عنت [٥] فقال الجرذ والسلحفاة للغراب : انظر هل ترى مما يلينا شيئا ؟ فحلق الغراب في السماء ، فنظر : فاذا الظبي في الحبائل مقتنصا ، فانقض مسرعا ، فأخبرهما بذلك ، فقالت السلحفاة والغراب للجرذ : هذا أمر لا يرجى فيه غيرك ، فأغث أخاك . فسعى الجرذ مسرعا ، فأتى الظبي ، فقال له : كيف وقعت في هذه الورطة وأنت من الأكياس ؟ [٦] قال الظبي : هل يغني الكيس مع المقادير شيئا ؟ فبيناهما في الحديث اذ وافتهما السلحفاة ، فقال لها الظبي : ما أصبت بمجيئك الينا : فان القانص لو انتهى الينا وقد قطع الجرذ الحبائل

(١) السانح من الصيد ما مر من المياسر الى الميامن والبارح ضده
(٢) جمع أسوار وهو الرامي بالسهام (٣) مكان يستظل به (٤) خافوا (٥) وقوع في أمر شاق (٦) جمع كيس وهو الفطن الظريف

استبقته عدوا ، وللجرذ أجحار كثيرة ، والغراب يطير، وأنت ثقيلة : لاسعي لك ولا حركة ، وأخاف عليك القانص . قالت : لاعيش مع فراق الاحبة ، واذا فارق الأليف أليفه فقد سلب فؤاده ، وحرم سروره ، وغشي بصره . فلم ينته كلامهما حتى وافى القانص ، ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك ؛ فنجا الظبي بنفسه ، وطار الغراب محلقا ، ودخل الجرذ بعض الأحجار ، ولم يبق غير السلحفاة ؛ ودنا الصياد فوجد حبالته مقطعة ، فنظر يمينا وشمالا فلم يجد غير السلحفاة تدِبُّ ، فأخذها وربطها، فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي أن اجتمعوا فنظروا القانص قد ربط السلحفاة ، فاشتدّ حزنهم ، وقال الجرذ : ما أرانا نجاوز عقبة من البلاء إلاّ صرنا فى أشدّ منها . ولقد صدق الذى قال : لا يزال الانسان مستمرّا فى اقباله ما لم يعثر ؛ فاذا عثر لجّ (١) به العثار ، وان مشى فى جدَد (٢) الأرض . وحذرى على السلحفاة خير الأصدقاء التى خلتها (٣) ليست للمجازات ولا لالتماس مكافأة ، ولكنها خلة الكرم والشرف ، خلة هى أفضل من خلة الوالد لولده ، خلة لا يزيلها إلاّ الموت . ويح لهذا الجسد الموكل به البلاء الذى لايزال فى تصرف وتقلب ، ولا يدوم له شيء ، ولا يلبث معه أمر : كما لا يدوم للطالع من النجوم طلوع ، ولا للآفل منها أفول ، لكن لايزال الطالع منها آفلا ، والآفل طالعا ؛ وكما تكون آلام الكلوم (٤) وانتقاض الجراحات ، كذلك من قرحت كلومه بفقد اخوانه بعد اجتماعه بهم . فقال الظبي والغراب للجرذ : ان حذرنا

---

(١) تمادى (٢) الأرض الغليظة المستوية (٣) الخلة الصداقة المختصة تكون فى عفاف وفى دعارة (٤) جمع كلم وهو الجرح

وحذرك وكلامك ، وإن كان بليغا ، كلّ منها لا يغني عن السلحفاة شيئا . وإنه كما يقال : إنما يختبر الناس عند البلاء ، وذو الأمانة عند الأخذ والعطاء ، والأهل والولد عند الفاقة ؛ كذلك تختبر الاخوان عند النوائب . قال الجرذ : أرى من الحيلة أن تذهب ، أيها الظبي ، فتقع بمنظر من القانص : كأنك جريح ؛ ويقع الغراب عليك كأنه يأكل منك ؛ وأسعى أنا فأكون قريبا من القانص ، مراقبا له ، لعله أن يرمي ما معه من الآلة ، ويضع السلحفاة ، ويقصدك طامعا فيك ، راجيا تحصيلك . فاذا دنا منك ففرّ عنه رويدا : بحيث لاينقطع طمعه منك ، ومكّنه من أخذك مرّة بعد مرّة ، حتى يبعد عنا ؛ وانحُ منه هذا النحو ما استطعت : فانى أرجو ألاّ ينصرف الا وقد قطعت الحبائل عن السلحفاة ، وأنجو بها . ففعل الغراب والظبي ماأمرهما به الجرذ ، وتبعهما القانص ، فاستجرّه الظبي ، حتى أبعده عن الجرذ والسلحفاة ؛ والجرذ مقبل على قطع الحبائل ، حتى قطعها ، ونجا بالسلحفاة ، وعاد القانص مجهودا لاغبا (١) فوجد حبالته مقطعة . ففكر فى أمره مع الظبي المتظلع ، فظنّ أنه خولط فى عقله ، وفكر فى أمر الظبي والغراب الذى كأنه يأكل منه ، وقرض حبالته ، فاستوحش من الأرض وقال : هذه أرض جن أو سحرة . فرجع موليا لا يلتمس شيئا ، ولا يلتفت اليه . واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة الى عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه .

فاذا كان هذا الخلق مع صغره وضعفه قد قدر على التخلص من مرابط الهلكة مرّة بعد أخرى بمودّته وخلوصها ، وثبات قلبه عليها ،

(١) تعبا

واستمتاعه مع أصحابه بعضهم ببعض ؛ فالانسان الذى قد أعطِىَ العقلَ والفهمَ ، وأُلهم الخير والشرّ ، ومُنِح التمييز والمعرفة ، أولى وأحرى بالتواصل والتعاضد . فهذا مثل اخوان الصفاء وائتلافهم فى الصحبة .

(انقضى باب الحمامة المطوّقة)

باب البوم والغِربان

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت مثل اخوان الصفاء ، وتعاونهم ، فاضرب لى مثل العدوّ الذى لاينبغى أن يغترّ به ، وإن أظهر تضرّعا وملقا . قال الفيلسوف : من اغترّ بالعدوّ الذى لم يزل عدوّا ، أصابه ما أصاب البوم من الغربان ؛ قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أنه كان فى جبل من الجبال شجرة من شجر الدَّوح ، (١) فيها وكر ألف غراب ، وعليهنّ والٍ من أنفسهنّ ؛ وكان عند هذه الشجرة كهف فيه ألف بومة ، وعليهنّ والٍ منهنّ فخرج ملك البوم لبعض غدُوَاته (٢) وروحاته ؛ وفى نفسه العداوة لملك الغِرْبان ؛ وفى نفس الغربان وملكها مثل ذلك للبوم ؛ فأغار ملك البوم فى أصحابه على الغربان فى أوكارها ، فقتل وسبي منها خلقا كثيرا وكانت الغارة ليلا ؛ فلمّا أصبحت الغِرْبان اجتمعت الى ملكها فقالن له : قد علمت ما لقينا الليلة من ملك البوم ، وما مِنّا الاّ من أصبح قتيلا أو جريحا أو مكسورَ الجناح أو منتوفَ الريش أو مقطوفَ

(١) جمع دوحة وهى الشجرة العظيمة (٢) جمع غدْوة وهى الذهاب فى البُكرة

الذنب . وأشد مما أصابنا ضرّا علينا جراءتهنّ علينا ، وعلمهنّ بمكاننا ، وهنّ عائدات الينا غير منقطعات عنا : لعلمهنّ بمكاننا : فانما نحن لك ، ولك الرأى ، أيها الملك . فانظر لنا ولنفسك . وكان فى الغربان خمسة معترف لهنّ بحسن الرأى ، يسند اليهنّ فى الأمور ، ويلقى عليهنّ أزمة الأحوال . وكان الملك كثيرا مايشاورهنّ فى الأمور ، ويأخذ آراءهن فى الحوادث والنوازل .

فقال الملك للأوّل من الخمسة : ما رأيك فى هذا الأمر ؟ قال : رأيى قد سبقتنا اليه العلماء ، وذلك أنهم قالوا : ليس للعدوّ الحنق(١) الا الهرب منه . قال الملك للثانى : مارأيك أنت فى هذا الأمر ؟ قال : رأيى ما رأى هذا من الهرب . قال الملك : لا أرى لكما ذلك رأيا : أن نرحل عن أوطاننا ونخليها لعدوّنا من أول نكبة أصابتنا منه ، ولا ينبغى لنا ذلك ؛ ولكن نجمع أمرنا ، ونستعدّ لعدوّنا ، ونذكى(٢) نار الحرب فيما بيننا وبين عدوّنا ؛ ونحترس من الغرّة (٣) اذا أقبل الينا ، فنلقاه مستعدّين ، ونقاتله قتالا غير مراجعين فيه ، ولا مقصرّين عنه ؛ وتلقى أطرافنا أطراف العدوّ ، ونتحرّز بحصوننا ، وندافع عدوّنا : بالأناة مرّة ، وبالجلاد (٤) أخرى ؛ حيث نصيب فرصتنا وبغيتنا ، وقد ثنينا عدوّنا عنا

ثمّ قال الملك للثالث : مارأيك أنت ؟ قال : ماأرى ماقالا رأيا . ولكن نبثّ العيون ، ونبعث الجواسيس ، ونرسل الطلائع بيننا وبين عدوّنا ؛ فنعلم أيريد صلحنا أم يريد حربنا أم يريد الفدية ؟ فان رأينا أمره أمر طامع فى مال ، لم نكره الصلح على خراج نؤدّيه اليه فى كلّ

(١) المغتاظ (٢) نوقد (٣) الغفلة (٤) المضاربة بالسيوف

سنة ، ندفع به عن أنفسنا ، ونطمئنّ فى أوطاننا : فان من آراء الملوك اذا اشتدّت شوكة عدوّهم ، نخافوه على أنفسهم و بلادهم ، أن يجعلوا الأموال جنة البلاد والملك والرعية . قال الملك للرابع : فما رأيك فى هذا الصلح ؟ قال لا أراه رأيا ؛ بل أن نفارق أوطاننا ونصبر على الغربة وشدّة المعيشة خير من أن نضيع أحسابنا ، ونخضع للعدوّ الذى نحن أشرف منه ؛ مع أن البوم لو عرضنا ذلك عليهنّ لما رضين منا الاّ بالشطط (١) . ويقال فى الأمثال : قارب عدوّك بعض المقاربة : لتنال حاجتك . ولا تقاربه كلّ المقاربة : فيجترئ عليك ، ويضعف جندك ، وتذلّ نفسك . ومثل ذلك مثل الخشبة المنصوبة فى الشمس: إذا أملتها قليلا زاد ظلها ، واذا جاوزت بها الحدّ فى امالتها نقص الظلّ . وليس عدوّنا راضيا منا بالدون فى المقاربة . فالرأى لنا ولك المحاربة .

قال الملك للخامس : ما تقول أنت ؟ وماذا ترى : ألقتال أم الصلح أم الجلاء عن الوطن ؟ قال : أما القتال فلا سبيل للمرء الى قتال من لا يقوى عليه ، وقد يقال : انه من لا يعرف نفسه وعدوّه، وقاتل من لا يقوى عليه ، حمل نفسه على حتفها ؛ مع أن العاقل لا يستصغر عدوّا : فان من استصغر عدوّه اغترّ به ، ومن اغترّ بعدوّه لم يسلم منه . وأنا للبوم شديد الهيبة ، وان أضربن عن قتالنا . وقد كنت أهابها قبل ذلك : فان الحازم لا يأمن عدوّه على كل حال : فان كان بعيدا لم يأمن سطوته ؛ وان كان مكثبا (٢) لم يأمن وثبته ، وان كان وحيدا لم يأمن مكره . وأحزم الأقوام وأكيسهم من كره القتال لأجل

---

(١) مجاوزة الحد (٢) قريبا

النفقة فيه : فان مادون القتال النفقة فيه من الأموال والقول والعمل؛ والقتال النفقة فيه من الأنفس والأبدان . فلا يكونن القتال للبوم من رأيك ، أيها الملك : فان من قاتل من لايقوى عليه فقد غرّر (١) بنفسه . فاذا كان الملك محصنا للأسرار ، متخيرا للوزراء ، مهيبا فى أعين الناس ، بعيدا من أن يقدر عليه ، كان خليقا أن لايسلب صحيح ماأوتى من الخير . وأنت ، أيها الملك ، كذلك . وقد استشرتنى فى أمر ، جوابك منى عنه ، فى بعضه علانية ، وفى بعضه سرّ . وللأسرار منازل : منها مايدخل فيه الرهط (٢) ، ومنها مايستعان فيه بالقوم ، ومنها مايدخل فيه الرجلان . ولست أرى لهذا السرّ على قدر منزلته أن يشارك فيه الا اربع آذان ولسانان . فنهض الملك من ساعته ، وخلا به ، فاستشاره ؛ فكان أوّل ماسأله عنه الملك أنه قال : هل تعلم ابتداء عداوة ما بيننا و بين البوم ؟ قال : نعم : كلمة تكلم بها غراب . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن جماعة من الكراكىّ لم يكن لها ملك ، فأجمعت أمرها على أن يملكن عليهن ملك البوم ؛ فبينما هى فى مجمعها اذ وقع لها غراب ، فقالت : لوجاءنا هذا الغراب لاستشرناه فى أمرنا ؛ فلم يلبث دون أن جاءهن الغراب . فاستشرنه ، فقال : لو أن الطير بادت من الأقاليم ، وفقد الطاوس والبطّ والنعام والحمام من العالم لما اضطررتن الى أن تملكن عليكن البوم التى هى أقبح الطير منظرا ، وأسوؤها خلقا ، وأقلها عقلا ، وأشدّها غضبا ، وأبعدها من كلّ رحمة ؛ مع عماها وما بها من العشا (٣) بالنهار ؛ وأشد من ذلك وأقبح

(١) عرضها للهلكة (٢) قوم الرجل وقبيلته (٣) سوء البصر

أمورها سفهها وسوء أخلاقها ، الا أن ترين أن تملكنها وتكن أنتن تدبرن الأمور دونها برأيكن وعقولكن ؛ كما فعلت الأرنب التى زعمت أن القمر ملكها ، ثم عملت برأيها . قال الطير : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن أرضا من أراضى الفيلة تتابعت عليها السنون ، وأجدبت ، وقل ماؤها ، وغارت عيونها ، وذوى نبتها ، ويبس شجرها ؛ فأصاب الفيلة عطش شديد : فشكون ذلك الى ملكهن ؛ فأرسل الملك رسله ورواده فى طلب الماء ، فى كل ناحية . فرجع اليه بعض الرسل، فأخبره أنى قد وجدت بمكان كذا عينا يقال لها عين القمر ، كثيرة الماء . فتوجه ملك الفيلة بأصحابه الى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته . وكانت العين فى أرض للأرانب ؛ فوطئن الأرانب فى أجحارهن ، فأهلكن منهن كثيرا . فاجتمعت الأرانب الى ملكها فقلن له : قد علمت ما أصابنا من الفيلة . فقال : ليحضر منكن كل ذى رأى رأيه . فتقدمت أرنب من الأرانب يقال لها : فيروز . وكان الملك يعرفها بحسن الرأى والأدب ؛ فقالت : ان رأى الملك أن يبعثنى الى الفيلة ، ويرسل معى أمينا ، ليرى ويسمع ما أقول ، ويرفعه الى الملك . فقال لها الملك : أنت أمينة ، ونرضى بقولك ؛ فانطلقى الى الفيلة ، وبلغى عنى ما تريدين . واعلمى أن الرسول برأيه وعقله ، ولينه وفضله ، يخبر عن عقل المرسل . فعليك باللين والرفق ، والحلم والتأنى : فان الرسول هو الذى يلين الصدور اذا رفق ، ويخشن الصدور اذا خرق (١) ثم ان الأرنب انطلقت فى ليلة قمراء ، حتى انتهت الى الفيلة ، وكرهت أن تدنو منهن : مخافة أن

(١) حمق

يطأنها بأرجلهن ، فيقتلنها ، وإن كنّ غير متعمدات . ثمّ أشرفت على الجبل ، ونادت ملك الفيلة ، وقالت له : إن القمر أرسلني اليك ؛ والرسول غير ملوم فيما يبلّغ ، وإن أغلظ في القول . قال ملك الفيلة : فما الرسالة ؟ قالت : يقول لك : إن من عرف فضل قوّته على الضعفاء ، فاغترّ بذلك في شأن الأقوياء ، قياسا لهم على الضعفاء ، كانت قوّته وبالا عليه . وأنت قد عرفت فضل قوّتك على الدواب ، فغرّك ذلك ؛ فعمدت الى العين التي تسمّى باسمي ، فشربت منها ، وكدّرتها . فأرسلني اليك : فأنذرك ألاّ تعود الى مثل ذلك . وانك ان فعلت أغشي بصرك ، وأتلف نفسك . وان كنت في شكّ من رسالتي ، فهلمّ الى العين من ساعتك : فاني موافيك بها . فعجب ملك الفيلة من قول الأرنب ، فانطلق الى العين مع فيروز الرسول . فلما نظر اليها ، رأى ضوء القمر فيها . فقالت له فيروز الرسول : خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهك ، واسجد للقمر . فأدخل الفيل خرطومه في الماء ، فتحرّك فخيّل للفيل أن القمر ارتعد . فقال : ماشأن القمر ارتعد؟ أتراه غضب من ادخالي الخرطوم في الماء؟ قالت فيروز الأرنب : نعم . فسجد الفيل للقمر مرة أخرى ، وتاب اليه مما صنع ، وشرط ألاّ يعود الى مثل ذلك هو ولا أحد من فيلته . قال الغراب : ومع ماذكرت من أمر البوم ان فيها الخب والمكر والخديعة ، وشرّ الملوك المخادع ؛ ومن ابتلي بسلطان مخادع ، وخدمه ، أصابه ما أصاب الأرنب والصفرد [1] حين احتكما الى السنّور . قالت الكراكي : وكيف كان ذلك ؟

---

(١) طائر جبان كنيته أبو المليح

قال الغراب : كان لى جار من الصفاردة ، فى أصل شجرة قريبة من وكرى ، وكان يكثر مواصلتى ؛ ثم فقدته ، فلم أعلم أين غاب ، وطالت غيبته عنى . فجاءت أرنب الى مكان الصفرد ، فسكنته ، فكرهت أن أخاصم الأرنب ، فلبثت فيه زمانا . ثم ان الصفرد عاد بعد زمان ، فأتى منزله ، فوجد فيه الأرنب . فقال لها : هذا المكان لى ، فانتقلى عنه . قالت الأرنب : المسكن لى ، وتحت يدى ؛ وأنت مدّع له فان كان لك حقٌّ فاستعدّ باثباته علىَّ . قال الصفرد : القاضى منا قريب : فهلمى بنا اليه . قالت الأرنب : ومن القاضى؟ قال الصفرد : ان بساحل البحر سنورا متعبّدا ، يصوم النهار ، ويقوم الليل كله ؛ ولا يؤذى دابة ، ولا يهريق دما ؛ عيشه من الحشيش ومما يقذفه اليه البحر . فان أحببت تحاكمنا اليه ، ورضينا به . قالت الأرنب : ماأرضانى به اذا كان كما وصفتَ ! فانطلقا اليه ، فتبعتهما لا نظر الى حكومة الصوّام القوّام . ثم انهما ذهبا اليه ، فلما بصر السنور بالأرنب والصفرد مقبلين نحوه ، انتصب قائما يصلى ، وأظهر الخشوع والتنسك . فعجبا لما رأيا من حاله ، ودنوا منه هائبين له ، وسلما عليه ، وسألاه أن يقضى بينهما . فأمرهما أن يقصا عليه القصة ، ففعلا . فقال لهما : قد بلغنى الكبر ، وثقلت أذناى : فادنوا منى ، فأسمعانى ماتقولان . فدنوا منه ، وأعادا عليه القصة ، وسالاه الحكم . فقال قد فهمت ماقلتما ، وأنا مبتدئكما بالنصيحة قبل الحكومة بينكما : فأنا آمركما بتقوى الله ، وألا تطلبا إلا الحق : فان طالب الحق هو الذى يفلح ، وان قضى عليه ؛ وطالب الباطل مخصوم ، وان قضى له . وليس لصاحب الدنيا من دنياه شئ ، لا مال ولا صديق سوى

العمل الصالح يقدمه ؛ فذو العقل حقيق أن يكون سعيه فى طلب ما يبقى و يعودَ نفعه عليه غـد ؛ وأن يمقت بسعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا : فان منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر[١] ، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير و يكره من الشر بمنزلة نفسه . ثم ان السنور لم يزل يقص عليهما من جنس هذا وأشباهه ، حتى أنسا اليه، وأقبلا عليه ، ودنوا منـه ، ثم وثب عليهما فقتلهما . قال الغراب : ثم إن البوم تجمع ، مع ما وصفت لكن من الشؤم ، سائرَ العيوب: فلا يكونن تمليك البوم من رأيكن . فلما سمع الكراكى ذلك من كلام الغراب أضربن عن تمليك البوم . وكان هناك بوم حاضر قـد سمع ماقالوا ، فقال للغراب : لقد وترتنى [٢] أعظم الترة ، ولا أعلم أنه سلف منى اليك سوء أوجب هذا . و بعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر ، فيعود ينبت ؛ والسيف يقطع اللحم ، ثم يعود فيندمل ؛ واللسان لاينـدمل جرحه ولا تؤسى [٣] مقاطعه . والنصل من السهم يغيب فى اللحم ، ثم ينزع فيخرج ؛ وأشباه النصل من الكلام اذا وصلت الى القلب لم تنزع ولم تستخرج . ولكل حريق مطفىء : فللنار الماء ، وللسمّ الدواء ، وللحزن الصبر ؛ ونار الحقد لاتخبو أبدا . وقد غرستم ، معاشر الغربان ، بيننا و بينكم شجر الحقد والعداوة والبغضاء

فلما قضى البوم مقالته ، ولى مغضباً ، فأخبر ملك البوم بما جرى ، و بكل ما كان من قول الغراب ؛ ثم ان الغراب ندم على مافرط ، منه وقال : والله لقد خرقتُ فى قولى الذى جلبت به العداوة والبغضاء على

(١) واحدته مدرة وهو قطع الطين اليابس والحجارة (٢) أصبتنى بأذى عظيم جعل لك فى قلبى عداوة لا تمحى وحقدا لا يزول (٣) تداوى

نفسي وقومى ! وليتنى لم أخبر الكراكى بهذه الحال ! ولا أعلمتها بهذا الأمر ! ولعل أكثر الطير قد رأى أكثر مما رأيت ، وعلم أضعاف ماعلمت ، فمنعها من الكلام بمثل ماتكلمت اتقاء مالم أتق ، والنظر فيما لم أنظر فيه من حِذَار العواقب ، لاسيما اذا كان الكلام أفظع كلام ، يلقى منه سامعه وقائله المكروه مما يورث الحقد والضغينة ، فلا ينبغى لأشباه هذا الكلام أن تسمى كلاما ، ولكن سهاما . والعاقل ، وان كان واثقا بقوته وفضله ، لاينبغى أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالا على ماعنده من الرأى والقوة ؛ كما أنه وان كان عنده الترياق (١) لا ينبغى له أن يشرب السم اتكالا على ماعنده . وصاحب حسن العمل ، وان قصر به القول فى مستقبل الأمر ، كان فضله بيّنا واضحا فى العاقبة والاختبار ؛ وصاحب حسن القول ، وان أعجب الناس منه حسنُ صفته للأمور ، لم تحمد عاقبة أمره . وأنا صاحب القول الذى لاعاقبة له محمودة . أليس من من سفهى اجترائى على التكلم فى الأمر الجسيم لا أستشير فيه أحدا ، ولم أعمل فيه رأيا ؟ ومن لم يستشر النصحاء الأولياء ، وعمل برأيه من غير تَكْرار النظر والروية ، لم يغتبط بمواقع رأيه . فما كان أغنانى عما كسبت يومى هذا ، وما وقعت فيه من الهم ! وعاتب الغراب نفسه بهذا الكلام وأشباهه وذهب . فهذا ماسألتنى عنه من ابتداء العداوة بيننا و بين البوم

وأما القتال فقد علمت رأيى فيه ، وكراهتى له ؛ ولكن عندى من الرأى والحيلة غير القتال مايكون فيه الفرج إن شاء الله تعالى : فانه

(١) دواء السموم

ربّ قوم قد احتالوا بآرائهم حتى ظفروا بما أرادوا . ومن ذلك حديث الجماعة الذين ظفروا بالناسك ، وأخذوا عريضة [١] قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن ناسكا اشترى عريضا ضخما ليجعله قربانا ؛ فانطلق به يقوده . فبصر به قوم من المكرة ، فأتمروا بينهم أن يأخذوه من الناسك . فعرض له أحدهم فقال له : أيها الناسك ، ماهذا الكلب الذي معك ؟ ثمّ عرض له الآخر فقال لصاحبه : ماهذا ناسك ؛ لأن الناسك لا يقود كلبا . فلم يزالوا مع الناسك على هذا ومثله حتى لم يشكّ أن الذي يقوده كلب ؛ وأن الذي باعه إياه سحر عينه ، فأطلقه من يده ؛ فأخذه الجماعة المحتالون ومضوا به *

وإنما ضربت لك هذا المثل لما أرجو أن نصيب من حاجتنا بالرفق والحيلة . وانى أريد من الملك أن ينقرني على رؤوس الأشهاد ؛ وينتف ريشي وذنبي ؛ ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة ؛ ويرتحل الملك هو وجنوده الى مكان كذا . فأرجو أني أصبر وأطلع على أحوالهم ، ومواضع تحصينهم وأبوابهم ، فاخادعهم وآتي اليكم لنهجم عليهم ، وننال منهم غرضنا إن شاء الله تعالى

قال الملك : أتطيب نفسك لذلك ؟ قال : نعم ، وكيف لا تطيب نفسي لذلك وفيه أعظم الراحات للملك وجنوده ؟ ففعل الملك بالغراب ما ذكر ؛ ثم ارتحل عنه . فجعل الغراب يئنّ ويهمس [٢] حتى رأته البوم وسمعته يئن ، فأخبرن ملكهن بذلك ، فقصد نحوه ليسأله عن الغربان .

(١) العريض من المعز ما أتى عليه سنة (٢) الهمس الصوت الخفي

فلما دنا منه أمر يوما أن يسأله فقال له : من أنت ؟ وأين الغربان ؟ فقال : أما اسمى ففلان ، وأما ماسألتنى عنه فانى أحسبك ترى أن حالى حال من لايعلم الاسرار . فقيل لملك البوم : هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه ؛ فنسأله بأىّ ذنب صنع به ماصنع ؟ فسئل الغراب عن أمره فقال : إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنّ : وكنت يومئذ بمحضر من الأمر ؛ فقال : أيها الغربان ، ماترون فى ذلك ؟ فقلت : أيها الملك ، لا طاقة لنا بقتال البوم : لأنهن أشدّ بطشا ، وأحدّ قلبا منا . ولكن أرى أن نلتمس الصلح ؛ ثم نبذل الفدية فى ذلك ؛ فان قبلت البوم ذلك منا ، وإلا هربنا فى البلاد . واذا كان القتال بيننا و بين البوم كان خيرا لهنّ وشرا لنا ، فالصلح أفضل من الخصومة . وأمرتهنّ بالرجوع عن الحرب ؛ وضربت لهن الأمثال فى ذلك ؛ وقلت لهن : إن العدوّ الشديد لايَرُدّ بأسه وغضبه مثل الخضوع له : ألا ترَيْنَ الى الحشيش كيف يسلم من عاصف الريح للينه ومَيْله معها حيث مالت . فعصيننى فى ذلك ؛ وزعمن أنهن يردن القتال ، واتهمننى فيما قلت ، وقلن : انك قد مالأت[1] البوم علينا ، ورددن قولى ونصيحتى، وعذبننى بهذا العذاب ، وتركنى الملك وجنوده وارتحل . ولا علم لى بهن بعد ذلك .

فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه : ماتقول فى الغراب ؟ وما ترى فيه؟ قال : ماأرى الا المعاجلة له بالقتل : فان هذا أفضل عُدَدِ الغربان ؛ وفى قتله لنا راحة من مكره ؛ وفقده على الغربان شديد . ويقال : من ظفر بالساعة التى فيها ينجح العمل ،

(١) ساعدت

ثم لا يعاجله بالذى ينبغى له ، فليس بحكيم . ومن طلب الأمر الجسيم ، فأمكنه ذلك بأغفاله ، فاته الأمر ؛ وهوخليق ألا تعود الفرصة ثانية . ومن وجد عدوّه ضعيفا ، ولم ينجز قتله ، ندم اذا استقوى ولم يقدر عليه .

قال الملك لوزير آخر : ما ترى أنت فى هذا الغراب ؟ قال : أرى ألا تقتلَه : فان العدوّ الذليل الذى لاناصر له أهل لأن يستبقى ويرحم ويصفح عنه ، لاسيما المستجير الخائف : فأنه أهلٌ لأن يؤمّن .

قال ملك البوم لوزير آخر من وزرائه : ماتقول فىالغراب ؟ قال : أرى أن تستبقيه وتحسنَ اليه : فأنه خليق أن ينصحك . والعاقل يرى معاداة بعض أعدائه بعضا ظفرا حسنا ؛ ويرى اشتغال بعض الأعداء ببعض خلاصا لنفسه منهم ، ونجاة كنجاة الناسك من اللص والشيطان حين اختلفا عليه . قال الملك له : وكيف كان ذلك ؟

قال الوزير : زعموا أن ناسكا أصاب من رجل بقرة حلوبا ، فانطلق بها يقودها الى منزله ، فعرض له لصّ أراد سرقتَها ، واتبعه شيطان يريد اختطافه . فقال الشيطان للص : من أنت ؟ قال : أنا اللص ؛ أريد أن أسرق هذه البقرةَ من الناسك اذا نام . فمن أنت؟ قال : أنا الشيطان أريد اختطافه اذا نام وأذهب به . فانتهيا على هذا الى المنزل ، فدخل الناسك منزله ، ودخلا خلفه ، وأدخل البقرة فربطها فى زاوية المنزل ، وتعشى ونام . فأقبل اللص والشيطان يأتمران فيه ، واختلفا على من يبدأ بشغله أولا : فقال الشيطان للص : ان أنت بدأت بأخذ البقرة فربما استيقظ وصاح ، واجتمع الناس : فلا أقدر على أخذه . فأنظرنى ريثما آخذه ، وشأنك وما تريد . فأشفق

اللص ان بدأ الشيطان باختطافه فربما استيقظ ، فلا يقدر على أخذ البقرة . فقال : لا ، بل أنظرني أنت حتى آخذ البقرة ، وشأنك وما تريد . فلم يزالا في المجادلة هكذا ، حتى نادى اللص : أيها الناسك انتبه : فهذا الشيطان يريد اختطافك ، ونادى الشيطان : ايها الناسك انتبه : فهذا اللص يريد أن يسرق بقرتك . فانتبه الناسك وجيرانه بأصواتهما ، وهرب الخبيثان . قال الوزير الاول الذي أشار بقتل الغراب : أظن أن الغراب قد خدعكن ، ووقع كلامه في نفس الغبي منكن موقعه ؛ فتردن أن تضعن الرأي في غير موضعه . فمهلا مهلا أيها الملك عن هذا الرأي . فلم يلتفت الملك الى قوله وأمر بالغراب أن يحمل الى منازل البوم ، ويكرم ويستوصى به خيراً .

ثم ان الغراب قال للملك يوما ، وعنده جماعة من البوم ، وفيهن الوزير الذي أشار بقتله : أيها الملك ، قد علمت ما جرى على من الغربان ؛ وأنه لا يستريح قلبي دون أخذي بثاري منهن ؛ وانى قد نظرت في ذلك ، فاذا بي لا أقدر على مارمت : لأني غراب . وقد روى عن العلماء أنهم قالوا : من طابت نفسه بأن يحرقها ، فقد قرب لله أعظم القربان . لا يدعو عند ذلك بدعوة الا استجيب له (١) . فان رأى الملك أن يأمرني فأحرق نفسي ، وأدعو ربي أن يحولني بوما ، فأكون أشد عداوة وأقوى بأسا على الغربان، لعلي انتقم منهن ! قال الوزير الذي أشار بقتله : ما أشبهك في خير ما تظهر وشر ما تخفي الا بالخمرة الطيبة الطعم والريح المنقع فيها السم . أرأيت لو أحرقنا جسمك بالنار كان جوهرك وطباعك متغيرة ! أليست أخلاقك تدور معك حيثما

(١) هذا في اعتقاد الهنود الذين لم يستضيئوا بنور الاسلام

درت ، وتصير بعد ذلك الى أصلك وطويتك ؟ كالفأرة التى خيرت فى الأزواج بين الشمس والريح والسحاب والجبل فلم يقع اختيارها الا على الجرذ . قيل له : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان ناسك مستجاب الدعوة ؛ فبينما هو ذات يوم جالس على ساحل البحر ، اذ مرت به حدأة فى رجلها درص[1] فأرة . فوقعت منها عند الناسك ، وأدركته لها رحمة ، فأخذها ولفها فى ورقة ، وذهب بها الى منزله ؛ ثم خاف أن تشق على أهله تربيتها ، فدعا ربه أن يحولها جارية : فتحولت جارية حسناء . فانطلق بها الى امرأته ، فقال لها : هذه ابنتى ، فاصنعى معها صنيعك بولدى . فلما كبرت قال لها الناسك : يا بنية اختارى من أحببت حتى أزوجك به . فقالت ، أما اذا خيرتنى فانى أختار زوجا يكون أقوى الأشياء . فقال الناسك لعلك تريدين الشمس ! ثم انطلق الى الشمس فقال : أيها الخلق العظيم ، لى جارية ، وقد طلبت زوجا يكون أقوى الأشياء ، فهل أنت متزوجها ؟ فقالت الشمس : أنا أدلك على من هو أقوى منى : السحاب الذى يغطينى ، ويرد حر شعاعى ، ويكسف أشعة أنوارى . فذهب الناسك الى السحاب فقال له ما قال للشمس ، فقال السحاب : وأنا أدلك على من هو أقوى منى : فاذهب الى الريح التى تقبل بى وتدبر ، وتذهب بى شرقا وغربا . فجاء الناسك الى الريح فقال لها كقوله للسحاب . فقالت : وأنا أدلك على من هو أقوى منى ، وهو الجبل الذى لا أقدر على تحريكه . فمضى الى الجبل فقال له القول المذكور . فأجابه الجبل وقال له : أنا أدلك على من هو

(١) ولد الفأرة

أقوى مني : الجرذ الذى لاأستطيع الامتناع منه إذا ثقبنى ، واتخذنى مسكنا . فانطلق الناسك الى الجرذ فقال له : هل أنت متزوّج هذه الجارية ؟ فقال : وكيف أتزوجها وجحرى ضيق ؟ وانما يتزوّج الجرذ الفأرة . فدعا الناسك ربه أن يحوّلها فأرة كما كانت ، وذلك برضا الجارية ، فأعادها الله الى عنصرها الأول فانطلقت مع الجرذ ؛ فهذا مثلك ، أيها المخادع . فلم يلتفت ملك البوم الى ذلك القول ، ورفق بالغراب ، ولم يزدد له الا اكراما ؛ حتى اذا طاب عيشه ، ونبت ريشه ؛ واطلع على ما أراد أن يطلع عليه ، راغ روغة ، فأتى أصحابه بما رأى وسمع . فقال للملك : انى قد فرغت مما كنت أريد ، ولم يبق الا أن تسمع وتطيع قال له : أنا والجند تحت أمرك ، فاحتكم كيف شئت .

قال الغراب : انّ البوم بمكان كذا ، فى جبل كثير الحطب ، وفى ذلك الموضع قطيع من الغنم ، مع رجل راع ؛ ونحن مصيبون هناك نارا ، ونلقيها فى أنقاب(١) البوم ، ونقذف عليها من يابس الحطب ، ونتراوح عليها ضربا بأجنحتنا ، حتى تضطرم النار فى الحطب : فمن خرج منهن احترق ، ومن لم يخرج مات بالدخان موضعه . ففعل الغربان ذلك : فأهلكن البوم قاطبة ، ورجعن الى منازلهنّ سالمات آمنات

ثمّ انّ ملك الغربان قال لذلك الغراب : كيف صبرت على صحبة البوم ، ولا صبر للاخيار على صحبة الأشرار ؟ فقال الغراب : انّ ما قلته ، أيها الملك ، لكذلك . ولكن العاقل اذا أتاه الأمر الفظيع العظيم الذى

(١) جمع نقب أو نقب بمعنى الثقب أو الطريق والمراد بها مساكن البوم

يخاف من عدم تحمله(١) الجائحة على نفسه وقومه ، لم يجزع من شدة الصبر عليه ، لما يرجو من أن يعقبه صبره حسن العاقبة ، وكثير الخير ؛ فلم يجد لذلك ألما ، ولم تكره نفسه الخضوع لمن هو دونه ، حتى يبلغ حاجته . فيغتبط بخاتمة أمره ، وعاقبة صبره . فقال الملك : أخبرنى عن عقول البوم : قال الغراب : لم أجد فيهن عاقلا الا الذى كان يحثهن على قتلى ، وكان حرضهن على ذلك مرارا ، فكن أضعف شئ رأيا ! فلم ينظرن فى أمرى ، ويذكرن أنى قد كنت ذا منزلة فى الغربان ، وانى أعد من ذوى الرأى ، ولم يتخوفن مكرى وحيلتى. ولا قبلن من الناصح الشفيق ، ولا أخفين دونى اسرارهن . وقد قال العلماء : ينبغى للملك أن يحصن أموره من أهل النميمة ، ولا يطلع أحدا منهم على مواضع سره . فقال الملك : ما أهلك البوم فى نفسى الا البغى، وضعف رأى الملك : وموافقته وزراء السوء . فقال الغراب : صدقت أيها الملك ، انه قلما ظفر أحد بغنى ولم يطغ ، وقل من أكثر الطعام الا مرض . وقل من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع فى المهالك . وكان يقال : لا يطمعن ذو الكبر فى حسن الثناء ، ولا الخب فى كثرة الصديق ، ولا السيئ الأدب فى الشرف ، ولا الشحيح فى البر ، ولا الحريص فى قلة الذنوب ، ولا الملك المختال ، المتهاون بالأمور ، الضعيف الوزراء فى ثبات ملكه ، وصلاح رعيته . قال الملك : لقد احتملت مشقة شديدة فى تصنعك للبوم وتضرعك لهن . قال الغراب : انه من احتمل مشقة يرجو نفعها ، ونحى عن نفسه الانفة والحمية ، ووطنها على الصبر ، حمد غب(٢) رأيه ، كما صبر الأسود على حمل ملك الضفادع على ظهره :

(١) الشدة المهلكة (٢) عاقبة

وشبع بذلك وعاش . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الغراب : زعموا أن أسود من الحيّات كَبِرَ ، وضعف بصره . وذهبت قوّته : فلم يستطع صيدا ، ولم يقدر على طعام ؛ وأنه انساب يلتمس شيئا يعيش به ، حتى انتهى الى عين كثيرة الضفادع ، قد كان يأتيها قبل ذلك ، فيصيب من ضفادعها رزقه ، فرمى نفسه قريبا منهنّ ، مظهرا للكآبة والحزن . فقال له ضفدع[1]: مالى أراك ، أيها الأسود ، كئيبا حزينا ؟ قال ومن أحرى بطول الحزن مني ! وإنما كان أكثر معيشتي مما كنت أصيب من الضفادع ، فابتليت ببلاء ، وحرمت على الضفادع من أجله ؛ حتى انى اذا التقيت ببعضها ، لا أقدر على امساكه . فانطلق الضفدع الى ملك الضفادع ، فبشره بما سمع من الأسود . فأتى ملك الضفادع الى الأسود . فقال له : كيف كان أمرك ؟ قال : سعيت منذ أيام فى طلب ضفدع . وذلك عند المساء ؛ فاضطررته الى بيت ناسك ، ودخلت فى أثره فى الظلمة ؛ وفى البيت ابن للناسك ، فأصبت اصبعه ؛ فظننت أنها الضفدع ؛ فلدغته فمات . فخرجت هاربا ، فتبعني الناسك فى أثرى ، ودعا علىّ ، ولعنني . وقال : كما قتلت ابنى البرىء ظلما وتعديا ، أدعو عليك أن تذلّ وتصير مركبا لملك الضفادع ، فلا تستطيع أخذها ، ولا أكل شيء منها ، الا ما يتصدق به عليك ملكها . فاتيت اليك لتركبنى ، مقرا بذلك ، راضيا به . فرغب ملك الضفادع فى ركوب الأسود ، وظن أن ذلك فخر له وشرف ، ورِفْعَة ، فركبه واستطاب ذلك . فقال له

(١) بكسر أوله وثالثه أو فتحهما أو ضم الاول وفتح الثلث الواحدة بها . والجمع ضفادع

الأسود ، قد علمت أيها الملك أنى محروم، فاجعل لى رزقا أعيش به. قال ملك الضفادع : لعمرى لا بد لك من رزق يقوم بك ، اذ كنت مركبي . فأمر له بضفدعين يؤخذان فى كل يوم ، ويدفعان اليـه . فعاش بذلك ، ولم يضره خضوعه للعـدو الذليل ؛ بل انتفع بذلك ، وصار له رزقا ومعيشة . وكذلك كان صبرى على ماصبرت عليـه ، التماسا لهذا النفع العظيم الذى اجتمع لنا فيه الأمن والظفر ، وهلاك العدو والراحة منه. وجدت صُرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالا للعدو من صرعة المكابرة : فان النار لا تزيد بحدتها وحرها اذا أصابت الشجرة على أن تحرق مافوق الأرض منها . والماء ببرده ولينه يستأصل ماتحت الأرض منها . ويقال أربعة أشياء لا يستقل قليلها : النار والمرض والعدو والدَّين . قال الغراب : وكل ذلك كان من رأى الملك وأدبه وسعادة جَـده . وانه كان يقال : اذا طلب اثنان أمرا ظفر به منهما أفضلهما مروءة. فان اعتدلا فى المروءة، فأشدهما عزما . فان استويا فى العزم ، فأسعدهما جَدا . وكان يقال : من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع الذى لا تبطره السراء ، ولا تدهشه الضراء ، كان هو داعى الحتف الى نفسه ، ولا سيما اذا كان مثلك ، أيها الملك العالم بفروض الأعمال ، ومواضع الشدة واللين ، والغضب والرضا ، والمعاجلة والأناة ؛ الناظر فى أمر يومه وغده ، وعواقب أعماله . قال الملك للغراب: بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويُمن طالعك كان ذلك: فان رأى الرجل الواحد ، العاقل الحازم ، أبلغ فى هلاك العدو من الجنود الكثيرة ، من ذوى البأس والنجدة ، والعدد والعدة . وان من عجيب أمرك عنـدى طول لبثك بين ظهرانى البوم : تسمع الكلام

الغليظ ، ثم لم تسقط بينهن بكلمة ! قال الغراب : لم أزل متمسكا بأدبك ، أيها الملك : أصحب البعيد والقريب، بالرفق واللين ، والمبالاة والمؤاتاة . قال الملك : أصبحت وقد وجدتك صاحب العمل ، ووجدت غيرك من الوزراء أصحاب أقاويل : ليس لها عاقبة حميدة : فقد من الله علينا بك منة عظيمة لم نكن قبلها نجد لذة الطعام ولا الشراب ، ولا النوم ولا القرار . وكان يقال : لا يجد المريض لذة الطعام والنوم حتى يبرأ ؛ ولا الرجل الشره الذى قد أطمعه سلطانه فى مال وعمل فى يده ، حتى ينجزه له ؛ ولا الرجل الذى قد ألح عليه عدوه ، وهو يخافه صباحا ومساء ، حتى يستريح منه قلبه . ومن وضع الحمل الثقيل عن يديه أراح نفسه . ومن أمن عدوه ثلج[1] صدره .

قال الغراب : أسأل الله الذى أهلك عدوك أن يمتعك بسلطانك، وأن يجعل فى ذلك صلاح رعيتك ، ويشركهم فى قرة العين بملكك ! فان الملك اذا لم يكن فى ملكه قرة عيون رعيته ، فمثله مثل زنمة[2] العنز التى يمصها ، وهو يحسبها حلمة الضرع ، فلا يصادف فيها خيرا . قال الملك : أيها الوزير الصالح ، كيف كانت سيرة البوم وملكها ، فى حروبها ، وفيما كانت فيه من أمورها ؟ قال الغراب : كانت سيرته سيرة بطر ، وأشر وخيلاء ، وعجز ، وفخر ، مع ما فيه من الصفات الذميمة . وكل أصحابه ووزرائه شبيه به ، الا الوزير الذى كان يشير عليه بقتلى : فانه كان حكيما أريبا ، فيلسوفا حازما عالما ، قلما يرى مثله فى علو الهمة ، وكمال العقل ، وجودة الرأى . قال الملك : وأى خصلة رأيت منه كانت أدل على عقله ؟ قال : خلتان : احداهما رأيه

(١) اطمأن (٢) قطعة لحم تتدلى من عنقه

فى قتلى ، والأخرى أنه لم يكن يكتم صاحبه نصيحته ، وان استقلها ؛ ولم يكن كلامه كلام عنف وقسوة ، ولكنه كلام رفق ولين ، حتى انه ربما أخبره ببعض عيوبه ، ولا يصرح بحقيقة الحال ؛ بل يضرب له الأمثال ، ويحدثه بعيب غيره ، فيعرف عيبه . فلا يجد ملكه الى الغضب عليه سبيلا . وكان مما سمعته يقول لملكه : انه لاينبغى للملك أن يغفل عن أمره : فانه أمر جسيم ، لايظفر به من الناس الاقليل ، ولا يدرك الا بالحزم ؛ فان الملك عزيز : فمن ظفر به فليحسن حفظه وتحصينه : فانه قد قيل : انه فى قلة بقائه بمنزلة قلة بقاء الظل عن ورق النيلوفر ؛ وهو فى خفة زواله ، وسرعة اقباله وادباره كالريح ؛ وفى قلة ثباته كاللبيب مع اللئام ؛ وفى سرعة اضمحلاله كحباب الماء من وقع المطر . فهذا مثل أهل العداوة الذين لا ينبغى أن يغتر بهم ؛ وان هم أظهروا توددا وتضرعا . (انقضى باب البوم والغربان)

باب القرد والغيلم (١)

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل، فاضرب لى مثل الرجل الذى يطلب الحاجة ، فاذا ظفر بها ، أضاعها . قال الفيلسوف : انَّ طلب الحاجة أهونُ من الاحتفاظ بها ، ومن ظفر بحاجة ثم لم يحسن القيام بها ، أصابه ما أصاب الغيلم . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أن قردا يقال له ماهر ، كان ملك القِرَدة ، وكان قد كبر وهرم ، فوثب عليه قرد شاب من بيت المملكة ، فتغلب عليه ،

(١) السلحفاة الذكر .

وأخذ مكانه . فخرج هاربا على وجهه ، حتى انتهى الى الساحل ، فوجد شجرة من شجر التين ، فارتقى اليها وجعلها مقامه . فبينما هو ذات يوم يأكل من ذلك التين، اذ سقطت من يده تينة فى الماء، فسمع لها صوتا وايقاعا ، فجعل يأكل ويرمى فى الماء ، فأطربه ذلك : فأكثر من طرح التين فى الماء ، وثمَّ غيلم ، كلما وقعت تينة أكلها . فلما كثر ذلك ، ظن أن القرد انما يفعل ذلك لأجله ، فرغب فى مصادقته ، وأنس اليه ، وكلمه ، وألف كل واحد منهما صاحبه . وطالت غيبة الغيلم عن زوجته : فجزعت عليه ، وشكت ذلك الى جارة لها ، وقالت : قد خفت أن يكون قد عرض له عارض سوء فاغتاله . فقالت لها : ان زوجك بالساحل قد ألف قردا وألفه القرد: فهو مؤاكله ومشاربه ، وهو الذى قطعه عنك ، ولا يقدر أن يقيم عندكِ حتى تحتالى لهلاك القرد . قالت : وكيف أصنع ؟ . قالت جارتها : اذا وصل اليكِ فتمارضى ، فاذا سألكِ عن حالكِ فقولى : ان الحكماء وصفوا لى قلب قرد . ثم ان الغيلم انطلق بعد مدة الى منزله ، فوجد زوجته سيئة الحال مهمومة، فقال لها الغيلم : مالى أراكِ هكذا ؟ فاجابته جارتها ، وقالت : ان زوجتكَ مريضة مسكينة ، وقد وصف لها الأطباء قلب قرد ، وليس لها دواء سواه . قال الغيلم ؟ هذا أمر عسير . من أين لنا قلب قرد ، ونحن فى الماء ؟ لكن سأحتال لصديقى . ثم انطلق الى ساحل البحر : فقال له القرد يا أخى ، ما حبسك عنى ؟ قال له الغيلم : ما حبسنى عنك الا حيائى : فلم أعرف كيف أجازيك على احسانك الىّ ؟ وأريد أن تتم احسانك الىّ بزيارتك لى فى منزلى: فانى ساكن فى جزيرة طيبة الفاكهة . فاركب ظهرى لأسبح بك .

فرغب القرد فى ذلك ، ونزل فركب ظهر الغيلم ، فسبح به ، حتى اذا سبح به ، عرض له قبح ما أضمر فى نفسه من الغدر ، فنكس رأسه؛ فقال له القرد : مالى أراك مهتما ؟ قال الغيلم : انما همى لانى ذكرت أن زوجتى شديدة المرض ، وذلك يمنعنى من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك . قال القرد : ان الذى أعرف من حرصك على كرامتى يكفيك مؤونة التكلف . قال الغيلم : أجل . ومضى بالقرد ساعة ، ثم توقف به ثانية : فساء ظن القرد وقال فى نفسه : مااحتباس الغيلم وابطاؤه الا لأمر! ولست آمنا أن يكون قلبه قد تغير لى، وحال عن مودتى ، فأراد بى سوءا : فانه لا شىء أخف وأسرع تقلبا من القلب . وقد يقال : ينبغى للعاقل ألا يغفل عن التماس مافى نفس أهله وولده واخوانه وصديقه ، عند كل أمر ، وفى كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حال: فان ذلك كله يشهد على مافى القلوب. وقد قالت العلماء : اذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفظ منه ، وليتفقد ذلك فى لحظاته وحالاته : فان كان مايظن حقا ظفر بالسلامة؛ وان كان باطلا ظفر بالحزم، ولم يضره ذلك ؛ ثم قال للغيلم : ما الذى يحبسك ؟ ومالى أراك مهتما ، كأنك تحدث نفسك مرة أخرى ؟ قال : يهمنى أنك تأتى منزلى فلا تجد أمرى كما أحب : لأن زوجتى مريضة . قال القرد : لا تهتم ، فان الهم لا يغنى عنك شيئا . ولكن التمس مايصلح زوجتك من الأدوية والأغذية : فانه يقال : ليبذل ذو المال ماله فى أربعة مواضع : فى الصدقة ، وفى وقت الحاجة ، وعلى البنين ، وعلى الأزواج . قال الغيلم : صدقت. وقد قالت الأطباء : انه لا دواء لها الا قلب قرد . فقال القرد فى

نفسه : وا أسفاه ! لقد أدركني الحرص والشره على كبر سني : حتى وقعت فى شر ورطة ! ولقد صدق الذى قال : يعيش القانع الراضي مستريحا مطمئنا،وذو الحرص والشره يعيش ماعاش فى تعب ونصب؛ وانى قد احتجت الآن الى عقلى فى التماس المخرج مما وقعت فيه . ثم قال للغيلم: وما منعك أن تعلمنى عند منزلى ، حتى كنتُ أحمل قلبي معى؟ فهذه سنة فينا، معاشر القردة ، اذا خرج أحدنا لزيارة صديق، خلف قلبه عندأهله، أو فى موضعه، لننظر اذا نظرنا الى حُرم المزور وليس قلوبنا معنا . قال الغيلم : وأين قلبك الآن ؟ قال : خلفته فى الشجرة . فان شئت فارجع بى الى الشجرة ، حتى آتيك به . ففرح الغيلم بذلك . وقال : لقد وافقنى صاحبي بدون أن أغدر به . ثم رجع بالقرد الى مكانه . فلما قارب الساحلَ ، وثب عن ظهره ، فارتقى الشجرة . فلما أبطأ على الغيلم ، ناداه : ياخليلى ، احمل قلبك وانزل ، فقد حبستنى . فقال القرد : هيهات ! أتظن أنى كالحمار الذى زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب ولا أذنان ؟ قال الغيلم : وكيف كان ذلك ؟

قال القرد : زعموا أنه كان أسد فى أجمة ، وكان معه ابن آوى يأكل من فواضل طعامه ، فأصاب الأسد جربٌ ، وضعف شديد، وجهد ؛ فلم يستطع الصيد . فقال له ابن آوى : ما بالك ، يا سيد السباع ، قد تغيرت أحوالك ؟ قال : هذا الجرب قد أجهدنى ، وليس له دواء إلا قلب حمار وأذناه . قال ابن آوى : ما أيسرَ هذا ! وقد عرفت بمكان كذا حماراً مع قصار(١) يحمل عليه ثيابه ، وأنا آتيك به ، ثم دلف(٢) الى الحمار فأتاه وسلم عليه فقال له : ما لى أراك

(١) محور الثياب (٢) معناه هنا تقدم

مهزولا ؟ قال ما يطعمني صاحبي شيئاً . فقال له : وكيف ترضى المقام معه على هـذا ؟ قال : فما لي حيلة في الهرب منه ، لست أتوجه الى جهة الا أضرَّ بي إنسان فكدّني وأجاعني . قال ابن آوى : فأنا أدلك على مكان معزول عن الناس ، لا يمرّ به انسان ، خصيب(١) المرعى ، فيه قطيع من الحمر لم تر عينٌ مثلها حسنا وسمنا . قال الحمار : وما يحبسنا عنها ؟ فانطلق بنا اليها ، فانطلق به ابن آوى نحو الأسد ، وتقدم ابن آوى ، ودخل الغابة على الأسد ، فأخبره بمكان الحمار . فخرج اليه وأراد أن يثب عليه ، فلم يستطع لضعفه ، وتخلص الحمار منه . فأفلت هلعاً(٢) على وجهه . فلما رأى ابن آوى أن الأسد لم يقدر على الحمار ، قال له : أعجزت يا سيد السباع الى هـذه الغاية ؟ فقال له : إن جئتني به مرة أخرى ، فلن ينجو مني أبدا . فمضى ابن آوى الى الحمار فقال له : ما الذي جرى عليك ؟ ان أحد الحمر رآك غريباً ، فخرج يتلقاك مرحبا بك ، ولو ثبت له لآنسك ، ومضى بك الى أصحابه . فلما سمع الحمار كلام ابن آوى ، ولم يكن رأى أسدا قط ، صدقه ، وأخذ طريقه الى الأسد ، فسبقه ابن آوى الى الأسد ، وأعلمه بمكانه . وقال له : استعد له ، فقد خدعته لك : فلا يدركنك الضعف في هذه النوبة : فانه ان أفلت فلن يعودَ معي أبداً . فجاش(٣) جأش الأسد لتحريض ابن آوى له ، وخرج الى موضع الحمار . فلما بصر به عاجله بوثبة افترسه بها . ثم قال : قد ذَكَرَتْ الأطباءُ أنه لا يؤكَل الا بعد الغسل والطهور : فاحتفظ به حتى أعود فآكل قلبه وأذنيه ، وأترك ماسوى ذلك قوتاً لك . فلما ذهب الأسد ليغتسل ،

(١) كثير (٢) الهلع أفحش الجزع (٣) غلى والجأش وقد لايهمز من معانيه النفس

عمد ابن آوى الى الحمار فأكل قلبه وأذنيه ، رجاء أن يتطير الأسد منه ، فلا يأكل منه شيئاً . ثم ان الأسد رجع الى مكانه ، فقال لابن آوى : أين قلب الحمار وأذناه ؟ قال ابن آوى : ألم تعلم أنه لو كان له قلب يفقه به ، وأذنان يسمع بهما ، لم يرجع اليك بعد ما أفلت ونجا من الهلكة :

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنى لست كذلك الحمار الذى زعم ابن آوى أنه لم يكن له قلب وأذنان ، ولكنك احتلتَ علىّ ، وخدعتنى ، فخدعتك بمثل خديعتك ، واستدركت فارط امرى . وقد قيل : إن الذى يفسده الحلم لا يصلحه إلا العلم . قال الغيلم : صدقت ، إلا أن الرجل الصالح يعترف بزلته ، وإذا أذنب ذنبا لم يستحى أن يؤدب : لصدقه فى قوله وفعله ؛ وإن وقع فى ورطة أمكنه التخلص منها بحيلته وعقله : كالرجل الذى يعثر على الأرض ؛ ثم ينهض عليها معتمدا . فهذا مثل الرجل الذى يطلب الحاجة فاذا ظفر بها أضاعها . (انقضى باب القرد والغيلم)

باب الناسك وابن عِرْس

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف: قد سمعت هذا المثل . فاضرب لى مثل الرجل العجلان فى أمره ، من غير روية ولا نظر فى العواقب . قال الفيلسوف : إنه من لم يكن فى أمره متثبتا ، لم يزل نادما ، ويصير أمره إلى ما صار اليه الناسك من قتل ابن عِرس ، وقد كان له ودودا . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ناسكا من النساك كان بأرض جرجان(١) وكانت له امرأة جميلة، فمكثا زمانا لم يرزقا ولدا، ثم حملت منه بعد الاياس. فسرّت المرأة وسرّ الناسك بذلك، فحمد الله تعالى، وسأله أن يكون الحمل ذكرا. وقال لزوجته: أبشري: فاني أرجو أن يكون غلاما، لنا فيه منافع، وقرّة عين، أختار له أحسن الأسماء، وأحضر له سائر الأدباء. فقالت المرأة: ما يحملك أيها الرجل على أن تتكلم بما لا تدرى أيكون أم لا؟ ومن فعل ذلك أصابه ما أصاب الناسك الذى أراق على رأسه السمن والعسل. قال لها: وكيف كان ذلك؟

قالت: زعموا أنّ ناسكا كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر، فى كلّ يوم، رزق من السمن والعسل، وكان يأكل منه قوته وحاجته، ويرفع الباقى، ويجعله فى جرّة، فيعلقها فى وتد فى ناحية البيت، حتى امتلأت. فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره، والعكازة فى يده، والجرّة معلقة على رأسه، تفكر فى غلاء السمن والعسل، فقال: سأبيع ما فى هذه الجرّة بدينار، وأشترى به عشرة أعنز؛ فيحبلن ويلدن فى كلّ خمسة أشهر بطنا، ولا تلبث إلا قليلا حتى تصير غنما كثيرة، اذا ولدت أولادها؛ ثم حرّر على هذا النحو بسنين فوجد ذلك أكثر من أربعمائة عنز؛ فقال: أنا أشترى بها مائة من البقر، بكلّ أربعة أعنز ثورا أو بقرة؛ وأشترى أرضا وبذرا؛ وأستأجر أكرة (٢) وأزرع على الثيران، وأنتفع بألبان الاناث ونتاجها: فلا يأتى علىّ خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع مالا كثيرا: فأبنى

(١) بلد بفارس (٢) جمع أكار وهو الحراث

بيتا فاخرا ؛ وأشترى إماء وعبيدا ؛ وأتزوّج امرأة جميلة ، ذات حسن ؛ ثمّ تأتى بغلام سرىّ نجيب ، فأختار له أحسن الاسماء ؛ فاذا ترعرع أدّبته ، وأحسنت تأديبه ، وأشدد عليه فى ذلك ، فان يقبل منى ، وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده الى الجرّة فكسرها ، فسال ما كان فيها على وجهه . وإنما ضربت لك هذا المثل لكى لا تعجل بذكر مالا ينبغى ذكره، ومالا تدرى أيصحّ أم لا يصح . فاتعظ الناسك بما حكت زوجته . ثم إن المرأة ولدت غلاما جميلا ، ففرح به أبوه . وبعد أيام حان لها أن تتطهر فقالت المرأة للناسك : اقعد عند ابنك حتى أذهب الى الحمام فأغتسل وأعود . ثم انها انطلقت الى الحمام ، وخلفت زوجها والغلام . فلم يلبث أن جاءه رسول الملك يستدعيه ، ولم يجد من يخلفه عند ابنه ، غير ابن عرس داجن(١) عنده ، كان قد رباه صغيرا : فهو عنده عديل ولده . فتركه الناسك عند الصبيّ ، وأغلق عليهما البيت ، وذهب مع الرسول . فخرج من بعض أجحار البيت حية سوداء ، فدنت من الغلام ، فضربها ابن عرس ، ثم وثب عليها فقتلها ، ثم قطعها وامتلأ فمه من دمها . ثم جاء الناسك ، وفتح الباب ، فالتقاه ابن عرس ، كالمبشر له بما صنع من قتل الحية . فلما رآه ملوّثا بالدم ، وهو مذعور ، طار عقله ، وظنّ أنه قد خنق ولده . ولم يتثبت فى أمره، ولم يترو فيه ، حتى يعلم حقيقة الحال ، ويعمل بغير ماظنّ من ذلك . ولكن عجل على ابن عرس، وضربه بعكازة كانت فى يده، على أمّ رأسه ، فمات . ودخل الناسك فرأى الغلام سليما حيا ، وعنده أسود مقطع . فلما

(١) آلف

عرف القصة ، وتبين له سوء فعله فى العجلة ، لطم على رأسه . وقال : ليتنى لم أرزق هذا الولد ، ولم أغدر هذا الغدر ! ودخلت امرأته ، فوجدته على تلك الحال . فقالت له : ما شأنك ؟ فأخبرها بالخبر من حسن فعل ابن عرس وسوء مكافأته له . فقالت : هذه ثمرة العجلة ! فهذا مثل من لايتثبت فى أمره ، بل يفعل أغراضه بالسرعة والعجلة .

(انقضى باب الناسك وابن عرس)

باب الجرذ والسنور

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لى مثل رجل كثر أعداؤه ، وأحدقوا به من كل جانب ؛ فأشرف معهم على الهلاك ، فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته ، فسلم من الخوف وأمن ؛ ثم وفى لمن صالحه منهم . قال الفيلسوف : إن المودة والعداوة لاتثبتان على حالة واحدة أبدا . وربما حالت المودة الى العداوة ، وصارت العداوة ولاية وصداقة . ولهذا حوادث وعلل وتجارب ، وذو الرأى يحدث لكل مايحدث من ذلك رأيا جديدا : أما من قبل العدوّ فبالبأس ، وأما من قبل الصديق فبالاستئناس . ولا تمنع ذا العقل عداوة كانت فى نفسه لعدوّه من مقاربته والاستنجاد به على دفع مخوف أو جرّ مرغوب . ومن عمل فى ذلك بالحزم ظفر بحاجته . ومثل ذلك مثل الجرذ والسنور حين وقعا فى الورطة ، فنجوا باصطلاحهما جميعا من الورطة والشدة . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال بيدبا : زعموا أن شجرة عظيمة كان فى أصلها جحر سنور يقال له رومى ، وكان قريبا منه جحر جُرذ يقال له فريدون ، وكان الصيادون كثيرا يتداولون ذلك المكان ، يصيدون فيه الوحش والطير ؛ فنزل ذات يوم صياد ، فنصب حِبالته قريبا من موضع رومى ، فلم يلبث أن وقع فيها . فخرج الجرذ يدب ، ويطلب ما يأكل ، وهو حذر من رومى. فبينما هو يسعى إذ بصر به فى الشرك ، فسرّ واستبشر . ثم التفت فرأى خلفه ابن عرس ، يريد أخذه ؛ وفى الشجرة بوما ، يريد اختطافه ؛ فتحير فى أمره ، وخاف إن رجع وراءه أخذه ابن عرس ، وإن ذهب يمينا أو شمالا اختطفه البوم ، وإن تقدّم أمامه افترسه السنور . فقال فى نفسه : هذا بلاء قد اكتنفنى، وشرور تظاهرت علىّ، ومحن قد أحاطت بى . وبعد ذلك فمعى عقلى ، فلا يفزعنى أمرى ، ولا يهولنى شأنى ، ولا يلحقنى الدهش، ولا يذهب قلبى شعاعا: فالعاقل لا يفرَق[1] عند سداد رأيه ، ولا يعزُب عنه ذهنه على حال . وإنما العقل شبيه بالبحر الذى لا يُدرَك غوره . ولا يبلغ البلاء من ذى الرأى مجهوده : فيهلكه ، وتحقُّق الرجاء لا ينبغى أن يبلغ منه مبلغا يُبطِره ويُسكره : فيعمى عليه أمره . ولست أرى لى من هذا البلاء مَخلَصًا إلا مصالحةَ السنور : فانه قد نزل به من البلاء مثل ما قد نزل بى أو بعضه . ولعله ان سمع كلامه الذى أكلمه به ، ووعى عنى فصيح خطابى ، ومحض صدقى الذى لا خلاف فيه ، ولا خداع معه : ففهمه ، وطمع فى معونتى إياه ، نخلص جميعا

(١) يخاف

ثم ان الجرذ دنا من السنور فقال له : كيف حالك ؟ قال له السنور : كما تحب : فى ضنك وضيق . قال : وأنا اليوم شريكك فى البلاء ، ولست ارجو لنفسى خلاصا الا بالذى أرجو لك فيه الخلاص ؛ وكلامى هذا ليس فيه كذب ولا خديعة . وابن عرس هاهو كامن لى ، والبوم يرصدنى ، وكلاهما لى ولك عدو. فان جعلت لى الامان، قطعت حبائلك ، وخلصتك من هذه الورطة . فاذا كان ذلك تخلص كل واحد منا بسبب صاحبه : كالسفينة والركاب فى البحر : فبالسفينة ينجون ، وبهم تنجو السفينة . فلما سمع السنور كلام الجرذ، وعرف أنه صادق ، قال له : إنّ قولك هذا اشبيه بالحقّ ، وأنا أيضا راغب فيما أرجو لك ولنفسي به الخلاص . ثم إنك إن فعلت ذلك فسأشكرك ما بقيت . قال الجرذ : فانى سأدنو منك ، فأقطع الحبائل كلها إلا حبلا واحدا أبقيه لأستوثق لنفسى منك. ثم أخذ فى قرض حباله . ثم إنّ البوم وابن عرس لما رأيا دنوّ الجرذ من السنور أيسا منه ، وانصرفا . ثم إن الجرذ أبطأ على رومى فى قطع الحبائل ، فقال له : مالى لا أراك مجدّا فى قطع حبائلى ؟ فان كنت قد ظفرت بحاجتك : فتغيرتَ عما كنتَ عليه ، وتوانيت فى حاجتى ، فما ذلك من فعل الصالحين : فانّ الكريم لايتوانى فى حقّ صاحبه . وقد كان لك فى سابق مودّتى من العائدة والنفع ماقد رأيت . وأنت حقيق أن تكافئنى بذلك ، ولا تذكر العداوة التى بينى وبينك : فالذى حدث بينى وبينك من الصلح حقيق أن يُنْسِيَك ذلك ، مع مافى الوفاء من الفضل والأجر ، وما فى الغدر من سوء العاقبة : فان الكريم لايكون إلا شكورا غير حقود ، تنسيه الخلة الواحدة من الاحسان الخلال

الكثيرة من الاساءة . وقد يقال : إن أعجل العقوبة عقوبة الغدر . ومن إذا تضرّع اليه،وسئل العفو ، فلم يرحم ، ولم يعف ، فقد غدر ، قال الجرذ : إن الصديق صديقان : طائع ومضطر . وكلاهما يلتمسان المنفعة ، ويحترسان من المضرّة . فأما الطائع فيسترسل اليه ، ويؤمنُ في جميع الأحوال . وأما المضطر ففي بعض الأحوال يسترسل اليه ، وفي بعضها يتحذّر منه . ولا يزال العاقل يرتهن منه بعضَ حاجاته لبعض ما يتقي ويخاف. وليس عاقبة التواصل من المتواصل الا طلب عاجل النفع وبلوغ مأموله . وأنا وافٍ لك بما جعلت لك ، ومحترس منك مع ذلك ، من حيث أخافك : تخوفا أن يصيبني منك ما ألجأني خوفه الى مصالحتك ، وألجأك الى قبول ذلك مني : فأن لكلّ عمل حينا . فما لم يكن منه في حينه ، فلا حسن لعاقبته . وأنا قاطع حبائلك كلها ؛ غير أني تارك عقدة واحدة أرتهنك بها ، ولا أقطعها إلاّ في الساعة التي أعلم أنك فيها عني مشغول : وذلك عند معاينتي الصياد . ثم إن الجرذ أخذ في قطع حبائل السنور . فبينما هو كذلك اذ وافى الصياد ، فقال له السنور : الآن جاء الجدّ في قطع حبائلي . فأجهد الجرذ نفسه في القرض ؛ حتى اذا فرغ وثب السنور الى الشجرة على دَهشٍ من الصياد ، ودخل الجرذ بعض الأجحار ، وجاء الصياد فأخذ حبائله مقطعة ، ثم انصرف خائبا .

ثم ان الجرذ خرج بعد ذلك ، وكره أن يدنو من السنور ، فناداه السنور : أيها الصديق الناصح ، ذو البلاء الحسن عندي ، مامنعك من الدنو إليّ ، لأجازيك بأحسن ما أسديت إليّ ؟ هلم إليّ ، ولا تقطعْ إخائي : فانه من اتخذ صديقا ، وقطع اخاءه ، وأضاع صداقته،

حرم ثمرة اخائه ، وأيس من نفعه الاخوان والأصدقاء . وان يدك عندى لا تنسى ، وأنت حقيق أن تلتمس مكافأة ذلك منى ومن اخوانى وأصدقائى . ولا تخافن منى شيئا . واعلم أن ماقبلى لك مبذول . ثم حلف واجتهد على صدقه فيما قال . فناداه الجرذ : رب صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة . وهى أشد من العداوة الظاهرة . ومن لم يحترس منها ، وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم . ثم يغلبه النعاس ، فيستيقظ تحت فراسن(١) الفيل ، فيدوسه ويقتله . وانما سمى الصديق صديقا : لما يرجى من نفعه ، وسمى العدو عدوا : لما يخاف من ضرره . والعاقل اذا رجا نفع العدو أظهر له الصداقة ، واذا خاف ضر الصديق أظهر له العداوة . ألا ترى تتبع البهائم أمهاتها رجاء ألبانها ؛ فاذا انقطع ذلك انصرفت عنها . وربما قطع الصديق عن صديقه بعض ما كان يصله ، فلم يخف شره : لأن أصل أمره لم يكن عداوة . فأما من كان أصل أمره عداوة جوهرية ، ثم أحدث صداقة لحاجة حملته على ذلك ، فانه اذا زالت الحاجة التى حملته على ذلك ، زالت صداقته ، فتحولت عداوة ، وصار الى أصل أمره : كالماء الذى يسخن بالنار ، فاذا رفع عنها عاد باردا . وليس من أعدائى عدو أضر لى منك . وقد اضطرنى واياك حاجة الى ما أحدثنا من المصالحة . وقد ذهب الأمر الذى احتجت الى واحتجت اليك فيه وأخاف أن يكون مع ذهابه عود العداوة . ولا خير للضعيف فى قرب العدو القوى ، ولا للذليل فى قرب العدو العزيز . ولا أعلم لك قبلى حاجة ؛ الا أن تكون تريد أكلى ؛ ولا أعلم لى قبلك حاجة ،

(١) جمع فرسن وهو بمنزلة الحافر

وليس عندي بك ثقة : فاني قد علمت أن الضعيف المحترس من العدو القوي أقرب الى السلامة من القوي اذا اغتر بالضعيف واسترسل اليه . والعاقل يصالح عدوه اذا اضطر اليه ، ويصانعه ، ويظهر له ودّه ؛ ويريه من نفسه الاسترسال اليه اذا لم يجد من ذلك بدّا ؛ ثم يعجل الانصراف عنه ، حين يجد الى ذلك سبيلا . واعلم أنّ سريع الاسترسال لا تقال عثرته . والعاقل يفي لمن صالحه من أعدائه بما جعل له من نفسه ، ولا يثق به كل الثقة ، ولا يأمنه على نفسه من القرب منه . وينبغي أن يبعد عنه مااستطاع . وأنا أودّك من بعيد ، وأحبّ لك من البقاء والسلامة ، مالم أكن أحبه لك من قبل . ولا عليك أن تجازيني على صنيعي إلا بمثل ذلك : إذ لاسبيل الى اجتماعنا والسلام . (انقضى باب الجرذ والسنور)

باب ابن الملك والطائر فنزة

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لي مثل أهل الترات[1] الذين لابدّ لبعضهم من اتقاء بعض . قال بيدبا : زعموا أن ملكا من ملوك الهند كان يقال له بَرِيدُونُ وكان له طائر يقال له فنزة ، وكان له فرخ وكان هذا الطائر وفرخه ينطقان بأحسن منطق ، وكان الملك بهما معجبا . فأمر بهما أن يجعلا عند امرأته ، وأمرها بالمحافظة عليهما . واتفق أن امرأة الملك ولدت غلاما ، فألف الفرخ الغلام . وكلاهما طفلان يلعبان جميعا . وكان فنزة يذهب الى الجبل كلّ يوم ، فيأتي بفاكهة لاتعرف ، فيطعم ابن

(١) جمع ترة وهي الثأر

الملك شطرها ، ويطعم فرخه شطرها . فأسرع ذلك فى نشأتهما ، وزاد فى شبابهما ، وبان عليهما أثره عند الملك : فازداد لفنزة إكراما وتعظيما ومحبة ؛ حتى اذا كان يوم من الأيام وفنزة غائب فى اجتناء الثمرة ، وفرخه فى حجر الغلام ، ذرق فى حجره ؛ فغضب الغلام ، وأخذ الفرخ فضرب به الأرض : فمات . ثم إنّ فنزة أقبل فوجد فرخه مقتولا ، فصاح وحزن ، وقال : قبحا للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء ! ويل لمن ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حمية لهم ولا حرمة ، ولا يحبون أحدا ولا يكرُم عليهم إلا اذا طمعوا فيما عنده من غناء ، واحتاجوا الى ماعنده من علم : فيكرمونه لذلك ، فاذا ظفروا بحاجتهم منه ، فلا ودّ ، ولا اخاء ، ولا إحسان ، ولا غفران ذنب ، ولا معرفة حقّ ! هم الذين أمرهم مبنيّ على الرياء والفجور . وهم يستصغرون مايرتكبونه من عظيم الذنوب ، ويستعظمون اليسير اذا خولفت فيه أهواؤهم . ومنهم هـذا الكفور الذى لارحمة له ، الغادر بأليفه وأخيه . ثم وثب فى شدّة حنقه على وجه الغلام ففقأ عينه ، وطار فوقع على شرفة المنزل . ثم انه بلغ الملك ذلك ، فجزع أشدّ الجزع ، ثم طمع أن يحتال له ، فوقف قريبا منـه ، وناداه ، وقال له : انك آمن ، فانزل يافنزة . فقال له : أيها الملك ان الغادر مأخوذ بغدره ، وانه ان أخطأه عاجل العقوبة ، لم يخطئه الآجل ؛ حتى أنه يدرك الأعقاب وأعقاب الأعقاب وان ابنك غدر بابنى ، فعجلت له بالعقوبة . قال الملك : لعمرى قد غدرنا بابنك ، فانتقمت منا : فليس لك قبلنا ، ولا لنا قبلك وتر مطلوب . فارجع الينا آمنا . قال فنزة : لست براجع

اليك أبدا : فان ذوى الرأى قد نهوا عن قرب الموتور (١) فانه لايزيدك لطف الحقود ولينه وتكرمته اياك الا وحشة منه ، وسوء ظن به : فانك لا تجد للحقود الموتور أمانا هو أوثق لك من الذعر منه ، ولا أجود من البعد عنه ، والاحتراس منه أولى . وقد كان يقال : ان العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والاخوة رفقاء ، والأزواج ألفاء ، والبنين ذكرا ، والبنات خصماء ، والاقارب غرماء ؛ ويعد نفسه فريدا . وأنا الفريد الوحيد الغريب الطريد ، قد تزودت من عندكم من الحزن عبئا ثقيلا ، لايحمله معى أحد . وأنا ذاهب . فعليك منى السلام .

قال له الملك : إنك لم تكن اجتزيت (٢) منا فيما صنعناه بك ، بل كان صنيعك بنا من غير ابتداء منا بالغدر ، كان الأمر كما ذكرت . وأما إذ كنا نحن بدأناك ، فما ذنبك ؟ وما الذى يمنعك من الثقة بنا ؟ هلم فارجع : فانك آمن . قال فنزة : اعلم أن الأحقاد لها فى القلوب مواقع ممكنة موجعة . فالألسن لاتصدق فى خبرها عن القلوب ، والقلب أعدل شهادة من اللسان على القلب . وقد علمت أن قلبى لايشهد للسانك ، ولا قلبك للسانى . قال الملك : ألم تعلم أن الضغائن والأحقاد تكون بين كثير من الناس : فمن كان ذا عقل ، كان على إماتة الحقد أحرص منه على تربيته . قال فنزة : إن ذلك لكما ذكرت ؛ ولكن ليس ينبغى لذى الرأى مع ذلك أن يظن أن الموتور الحقود ناس ماوتر به ، ولا مصروف عنه فكره فيه . وذو الرأى يتخوف المكر والخديعة والحيل ، ويعلم أن كثيرا من العدو لايستطاع بالشدة

(١) من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه (٢) أدركت الجزاء

والمكابرة ؛ حتى يصاد بالرفق والملاينة : كما يصاد الفيل الوحشيّ بالفيل الداجن . قال الملك : إن العاقل الكريم لايترك إلفه، ولا يقطع إخوانه، ولا يضيع الحفاظ ، وان هو خاف على نفسه؛ حتى إن هذا الخلق يكون فى أوضع الدوابّ منزلة : فقد علمت أن اللعابين يلعبون بالكلاب ، ثم يذبحونها ويأكلونها . ويرى الكلب الذى قد ألفهم ذلك : فلا يدعوه الى مفارقتهم ، ولا يمنعه من ألفته إياهم . قال فنزة : ان الأحقاد مخوفة حيثما كانت . فأخوفها وأشدّها ما كان فى أنفس الملوك : فإن الملوك يدينون بالانتقام ، ويرون الدَّرَكَ والطلب بالوتر مكرمة وفخرا . وإن العاقل لايغترُّ بسكون الحقد اذا سكن فإنما مثل الحقد فى القلب ، اذا لم يجد محرّكا ، مثل الجمر المكنون ، مالم يجد حطبا ، فليس ينفكّ الحقد متطلعا الى العلل ، كما تبتغى النار الحطب : فإذا وجد علة استعر استعار النار : فلا يطفئه حسن كلام ، ولا لين ولا رفق ، ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ، ولا شئ دون تلف الأنفس . مع أنه ربّ واتر يطمع فى مراجعة الموتور بما يرجو أن يقدر عليه من النفع له ، والدفع عنه . ولكنى أنا أضعف عن أن أقدر على شيء يذهب به ما فى نفسك . ولو كانت نفسك منطوية لى على ماتقول ما كان ذلك عنى مغنيا . ولا أزال فى خوف وَوَحشة ، وسوء ظنّ ، ما اصطحبنا . فليس الرأى بينى و بينك الاّ الفراق . وأنا أقرأ عليك السلام .

قال الملك : لقد علمت أنه لايستطيع أحد لأحد ضرّا ولا نفعا ؛ وأنه لاشئ من الأشياء صغيرا ولا كبير ، يصيب أحدا ، الاّ بقضاء وقدر معلوم . وكما أن خلق ما يخلق ، وولادة ما يولد ، و بقاء ما يبقى

ليس الى الخلائق منه شيء ؛ كذلك فناء مايفني ، وهلاك مايهلك. وليس لك في الذي صنعت بابني ذنب ؛ ولا لابني فيما صنع بابنك ذنب . انما كان ذلك كله قدرا مقدورا ، وكلانا له علة : فلا نؤاخذ عما أتانا به القدر . قال فنزة : ان القدر لكما ذكرت ، لكن لايمنع ذلك الحازم من توقي المخاوف ، والاحتراس من المكاره . ولكنه يجمع تصديقا بالقدر وأخذا بالحزم والقوة . وأنا أعلم أنك تكلمني بغير مافي نفسك . والأمر بيني و بينك غير صغير : لأن ابنك قتل ابني ، وأنا فقأت عين ابنك ، وأنت تريد أن تشتفي بقتلي ، وتختلني عن نفسي ؛ والنفس تأبي الموت . وقد كان يقال : الفاقة بلاء ، والحزن بلاء ، وقرب العدوّ بلاء ، وفراق الأحبة بلاء ، والسقم بلاء ، والهرم بلاء ؛ ورأس البلايا كلها الموت . وليس أحد بأعلم بما في نفس الموجع الحزين ممن ذاق مثل مابه . فأنا بما في نفسي عالم بما في نفسك : للمثل الذي عندي من ذلك . ولا خير لي في صحبتك : فإنك لن تتذكر صنيعي بابنك ، ولن أتذكر صنيع ابنك بابني ، الا أحدث ذلك لقلوبنا تغييرا .

قال الملك ، لاخير فيمن لايستطيع الاعراض عمّا في نفسه ، وينساه ويهمله ، حتى لايذكر منه شيئا ، ولا يكون له في نفسه موقع . قال فنزة : إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة ، إن هو حرص على المشي ، فلا بدّ أنه لايزال يشتكي قرحته . والرجل الأرمد العين اذا استقبل بها الريح ، تعرض لأن تزداد رمدا . وكذلك الواتر اذا دنا من الموتور ، فقد عرض نفسه للهلاك . ولا ينبغي لصاحب الدنيا الا توقي المهالك والمتالف ، وتقدير الأمور ، وقلة الاتكال على الحول

والقوّة ، وقلة الاغترار بمن لا يأمن : فانه من اتكل على قوته ، فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف ، فقد سعى فى حتف نفسه . ومن لايقدر لطاقته طعامه وشرابه ، وحمل نفسه مالا تطيق ولا تحمل ، فقد قتل نفسه . ومن لا يقدر لقمته ، وعظمها فوق مايسع فوه ، فربما غص بها فمات . ومن اغترّ بكلام عدوه ، وانخدع له ، وضيع الحزم ، فهو أعدى لنفسه من عدوه . وليس لأحد النظر فى القدر الذى لا يدرى ما يأتيه منه ولا ما يصرف عنه ؛ ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة ومحاسبة نفسه فى ذلك والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع ، ولا يقيم على خوف وهو يجد عنه مذهبا . وأنا كثير المذاهب ، وأرجو ألا أذهب وجها الا أصبت فيه ما يغنيني : فان خلالا خمسا من تزودهن كفينه فى كل وجه ، وآنسنه فى كل غربة ، وقربن له البعيد، وأكسبنه المعاش والاخوان : أوّلهن كف الأذى ، والثانية حسن الأدب ، والثالثة مجانبة الريب ، والرابعة كرم الخلق ، والخامسة النبل فى العمل . واذا خاف الانسان على نفسه شيئا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن : فانه يرجو الخلف من ذلك كله ولا يرجو عن النفس خلفا . وشرّ المال مالا انفاق منه ، وشر الأزواج التى لا تؤاتى بعلها ، وشر الولد العاصى العاق لوالديه ، وشر الاخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد ، وشر الملوك الذى يخافه البرىء ، ولا يواظب على حفظ أهل مملكته ، وشر البلاد بلاد لاخصب فيها ولا أمن، وانه لا أمن لى عندك أيها الملك ولا طمأنينة لى فى جوارك . ثم ودع الملك وطار . فهذا مثل ذوى الأوتار الذين لا ينبغى لبعضهم أن يثق ببعض (انتهى باب ابن الملك والطائر) .

باب الأسد والشعبر الناسك وهو ابن آوى

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لى مثل الملك الذى يراجع [1] من أصابته منه عقوبة من غير جرم ، أو جفوة من غير ذنب . قال الفيلسوف : إن الملك لو لم يراجع من أصابته منه جفوة عن ذنب أو عن غير ذنب ، ظلم أو لم يظلم ، لأضرّ ذلك بالأمور ، ولكن الملك حقيق أن ينظر فى حال من ابتلى بذلك ، ويخبر ما عنده من المنافع : فان كان ممن يوثق به فى رأيه وأمانته ، فان الملك حقيق بالحرص على مراجعته : فان الملك لايستطاع ضبطه الا مع ذوى الرأى وهم الوزراء والأعوان ولاينتفع بالوزراء والأعوان الا بالمودة والنصيحة ؛ ولامودة ولا نصيحة الا لذوى الرأى والعفاف . وأعمال السلطان كثيرة ؛ والذين يحتاج اليهم من العمال والاعوان كثيرون . ومن يجمع منهم ماذكرت من النصيحة والعفاف قليل . والمثل فى ذلك مثل الاسد وابن آوى . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف: زعموا أن ابن آوى كان يسكن فى بعض الضحال [2]، وكان متزهدا متعففا ، مع بنات آوى وذئاب وثعالب . ولم يكن يصنع ما يصنعن، ولا يغير كما يُغرن، ولا يهريق دماء ولا يأكل لحما. فخاصمه تلك السباع ، وقلن : لانرضى بسيرتك ولا رأيك الذى أنت عليه من تزهدك: مع أن تزهدك لايغنى عنك شيئا . وأنت لا تستطيع أن تكون الا كاحدنا : تسعى معنا ، وتفعل فعلنا . فما الذى كفك عن الدماء وعن أكل اللحم ؟ قال ابن آوى : ان صحبتى اياكن لا تؤثمنى اذا لم

(١) يعاود (٢) نقب ضيق فمه ، متسع أسفله

أوثم نفسي : لان الآثام ليست من قبل الاماكن والاصحاب ؛ ولكنها من قبل القلوب والاعمال . ولو كان صاحب المكان الصالح يكون عمله فيه صالحا ، وصاحب المكان السيء يكون عمله فيه سيئا ، كان حينئذ من قتل الناسك فى محرابه لم يأثم ، ومن استحياه فى معركة القتال أثم . وانى انما صحبتكن بنفسي ، ولم أصحبكن بقلبي وأعمالى : لانى أعرف ثمرة الاعمال : فلزمت حالى . وثبت ابن آوى على حاله تلك ، وأشتهر بالنسك والزهد ؛ حتى بلغ ذلك أسدا كان ملك تلك الناحية ، فرغب فيه: لما بلغه عنه من العفاف والنزاهة والزهد والامانة ، فارسل اليه يستدعيه . فلما حضر كلمه وآنسه فوجده فى جميع الامور وفق غرضه . ثم دعاه بعد أيام الى صحبته وقال له : تعلم أن عمالى كثير ، وأعوانى جم غفير ، وأنا مع ذلك الى الاعوان محتاج . وقد بلغنى عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، فازددت فيك رغبة . وأنا موليك من عملي جسيما ، ورافعك الى منزلة شريفة ، وجاعلك من خاصتى . قال ابن آوى : ان الملوك أحقاء باختيار الاعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأمورهم. وهم أحرى ألا يكرهوا على ذلك أحدا: فان المكره لا يستطيع المبالغة فى العمل . وانى لعمل السلطان كاره . وليس لى به تجربة ، ولا بالسلطان رفق . وأنت ملك السباع ، وعندك من اجناس الوحوش عدد كثير ، فيهم أهل نبل وقوة ، ولهم على العمل حرص ، وعندهم به وبالسلطان رفق : فان استعملتهم أغنوا عنك ، واغتبطوا لانفسهم بما أصابهم من ذلك . قال الاسد : دع عنك هذا : فانى غير معفيك من العمل . قال ابن آوى : انما يستطيع خدمة السلطان رجلان لست بواحد منهما : اما فاجر مصانع ، ينال حاجته بفجوره ،

ويسلم بمصانعته ؛ واما مغفل لا يحسده أحد . فمن أراد أن يخدم السلطان بالصدق والعفاف فلا يخلط ذلك بمصانعته ؛ وحينئذ قلّ أن يسلم على ذلك : لأنه يجتمع عليه عدوّ السلطان وصديقه بالعداوة والحسد . أما الصديق فينافسه فى منزلته ، ويبغى عليه فيها ، ويعاديه لأجلها ؛ وأما عدوّ السلطان فيضطغن عليه : لنصيحته لسلطانه ، وإغنائه عنه . فاذا اجتمع عليه هذان الصنفان فقد تعرض للهلاك . قال الأسد : لا يكوننّ بغى أصحابى عليك ، وحسدهم إياك مما يعرض فى نفسك : فأنت معى ، وأنا أكفيك ذلك ، وأبلغ بك من درجات الكرامة والاحسان على قدر همتك . قال ابن آوى : ان كان الملك يريد الاحسان إلىّ ، فليدعنى فى هذه البرية أعيش آمنا ، قليل الهمّ ، راضيا بعيشى من الماء والعشب : فانى قد علمت أن صاحب السلطان يصل اليه من الأذى والخوف فى ساعة واحدة مالا يصل الى غيره فى طول عمره ؛ وإن قليلا من العيش فى أمن وطمأنينة خير من كثير من العيش فى خوف ونصب . قال الاسد : قد سمعت مقالتك ، فلا تخف شيئا مما أراك تخاف منه . ولست أجد بدّا من الاستعانة بك فى أمرى . قال ابن آوى : أما اذا أبى الملك إلا ذلك فليجعل لى عهدا ، إن بغى علىّ أحد من أصحابه عنده ، ممن هو فوقى : مخافة على منزلته ، أو ممن هو دونى : لينازعنى فى منزلتى ، فذكر عند الملك منهم ذاكر بلسانه ، أو على لسان غيره ما يريد به تحميل الملك علىّ : ألا يعجل فى أمرى ، وأن يتثبت فيما يرفع اليه ويذكر عنده من ذلك ، ويفحص عنه ، ثم ليصنع مابدا له . فاذا وثقت منه بذلك ، أعنته بنفسى فيما يحب ، وعملت له فيما أولانى بنصيحة واجتهاد ، وحرصت

على ألاّ أجعل له على نفسى سبيلا . قال الأسد : لك ذلك على وزيادة . ثم ولاّه خزائنه، واختصّ به دون أصحابه، وزاد فى كرامته .

فلما رأى أصحاب الأسد ذلك ، غاظهم وساءهم . فأجمعوا كيدهم ، واتفقوا كلهم على أن يحملوا عليه الأسد . وكان الأسد قد استطاب لحما ، فعزل منه مقدارا ، وأمره بالاحتفاظ به ، وأن يرفعه فى أحصن موضع طعامه وأحرزه: ليعاد عليه ؛ فأخذوه من موضعه، وحملوه الى بيت ابن آوى ، فخبّؤوه فيه ، ولا علم له به ؛ ثم حضروا يكذبونه ان جرت فى ذلك حال . فلما كان من الغد ، ودعا الأسد بغدائه ، فقد ذلك اللحم ، فالتمسه ولم يجده ؛ وابن آوى لم يشعر بما صُنِعَ فى حقه من المكيدة . فحضر الذين عملوا المكيدة ، وقعدوا فى المجلس . ثم ان الملك سأل عن اللحم ، وشدّد فيه ، وفى المسألة عنه ، فنظر بعضهم الى بعض ، فقال أحدهم قول المخبر الناصح : انه لابدّ لنا من أن نخبر الملك بما يضره وينفعه ، وإن شقّ ذلك على من يشق عليه . وانه بلغنى أن ابن آوى هو الذى ذهب باللحم الى منزله . قال الآخر : لا أراه يفعل هذا ؛ ولكن انظروا وافحصوا : فان معرفة الخلائق شديدة . فقال الآخر : لعمرى ماتكاد السرائر تعرف ، وأظنكم ان فحصتم عن هذا وجدتم اللحم ببيت ابن آوى ؛ وكلّ شىء يُذكر من عيوبه وخيانته نحن أحقّ أن نصدّقه . قال الآخر : لئن وجدنا هذا حقا فليست بالخيانة فقط ؛ ولكن مع الخيانة كفر النعمة، والجراءة على الملك . قال الآخر : أنتم أهل العدل والفضل ، لا أستطيع أن أكذّبكم ، ولكن سيَبِينُ هذا لو أرسل الملك الى بيته من يفتشه . قال آخر : إن كان الملك مفتشا منزله فليعجّل : فان عيونه وجواسيسه

مبثوثة بكل مكان . ولم يزالوا فى هذا الكلام وأشباهه ، حتى وقع فى نفس الأسد ذلك؛ فأمر بابن آوى فحضر، فقال له : أين اللحم الذى أمرتك بالاحتفاظ به ؟ قال : دفعته الى صاحب الطعام ليقرّبه الى الملك . فدعا الأسد بصاحب الطعام ؛ وكان ممن شايع وبايع مع القوم على ابن آوى . فقال : مادفع إلىّ شيئا . فأرسل الأسد أمينا الى بيت ابن آوى ليفتشه ؛ فوجد فيه ذلك اللحم ؛ فأتى به الأسد. فدنا من الأسد ذئب لم يكن تكلم فى شىء من ذلك . وكان يظهر أنه من العدول الذين لايتكلمون فيما لا يعلمون ، حتى يتبين لهم الحق. فقال : بعد أن اطلع الملك على خيانة ابن آوى فلا يعفونّ عنه : فانه ان عفا عنه لم يطلع الملك بعدها على خيانة خائن ، ولا ذنب مذنب . فأمر الأسد بابن آوى أن يخرج ، ويحتفظ به . فقال بعض جلساء الملك : إنى لأعجب من رأى الملك ومعرفته بالأمور كيف يخفى عليه أمر هذا ، ولم يعرف خِبَّه ومخادعته ؟ وأعجب من هذا أنى أراه سيصفح عنه ، بعد الذى ظهر منه . فأرسل الأسد بعضهم رسولا الى ابن آوى يلتمس منه العذر ، فرجع اليه الرسول برسالة كاذبة اخترعها؛ فغضب الأسد من ذلك ، وأمر بابن آوى أن يقتل. فعلمت أمّ الأسد أنه قد عجّل فى أمره ؛ فأرسلت الى الذين أمِرُوا بقتله أن يؤخروه ، ودخلت على ابنها ، فقالت: يابنىّ بأى ذنب أمرت بقتل ابن آوى ؟ فأخبرها بالأمر . فقالت : يابنىّ عجلت . وانما يسلم العاقل من الندامة بترك العَجَلة وبالتثبّت . والعَجَلة لا يزال صاحبها يجتنى ثمرة الندامة ، بسبب ضَعْفِ الرأى . وليس أحدٌ أحوجَ الى التؤدة والتثبت من الملوك : فان المرأة بزوجها ، والولد بوالديه ، والمتعلم بالمعلم ، والجندَ

بالقائد ، والناسك بالدين ، والعامة بالملوك ، والملوك بالتقوى ، والتقوى بالعقل ، والعقل بالتثبت والأناة ؛ ورأس الكل الحزم ، ورأس الحزم للملك معرفة أصحابه ، وانزالهم منازلهم على طبقاتهم ، واتهامه بعضهم على بعض . فإنه لو وجد بعضهم الى هلاك بعض سبيلا لفعل. وقد جربت ابن آوى ، وبلوت رأيه وأمانته ومروءته . ثم لم تزل مادحا له راضيا عنه ؛ وليس ينبغي للملك أن يخونه بعد ارتضائه اياه وأثنائه له ؛ ومنذ مجيئه الى الآن لم يطلع له على خيانة الا على العفة والنصيحة . وما كان رأى الملك أن يعجل عليه لأجل طابق لحم . وأنت أيها الملك حقيق أن تنظر في حال ابن آوى : لتعلم أنه لم يكن ليتعرض للحم استودعته اياه . ولعل الملك ان فحص عن ذلك ظهر له أن ابن آوى له خصماء هم الذين ائتمروا بهذا الأمر . وهم الذين ذهبوا باللحم الى بيته فوضعوه فيه : فإن الحدأة اذا كان في رجلها قطعة لحم اجتمع عليها سائر الطير ، والكلب اذا كان معه عظم اجتمعت عليه الكلاب . وابن آوى منذ كان الى اليوم نافع ، وكان محتملا لكل ضرر في جنب منفعة تصل اليك ، ولكل عناء يكون لك فيه راحة ، ولم يكن يطوي دونك سرا

فبينما أم الأسد تقص عليه هذه المقالة ، اذ دخل على الأسد بعض ثقاته ، فأخبره ببراءة ابن آوى . فقالت أم الأسد ، بعد أن اطلع الملك على براءة ابن آوى : ان الملك حقيق ألا يرخص لمن سعى به لئلا يتجرؤوا على ماهو أعظم من ذلك؛ بل يعاقبهم عليه لكى لا يعودوا الى مثله : فانه لا ينبغي للعاقل أن يراجع في أمر الكفور للحسنى ، الجريء على الغدر ، الزاهد في الخير ، الذي لا يوقن بالآخرة . وينبغي

أن يجزى بعمله ، وقد عرفت سرعة الغضب وفرط الهفوة ؛ ومن سخط باليسير لم يبلغ رضاه بالكثير. والأولى لك أن تراجع ابن آوى ، وتعطف عليه؛ ولا يؤ يسنك من مناصحته ما فرط منك اليه من الإساءة : فان من الناس من لا ينبغي تركه على حال من الأحوال ، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للاخوان والأصحاب وان ثقلت عليه منهم المؤونة . وأما من ينبغي تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع ، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها . وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته

فدعا الأسد بابن آوى واعتذر اليه مما كان منه ووعده خيرا ، وقال : انى معتذر اليك ورادك الى منزلتك . فقال ابن آوى : ان شر الأخلاء من التمس منفعة نفسه بضر أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه ، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل اتباع هواه. وكثيرا مايقع ذلك بين الأخلاء . وقد كان من الملك الى ما علم؛ فلا يغلظن على نفسه ما أخبره به أنى به غير واثق ، وأنه لا ينبغي لى أن أصحبه : فان الملوك لا ينبغي أن يصحبوا من عاقبوه أشد العقاب ولا ينبغي لهم أن يرفضوه أصلا : فان ذا السلطان اذا عزل كان مستحقاً للكرامة فى حالة ابعاده والاقصاء له . فلم يلتفت الأسد الى كلامه . ثم قال له : انى قد بلوت طباعك وأخلاقك ، وجربت أماناتك ووفاءك وصدقك ؛ وعرفت كذب من تمحل الحيل لتحملى عليك . وانى منزلك من نفسى منزلة الأخيار الكرماء ، والكريم تنسيه

الخلة الواحدة من الاحسان، الخلال الكثيرة من الاساءة. وقد عدنا الى الثقة بك، فعد الى الثقة بنا : فان لنا ولك بذلك غبطة وسرور. فعاد ابن آوى الى ولاية ما كان يلي، وضاعف له الملك الكرامة، ولم تزده الأيام الا تقربا من السلطان. (انقضى باب الأسد وابن آوى)

باب ايلاذ و بلاذ وايراخت

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل، فاضرب لي مثلا في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه ؛ ويكون ذلك رأس أمره وملاكه : أبالحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود ؟ قال بيدبا : ان أحق مايحفظ به الملك ملكه الحلم، وبه تثبت السلطنة ؛ والحلم رأس الامور وملاكها، وأجود ما كان في الملوك : كالذي زعموا من أنه كان ملك يدعى بلاذ، وكان له وزير يدعى ايلاذ، وكان متعبدا ناسكا. فنام الملك ذات ليلة، فرأى في منامه ثمانية أحلام أفزعته، فاستيقظ مرعوبا. فدعا البراهمة، وهم النساك ليعبروا رؤياه. فلما حضروا بين يديه قص عليهم ما رأى. فقالوا بأجمعهم : لقد رأى الملك عجبا : فان أمهلتنا سبعة أيام جئناه بتأويله. قال الملك : قد أمهلتكم. فخرجوا من عنده ثم اجتمعوا في منزل أحدهم وأتمروا بينهم. وقالوا قد وجدتم علما واسعا تدركون به ثأركم وتنتقمون به من عدوكم ؛ وقد علمتم أنه قتل منا بالامس اثني عشر ألفا. وها هو قد أطلعنا على سره وسألنا تفسير رؤياه : فهلموا نغلظ له القول ونخوفه حتى يحمله الفرق والجزع على ان يفعل الذي

نريد ونأمر . فنقول : ادفع الينا أحباءك ومن يكرم عليك حتى نقتلهم : فانا قد نظرنا فى كتبنا فلم نر أن يدفع عنك ما رأيت لنفسك وما وقعت فيه من هذا الشر الا بقتل من نسمى لك . فان قال الملك : وما تريدون أن تقتلوا ؟ سموهم لى . قلنا : نريد الملكة ايراخت أم جوير المحمودة أكرم نسائك عليك . ونريد جوير أحبّ بنيك اليك وأفضلهم عندك . ونريد ابن أخيك الكريم ، وايلاذ خليلك وصاحب أمرك . ونريد كالا الكاتب صاحب سرك وسيفك الذى لا يوجد مثله ، والفيل الابيض الذى لا تلحقه الخيل ، والفرس الذى هو مركبك فى القتال . ونريد الفيلين الآخرين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذكر . ونريد البختى السريع القوىّ . ونريد كباريون الحكيم الفاضل العالم بالامور لننتقم منه بما فعل بنا . ثم نقول : انما ينبغى لك أيها الملك أن تقتل هؤلاء الذين سميناهم لك ، ثم تجعل دماءهم فى حوض تملؤه ، ثم تقعد فيه . فاذا خرجت من الحوض اجتمعنا نحن معاشر البراهمة من الآفاق الأربعة نجول حولك فنرقيك ونتفل عليك ونمسح عنك الدم ونغسلك بالماء والدهن الطيب . ثم تقوم الى منزلك البهىّ فيدفع الله بذلك البلاء الذى نتخوفه عليك . فان صبرت ، أيها الملك ، وطابت نفسك عن أحبائك الذين ذكرنا لك ، وجعلتهم فداءك ، تخلصت من البلاء ، واستقام لك ملكك وسلطانك ، واستخلفت من بعدهم من أحببت . وان أنت لم تفعل تخوفنا عليك أن يغصب ملكك أو تهلكك . فان هو أطاعنا فيما نأمره قتلناه أى قتلة شئنا .

فلما أجمعوا على ما أتمروا به رجعوا اليه فى اليوم السابع . وقالوا له: أيها الملك ، انا نظرنا فى كتبنا فى تفسير ما رأيت ، وفحصنا عن الرأى

فيما بيننا . فلتكن لك أيها الملك الطاهر الصالح الكرامة . ولسنا نقدر أن نعلمك بما رأينا الا أن تخلو بنا . فأخرج الملك من كان عنده وخلا بهم . فحدثوا بالذى ائتمروا به . فقال لهم : الموت خير لى من الحياة ان أنا قتلت هؤلاء الذين هم عديل نفسي . وأنا ميت لامحالة ، والحياة قصيرة ، ولست كل الدهر ملكا ، وان الموت عندى وفراق الأحباء سواء . قال له البراهمة : ان أنت لم تغضب أخبرناك . فأذن لهم . فقالوا : أيها الملك انك لم تقل صوابا حين تجعل نفس غيرك أعز عندك من نفسك . فاحتفظ بنفسك وملكك ، واعمل هذا الذى لك فيه الرجاء العظيم على ثقة ويقين . وقرّ عينا بملكك فى وجوه أهل مملكتك الذين شرفت وكرمت بهم . ولا تدع الامر العظيم وتأخذ بالضعيف فتهلك نفسك ايثارا لمن تحب . واعلم أيها الملك أن الانسان انما يحب الحياة محبة لنفسه . وأنه لايحب من أحب من الأحباب الا ليتمتع بهم فى حياته . وانما قوام نفسك بعد الله تعالى بملكك . وانك لم تنل ملكك الا بالمشقة والعناء الكثير فى الشهور والسنين . وليس ينبغى أن ترفضه ويهون عليك . فاستمع كلامنا . فانظر لنفسك مناها ، ودع ما سواها : فانه لا خطر له . فلما رأى الملك أن البراهمة قد أغلظوا له فى القول واجترءوا عليه فى الكلام اشتد غمه وحزنه . وقام من بين ظهرانيهم ودخل الى حجرته فخر على وجهه يبكى ويتقلب كما تتقلب السمكة اذا خرجت من الماء ، وجعل يقول فى نفسه : ما أدرى أىّ الأمرين أعظم فى نفسى ؟ ألمملكة أم قتل أحبائى ؟ ولن أنال الفرح ماعشت . وليس ملكى بباق علىّ الى الأبد . ولست بالمصيب سؤلى فى ملكى . وانى لزاهد فى الحياة اذا لم أر ايراخت .

وكيف أقدر على القيام بملكى اذا هلك وزيرى ايلاذ ؟ وكيف أضبط أمرى اذا هلك فيلى الأبيض وفرسى الجواد ؟ وكيف أدعى ملكا وقد قتلت من أشار البراهمة بقتله ؟ وما أصنع بالدنيا بعدهم ؟ . ثم ان الحديث فشا فى الارض بحزن الملك وهمه . فلما رأى ايلاذ ما نال الملكَ من الهم والحزن فكر بحكمته ونظر وقال : ما ينبغى لى ان أستقبل الملك فأسأله عن هذا الامر الذى قد ناله من غير أن يدعونى . ثم انطلق الى ايراخت فقال : انى منذ خدمت الملك الى الآن لم يعمل عملا الا بمشورتى ورأيى . وأراه يكتم عنى أمرا لا أعلم ما هو . ولا أراه يظهر منه شيئا . وانى رأيته خاليا مع جماعة البرهميين منذ ليال . وقد احتجب عنا فيها . وأنا خائف أن يكون قد أطلعهم على شىء من أسراره . فلست آمنهم أن يشيروا عليه بما يضره ويدخل عليه منه السوء . فقومى وادخلى عليه فاسأليه عن أمره وشأنه . وأخبرينى بما هو عليه وأعلمينى : فانى لست أقدر على الدخول عليه . فلعل البرهميين قد زينوا له أمرا أو حملوه على خطة قبيحة . وقد علمت أنّ من خلق الملك أنه اذا غضب لا يسأل أحدا . وسواء عنده صغير الأمور وكبيرها . فقالت ايراخت : انه كان بينى وبين الملك بعض العتاب فلست بداخلة عليه فى هذا الحال . فقال لها ايلاذ : لا تحملى عليه الحقد فى مثل هذا . ولا يخطرن ذلك على بالك فليس يقدر على الدخول عليه أحد سواك . وقد سمعته كثيرا يقول : ما اشتد غمى ودخلت علىّ ايراخت الا سرّى ذلك عنى ، فقومى اليه واصفحى عنه . وكلميه بما تعلمين أنه تطيب به نفسه ويذهب الذى يجده . وأعلمينى بما يكون جوابه : فانه لنا ولأهل المملكة أعظم الراحة . فانطلقت

ايراخت فدخلت على الملك فجلست عند رأسه . فقالت : ماالذى بك أيها الملك المحمود ؟ وما الذى سمعت من البراهمة ؟ فانى أراك محزونا. فأعلمنى ما بك ، فقد ينبغى لنا أن نحزن معك ونواسيك بأنفسنا . فقال الملك : أيتها السيدة لا تسأليني عن أمرى فتزيدينى غما وحزنا : فانه أمر لاينبغى أن تسأليني عنه . قالت : أو قد نزلت عندك منزلة من يستحق هذا ؟ انما أحمد الناس عقلا من اذا نزلت به النازلة كان لنفسه أشد ضبطا ، وأكثرهم استماعا من أهل النصح حتى ينجو من تلك النازلة بالحيلة والعقل والبحث والمشاورة . فعظيم الذنب لا يقنط من الرحمة. ولا تدخلن عليك شيئا من الهم والحزن . فانهما لايردان شيئا مقضيا. الا أنهما ينحلان الجسم ويشفيان العدو . قال لها الملك : لا تسأليني عن شيء فقد شققت[1] على . والذى تسأليني عنه لا خير فيه : لأن عاقبته هلاكى وهلاكك وهلاك كثير من أهل مملكتى ومن هو عديل نفسى . وذاك أن البراهمة زعموا أنه لابد من قتلك وقتل كثير من أهل مودتى . ولا خير في العيش بعدكم . وهل أحد يسمع بهذا الا اعتراه الحزن

فلما سمعت ذلك ايراخت جزعت . ومنعها عقلها أن تظهر للملك جزعا . فقالت : أيها الملك لاتجزع فنحن لك الفداء . ولك فى سواى ومثلى من الجوارى ماتقر به عينك . ولكنى أطلب منك، أيها الملك ، حاجة يحملنى على طلبتها حبى لك وايثارى اياك . وهى نصيحتى لك . قال الملك : وما هى ؟ قالت : أطلب منك ألا تثق بعدها بأحد من البراهمة . ولا تشاورهم فى أمر حتى تتثبت فى أمرك . ثم تشاور فيه

(١) اوقعتنى فى المشقة

ثقاتك مرارا : فان القتل أمر عظيم ، ولست تقدر على أن تحيي من قتلت . وقد قيل في الحديث : اذا لقيت جوهرا لا خير فيه فلا تلقه من يدك حتى تريه من يعرفه . وأنت أيها الملك لا تعرف أعداءك . واعلم أن البراهمة لا يحبونك . وقد قتلت منهم بالأمس اثني عشر ألفا . ولا تظن أن هؤلاء ليسوا من أولئك . ولعمري ما كنت جديرا أن تخبرهم برؤياك ، ولا أن تطلعهم عليها . وانما قالوا لك ماقالوا لأجل الحقد الذي بينك و بينهم: لعلهم يهلكونك ويهلكون أحباءك ووزراءك : فيبلغون قصدهم منك . فأظنك لو قبلت منهم فقتلت من أشاروا بقتله ظفروا بك وغلبوك على ملكك ، فيعود الملك اليهم كما كان . فانطلق الى كباريون الحكيم ، فهو عالم فطن ، فأخبره عما رأيت في رؤياك واسأله عن وجهها وتأويلها .

فلما سمع الملك ذلك سري عنه ما كان يجده من الغم . فأمر بفرسه فأسرج فركبه ثم انطلق الى كباريون الحكيم . فلما انتهى اليه نزل عن فرسه وسجد له ، وقام مطأطئا الرأس بين يديه . فقال له الحكيم : ما بالك أيها الملك ؟ ومالي أراك متغير اللون ؟ فقال له الملك : اني رأيت في المنام ثمانية أحلام فقصصتها على البراهمة . وأنا خائف أن يصيبني من ذلك عظيم أمر مما سمعت من تعبيرهم لرؤياي . وأخشى أن يغصب مني ملكي أو أن أغلب عليه . فقال له الحكيم : ان شئت فاقصص رؤياك علي . فلما قص عليه الملك رؤياه . قال : لا يحزنك أيها الملك هذا الأمر ولا تخف منه : أما السمكتان الحمروان اللتان رأيتهما قائمتين على أذنابهما : فانه يأتيك رسول من ملك نهاوند بعلبة فيها عقدان من الدر والياقوت الأحمر، قيمتهما أربعة آلاف رطل من

ذهب فيقوم بين يديك . وأما الوزتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك : فانه يأتيك من ملك بلخ فرسان ليس على الأرض مثلهما فيقومان بين يديك . وأما الحية التى رأيتها تدب على رجلك اليسرى: فانه يأتيك من ملك صنجين من يقوم بين يديك بسيف خالص الحديد لا يوجد مثله . وأما الدم الذى رأيت كأنه خضب به جسدك : فانه يأتيك من ملك كازرون من يقوم بين يديك بلباس معجب يسمى حلة أرجوان يضيء فى الظلمة . وأما ما رأيت من غسلك جسمك بالماء : فانه يأتيك من ملك رهزين من يقوم بين يديك بثياب كتان من لباس الملوك. وأما ما رأيت من أنك على جبل أبيض: فانه يأتيك من ملك كيدور من يقوم بين يديك بفيل أبيض لا تلحقه الخيل . وأما ما رأيت على رأسك شبيها بالنار . فانه يأتيك من ملك أرزن من يقوم بين يديك بإكليل من ذهب مكلل بالدرّ والياقوت وأما الطير الذى رأيته ضرب رأسك بمنقاره : فلست مفسرا ذلك اليومَ . وليس بضارّك ، فلا توجلن منه. ولكن فيه بعض السخط والاعراض عمن تحبه : فهذا تفسير رؤياك أيها الملك ، وأما هذه الرسل والبرد: فانهم يأتونك بعد سبعة أيام جميعا فيقومون بين يديك . فلما سمع الملك ذلك سجد لكباريون ورجع الى منزله .

فلما كان بعد سبعة أيام جاءت البشائر بقدوم الرسل فخرج الملك فجلس على التخت ، وأذن للأشراف ، وجاءته الهدايا كما أخبره كباريون الحكيم . فلما رأى الملك ذلك اشتدّ عجبه وفرحه من علم كباريون. وقال : ماوفقت حين قصصت رؤياى على البراهمة فأمرونى بما أمرونى به . ولولا أن الله تعالى تداركنى برحمته لكنت قد هلكت

وأهلكت ؛ وكذلك لا ينبغى لكل أحد أن يسمع الا من الأخلاء ذوى العقول . وان ايراخت أشارت بالخير فقبلته . ورأيت به النجاح . فضعوا الهدية بين يديها لتأخذ منها ما اختارت . ثم قال لايلاذ : خذ الاكليل والثياب واحملها واتبعنى بها الى مجلس النساء . ثم ان الملك دعا ايراخت وحورقناه أكرم نسائه بين يديه . فقال : لايلاذ ضع الكسوة والاكليل بين يدى ايراخت لتأخذ أيها شاءت . فوضعت الهدايا بين يدى ايراخت . فأخذت منها الاكليل ، وأخذت حورقناه كسوة من أفخر الثياب وأحسنها . وكان من عادة الملك أن يكون ليلة عند ايراخت وليلة عند حورقناه . وكان من سنة الملك أن تهيئ له المرأة التى يكون عندها فى ليلتها أرزا بحلاوة فتطعمه اياه . فأتى الملك ايراخت فى نوبتها . وقد صنعت له أرزا . فدخلت عليه بالصحفة والاكليل على رأسها . فعلمت حورقناه بذلك فغارت من ايراخت . فلبست تلك الكسوة . ومرت بين يدى الملك وتلك الثياب تضىء عليها مع نور وجهها كما تضىء الشمس . فلما رآها الملك أعجبته . ثم التفت الى ايراخت فقال : انك جاهلة حين أخذت الاكليل وتركت الكسوة التى ليس فى خزائننا مثلها . فلما سمعت ايراخت مدح الملك لحورقناه وثناءه عليها وتجهيلها هى وذم رأيها أخذها من ذلك الغيرة والغيظ . فضربت بالصحفة رأس الملك . فسال الأرز على وجهه . فقام الملك من مكانه ودعا بايلاذ . فقال له : ألا ترى ، وأنا ملك العالم ، كيف حقرتنى هذه الجاهلة ، وفعلت بى ما ترى ؟ فانطلق بها فاقتلها ولا ترحمها . فخرج ايلاذ من عند الملك وقال : لا أقتلها حتى يسكن عنه الغضب . فالمرأة عاقلة سديدة الرأى من الملكات

التى ليس لها عديل فى النساء ، وليس الملك بصابر عنها . وقد خلصته من الموت ، وعملت أعمالا صالحة . ورجاؤنا فيها عظيم . ولست آمنه أن يقول : لم لم تؤخر قتلها حتى تراجعنى ؟ فلست قاتلها حتى أنظر رأى الملك فيها ثانية : فان رأيته نادما حزينا على ماصنع جئت بها حية . وكنت قد عملت عملا عظيما . وأنجيت ايراخت من القتل . وحفظت قلب الملك . واتخذت عند عامة الناس بذلك يدا وان رأيته فرحا مستريحا مصوّبا رأيه فى الذى فعله وأمر به فقتلها لايفوت .

ثم انطلق بها الى منزله، ووكل بها خادما من أمنائه، وأمره بخدمتها وحراستها ، حتى ينظر مايكون من أمرها وأمر الملك . ثم خضب سيفه بالدم ودخل على الملك كالكئيب الحزين . فقال أيها الملك : انى قد أمضيت أمرك فى ايراخت . فلم يلبث الملك أن سكن عنه الغضب وذكر جمالَ ايراختَ وحسنَها . واشتد أسفه عليها . وجعل يعزى نفسه عنها . ويتجلد وهو مع ذلك يستحى أن يسأل ايلاذَ : أحقاً أمضى أمره فيها أم لا ؟ ورجا ـ لما عرف من عقل ايلاذ ـ ألاّ يكون قد فعل ذلك . ونظر اليه ايلاذُ بفضلُ عقله فعلم الذى به فقال له : لاتهتم ولا تحزن أيها الملك : فانه ليس فى الهم والحزن منفعة . ولكنهما يُنحِلانِ الجسمَ ويُفسِدانه. فاصبر أيها الملك على مالست بقادر عليه أبدا . وإنّ أحب الملكُ حدّثته بحديث يسليه . قال حدثنى .

قال ايلاذ : زعموا أن حمامتين ذكرا وأنثى ملآ عشهما من الحنطة والشعير . فقال الذكر للأنثى : انا اذا وجدنا فى الصحارى مانعيش به فلسنا نأكل مما ههنا شيئا . فاذا جاء الشتاء ولم يكن فى الصحارى شئ رجعنا الى مافى عشنا فأكلناه . فرضيت الأنثى بذلك . وقالت له : نعم

مارأيت . وكان ذلك الحبّ نديا حين وضعاه فى عشهما . فانطلق الذكر فغاب . فلما جاء الصيف يبس الحب وانضمر . فلما رجع الذكر رأى الحب ناقصا . فقال لها : أليس كنا أجمعنا رأينا على ألاّ نأكل منه شيئا ؟ فلِمَ أكلتِهِ ؟ فجعلت تحلف أنها ماأكلت منه شيئا . وجعلت تعتذر اليه . فلم يصدقها . وجعل ينقرها حتى ماتت . فلما جاءت الأمطار ودخل الشتاء تندى الحب وامتلأ العش كما كان . فلما رأى الذكر ذلك ندم . ثم اضطجع الى جانب حمامته وقال : ماينفعنى الحبّ والعيش بعدكِ اذا طلبتُكِ فلم أجدكِ ، ولم أقدر عليكِ ، واذا فكرت فى أمرِكِ وعلمتُ أنى قد ظلمتكِ ، ولاأقدرعلى تداركِ مافات . ثم استمر على حزنه فلم يَطعَمْ طعاما ولا شرابا حتى مات الى جانبها . والعاقل لايعجل فى العذاب والعقوبة ، ولا سيما من يخاف الندامة ؛ كما ندم الحمام الذكر . وقد سمعتُ أيضا أن رجلا دخل الجبل وعلى رأسه كارة[1] من العدس ، فوضع الكارة عن ظهره ليستريح . فنزل قرد من شجرة فأخذ ملءَ كفهِ من العدس وصعد الى الشجرة . فسقطت من يده حبة فنزل فى طلبها فلم يجدها . وانتثر ما كان فى يده من العدس أجمع . وأنت أيضا أيها الملك عندك ستة عشر ألف امرأة تدع أن تلهو بهن وتطلب التى لاتجدُ ! فلما سمع الملك ذلك خشى أن تكون ايراخت قد هلكتْ فقال لأيلاذَ : لِمَ لا تأنيت وتثبت ؟ بل أسرعت عند سماع كلمة واحدة فتعلقت بها ، وفعلت ماأمرتك به من ساعتك ؟ قال ايلاذ : ان الذى قوله واحد لا يختلف هو الله الذى لاتبديل لكلماته ولا اختلافَ لقوله . قال الملك : لقد أفسدتَ أمرى وشددتَ

(١) مقدار

حزنى بقتل ايراختَ . قال ايلاذ : اثنان ينبغى لهما أن يحزنا: الذى يعمل الإثم فى كل يوم ، والذى لم يعمل خيرا قط : لأن فرحهما فى الدنيا ونعيمها قليل. وندامتهما اذ يعاينان الجزاء طويلة لايستطاع احصاؤها . قال الملك : لئن رأيت ايراخت حية لا أحزن على شىء أبدا . قال ايلاذ : اثنان لا ينبغى لهما أن يحزنا : المجتهد فى البر كل يوم، والذى لم يأثمَ قط . قال الملك : ما أنا بناظر الى ايراخت أكثر مما نظرت . قال ايلاذ : اثنان لا ينظران : الأعمى والذى لا عقل له . وكما أن الأعمى لاينظر السماء ونجومها وأرضها ولا ينظر القرب والبعد، كذلك الذى لا عقل له لا يعرف الحُسْنَ من القبيح ولا المحسنَ من المسىء . قال الملك : لو رأيت ايراخت لاشتدّ فرحى . قال ايلاذ : اثنان هما الفرحان : البصير والعالم. فكما أن البصيرَ يبصر أمورَ العالَمِ وما فيه من الزيادة والنقصان والقريب والبعيد ، فكذلك العالم يبصر البر والأثم ، ويعرف عمل الآخرة ، ويتبين له نجاته ، ويهتدى الى صراط مستقيم . قال الملك : ينبغى لنا أن نتباعدَ منك ياإيلاذ ونأخذَ الحذر ونلزَمَ الإتقاءَ . قال إيلاذ : اثنان ينبغى أن يتباعد منهما : الذى يقول لا بر ولا أثم ولا عقاب ولا ثواب ولا شىء علىّ مما أنا فيه ، والذى لا يكاد يصرف بصَرَه عما ليس له بحرم ، ولا اذنَه عن استماع السوء، ولا قلبه عما تهم به نفسه من الأثم والحرص. قال الملك : صارت يدى من ايراخت صِفرا. قال إيلاذ : ثلاثة أشياء أصفار : النهر الذى ليس فيه ماء ، والأرض التى ليس فيها ملك ، والمرأة التى ليس لها بعل قال الملك : انك ياإيلاذ لتلقّى بالجواب. قال إيلاذ: ثلاثة يلقون بالجواب: الملك الذى يعطى ويقسم من خزائنه، والمرأة المهداة الى من تهوى من ذوى

الحسب ، والرجل العالم الموفق للخير .

ثم ان إيلاذ لما رأى الملك اشتد به الأمر ، قال : أيها الملك ، ان ايراخت بالحياة. فلما سمع الملك ذلك اشتد فرحه ، وقال يا إيلاذ انما منعني من الغضب ماأعرف من نصيحتك وصدق حديثك . وكنت أرجو لمعرفتي بعلمك ألا تكون قد قتلت إيراخت. فانها وان كانت أتت عظيما وأغلظت في القول فلم تأته عداوة ولا طلب مضرة ؛ ولكنها فعلت ذلك للغيرة . وقد كان ينبغي لي أن أعرض عن ذلك واحتمله. ولكنك يا إيلاذ أردت أن تختبرني وتتركني في شك من أمرها . وقد اتخذت عندي أفضل الأيدي وأنا لك شاكر فانطلق فائتني بها. فخرج من عند الملك فأتى ايراخت وأمرها أن تتزين ففعلت ذلك وانطلق بها الى الملك . فلما دخلت سجدت له . ثم قامت بين يديه . وقالت : أحمد الله تعالى ثم أحمد الملك الذي أحسن الي : قد أذنبت الذنب العظيم الذي لم أكن للبقاء أهلا بعده ، فوسعه حلمه وكرم طبعه ورأفته . ثم أحمد ايلاذ الذي أخر أمري وأنجاني ، من الهلكة ، لعلمه برأفة الملك وسعة حلمه وجوده وكرم جوهره ووفاء عهده .
وقال الملك لإيلاذ : ماأعظم يدك عندي وعند ايراخت وعند العامة : اذ قد أحييتها بعد ماأمرت بقتلها، فأنت الذي وهبها لي اليوم : فاني لم أزل واثقا بنصيحتك وتدبيرك . وقد ازددت اليوم عندي كرامة وتعظيما. وأنت محكم في ملكي تعمل فيه بما ترى، وتحكم عليه بما تريد . فقد جعلت ذلك اليك ووثقت بك . قال ايلاذ : أدام الله لك أيها الملك الملك والسرور . فلست بمحمود على ذلك . فانما أنا عبدك لكن حاجتي ألا يعجل الملك في الأمر الجسيم الذي يندم على فعله ،

وتكون عاقبته الغم والحزن ؛ ولاسيما فى مثل هذه الملكة الناصحة المشفقة التى لايوجد فى الأرض مثلها . فقال الملك : بحق قلت ياإيلاذ ، وقد قبلت قولك ، ولست عاملا بعدها عملا صغيرا ولا كبيرا ، فضلا عن مثل هذا الأمر العظيم الذى ما سلمت منه ، إلا بعد المؤامرة والنظر والتردد الى ذوى العقول ومشاورة أهل المودة والرأى . ثم أحسن الملك جائزة إيلاذ ، ومكنه من أولئك البراهمة الذين أشاروا بقتل أحبابه ، فأطلق فيهم السيف ، وقرت عين الملك وعيون عظماء أهل مملكته ؛ وحمدوا الله وأثنوا على كباريون بسعة علمه وفضل حكمته : لأن بعلمه خلص الملك ووزيره الصالح وامرأته الصالحة .

(انقضى باب ايلاذ وبلاذ وايرخت)

باب اللبوة(١) والإسوار(٢) والشغبر

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لى مثلا فى شأن من يدع ضر غيره اذا قدر عليه لما يصيبه من الضر ، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره . قال الفيلسوف : انه لا يقدم على طلب مايضر بالناس ومايسوءهم إلا أهل الجهالة والسفه وسوء النظر فى العواقب من أمور الدنيا والآخرة ؛ وقلة العلم بما يدخل عليهم فى ذلك من حلول النقمة ؛ وربما يلزمهم من تبعة ما اكتسبوا مما لا تحيط به العقول . وإن سلم بعضهم من ضرر بعض المنية عرضت له قبل أن ينزل به وبال ماصنع : فإن من لم يفكر فى العواقب لم يأمن المصائب ، وحقيق ألا يسلم من

(١) الأسدة (٢) قائد الفرس

المعاطب . وربما اتعظ الجاهل واعتبر بما يصيبه من المضرة من غيره ، فارتدع عن أن يغشى أحدا بمثل ذلك من الظلم والعدوان ، وحصل له نفع ما كف عنه من ضرره لغيره في العاقبة ؛ فنظير ذلك حديث اللبوة والأسوار والشغبر . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أن لبوة كانت في غيضة(١) ، ولها شبلان ؛ وأنها خرجت في طلب الصيد وخلفتهما في كهفهما ؛ فمر بهما أسوار فحمل عليهما ورماهما فقتلهما ، وسلخ جلديهما فاحتقبهما (٢) ، وانصرف بهما إلى منزله ؛ ثم إنها رجعت . فلما رأت ماحل بهما من الأمر الفظيع اضطربت ظهرا لبطن وصاحت وضجت . وكان الى جنبها شغبر . فلما سمع ذلك من صياحها قال لها : ما هذا الذي تصنعين ؟ وما نزل بك ؟ فأخبريني به . قالت اللبوة : شبلاى مر بهما أسوار فقتلهما ، وسلخ جلديهما فاحتقبهما ، ونبذهما بالعراء (٣) . قال لها الشغبر : لاتضجى وأنصفى من نفسك ، واعلمى أن هذا الأسوار لم يات إليك شيئا الا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله ، وتأتين الى غير واحد مثل ذلك ، ممن كان يجد بحميمه ومن يعز عليه مثل ما تجدين بشبليك . فاصبرى على فعل غيرك ، كما صبر غيرك على فعلك : فانه قد قيل : كما تدين تدان . ولكل عمل ثمرة من الثواب والعقاب . وهما على قدره فى الكثرة والقلة . كالزرع اذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره . قالت اللبوة : بين لى ماتقول ، وأفصح لى عن إشارته . قال الشغبر : كم أتى لك من العمر ؟ قالت اللبوة : مائة سنة . قال الشغبر : ما كان قوتك ؟ قالت اللبوة : لحم الوحش . قال الشغبر : من

(١) أجمة (٢) ربطهما فى مؤخر الرحل أو القتب (٣) الفضاء لايستر فيه شئ

كان يطعمك اياه ؟ قالت اللبوة : كنت أصيد الوحش وآكله . قال الشغبر : أرأيت الوحوش التى كنت تأكلين ، أما كان لها آباء وأمهات؟ قالت : بلى . قال الشغبر : فما بالى لا أرى ولا أسمع لتلك الآباء والأمهات من الجزع والضجيج ما أرى وأسمع لك ؟ أما انه لم ينزل بك ما نزل الا لسوء نظرك فى العواقب ، وقلة تفكرك فيها ، وجهالتك بما يرجع عليك من ضرها . فلما سمعت اللبوة ذلك من كلام الشغبر عرفت أن ذلك مما جنت على نفسها ، وأن عملها كان جورا وظلما، فتركت الصيد ، وانصرفت عن أكل اللحم الى الثمار والنسك والعبادة . فلما رأى ذلك ورشان [١] (كان صاحب تلك الغيضة وكان عيشه من الثمار) قال لها : قد كنت أظن أن الشجر عامنا هذا لم يحمل : لقلة الماء ؛ فلما أبصرتك تأكلينها ، وأنت آكلة اللحم ، فتركت رزقك وطعامك وما قسم الله لك ، وتحولت الى رزق غيرك فانتقصته ، ودخلت عليه فيه ؛ علمت أن الشجر العام أثمرت كما كانت تثمر قبل اليوم ؛ وانما أتت قلة الثمر من جهتك . فويل للشجر وويل للثمار وويل لمن عيشه منها ! ما أسرع هلاكهم اذا دخل عليهم فى أرزاقهم، وغلبهم عليها من ليس له فيها حظ ولم يكن معتادا لأكلها !! فلما سمعت اللبوة ذلك من كلام الورشان تركت أكل الثمار وأقبلت على أكل الحشيش والعبادة . وانما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن الجاهل ربما انصرف بضر يصيبه عن ضر الناس ؛ كاللبوة التى انصرفت لما لقيت فى شبليها عن أكل اللحم ثم عن أكل الثمار بقول الورشان ، وأقبلت على النسك والعبادة . والناس أحق بحسن النظر فى ذلك :

(١) طائر وهو ساق حرّ والأنثى ورشانة وجمعه ورشان ووراشين

فانه قد قيل : مالا ترضاه لنفسك لاتصنعه لغيرك : فان فى ذلك العدل ، وفى العدل رضا الله تعالى ورضا الناس .

(انقضى باب اللبوة والأسوار والشغبر)

باب الناسك والضيف

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل ، فاضرب لى مثل الذى يدع صُنْعه الذى يليق به ويشاكله ، ويطلب غيره فلا يدركه : فيبقى حيْرانَ متردداً . قال الفيلسوف : زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد . فنزل به ضيف ذات يوم ؛ فدعا الناسك لضيفه بتمْر : ليُطرفه به . فأكلا منه جميعا . ثم قال الضيف : ما أحلا هذا التمرَ وأطيبهُ ! فليس هو فى بلادى التى أسكنها ، وليته كان فيها ! ثم قال : أرى أن تساعدنى على أن آخذ منه ما أغرسه فى أرضنا : فإنى لست عارفا بثمار أرضكم هذه ولا بمواضعها . فقال له الناسك : ليس لك فى ذلك راحة : فإن ذلك يثقل عليك . ولعل ذلك لا يوافق أرضكم ، مع أن بلادكم كثيرة الأثمار فما حاجتها مع كثرة ثمارها الى التمر مع وخامته وقلة موافقته للجسد ؟ ثم قال له الناسك : انه لا يُعَدُّ حكيما من طلب مالا يجد . وإنك سعيد الجدّ اذا قَنعْت بالذى تجد ، وزهدت فيما لا تجد . وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية . فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه ، فتكلف أن يتعلمه ؛ وعالج فى ذلك نفسه أياما . فقال الناسك لضيفه : ما أخلقَكَ أن تقعَ مما تركت من كلامك ، وتكلفْتَ من كلام العبرانية ، فى مثل ماوقع فيه الغراب

قال الضيف : وكيف كان ذلك

قال الناسك : زعموا أن غرابا رأى حجلة تدرُج وتمشى ، فأعجبته مشيتها ، وطمع أن يتعلمها . فراض على ذلك نفسه ، فلم يقدر على إحكامها ، وأيس منها . وأراد أن يعودَ إلى مشيته التى كان عليها : فاذا هو قد اختلط وتخلع فى مشيته ، وصار أقبحَ الطير مشيا . وإنما ضَرَبْتُ لك هذا المثل لما رأيتَ من أنك تركتَ لسانك الذى طبعْتَ عليه ، وأقبلتَ على لسانِ العبرانيةِ ، وهو لا يشاكلُك ؛ وأخافُ ألا تدركه ، وتنسى لسانك ، وترجعَ الى أهلك وأنتَ شرُّهم لسانا : فانه قد قيل : انه يُعَدُّ جاهلا من تكلف الأمور مالا يشاكله ، وليس من عمله ، ولم يؤدّبه عليه آباؤه وأجداده من قبلُ .

(انقضى باب الناسك والضيف)

باب السائح والصائغ

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فاضرب لى مثلا فى شأن الذى يضع المعروف فى غير موضعه ، ويرجو الشكر عليه . قال الفيلسوف : أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة . وليس مما خلقه الله فى الدنيا مما يمشى على أربع أو على رجلين أو يطير بجناحين شىء هو أفضل من الإنسان ؛ ولكن من الناس البرُّ والفاجرُ . وقد يكون فى بعض البهائم والسباع والطير ماهو أوفى منه ذمة ، وأشدّ محاماة على حُرَمه ، وأشكر للمعروف ، وأقوم به . وحينئذ يجب على ذوى العقل من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ؛ ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ، ولا يقوم بشكره ؛ ولا يصطنعوا أحدا إلاّ بعد الخبرة بطرائقه ، والمعرفة بوفائه ومودّته وشكره . ولا ينبغى أن



يختصوا بذلك قريبا لقرابته ، اذا كان غيرَ محتملٍ للصنيعة ؛ ولا أن يمنعوا معروفهم وَرِفدهم للبعيد ، اذا كان يقيهم بنفسه وبما يقدر عليه : محمودا بالنُصح ، معروفا بالخير ، صَدوقا عارفا ، مؤثرا لحميد الفعال والقول . وكذلك كل من عُرف بالخصال المحمودة وُثق منه بها ، كان للمعروف مَوضِعا ، ولتقريبه واصطناعه أهلا : فإن الطبيب الرفيق العاقل لايقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر اليه والجس لعروقه ومعرفةِ طبيعته وسببِ علته فاذا عَرَفَ ذلك كله حقَّ معرفته أقدم على مداواته . فكذلك العاقلُ : لاينبغى له أن يصطفى أحدا ، ولا يستخلصه إلا بعد الخِبرة : فإنَّ من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطرا فى ذلك ومشرفا منه على هلاكٍ وفسادٍ . ومع ذلك ربما صنع الانسان المعروفَ مع الضعيف الذى لم يجرِّب شكرَه، ولم يعرف حاله فى طِباعه فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسنَ المكافأة . وربما حذِر العاقل الناسَ ولم يأمَنْ على نفسه أحدا منهم. وقد يأخذ ابنَ عرس فيُدخِله فى كمه ويُخرِجه من الآخَر كالذى يحمل الطائرَ على يده ، فاذا صاد شيئا انتفع به ، ومطعمه منه . وقد قيل : لاينبغى لذى العقل أن يحتقِرَ صغيرا ولا كبيرا من الناس ولا من البهائم؛ ولكنه جديرٌ بأن يبلوَهم، ويكونَ مايصنعُ اليهم على قَدْرِ مايرى منهم . وقد مضى فى ذلك مثل ضربَه بعض الحكماء . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أن جماعة احتفروا ركيةً(١) فوقع فيها رجل صائغ وحية وقرد وببرٌ (٢) ، ومرّ بهم رجل سائح ، فأشرف على

(١) بئرا (٢) سبع

الركية ؛ فبصر بالرجل والحية والببر والقرد . ففكر في نفسه ، وقال : لست أعمل لآخرتي عملا أفضل من أن أخلص هذا الرجل من بين هؤلاء الأعداء . فأخذ حبلا ، وأدلاه الى البئر فتعلق به القرد لخفته فخرج . ثم دلاه ثانية ، فالتفت به الحية فخرجت . ثم دلاه الثالثة ، فتعلق به الببر فأخرجه . فشكرن له صنيعه . وقلن له : لا تخرج هذا الرجل من الركية : فانه ليس شيء أقل شكرا من الانسان . ثم هذا الرجل خاصة . ثم قال له القرد : إن منزلي في جبل قريب من مدينة يقال لها نَوادَرَخْتُ . فقال له الببر : أنا أيضا في أجمة الى جانب تلك المدينة . قالت الحية : أنا أيضا في سور تلك المدينة . فإن أنتَ مررتَ بنا يوما من الدهر ، واحتجتَ الينا فصوّتِ علينا حتى نأتيك فنجزيك بما أسديت الينا من المعروف . فلم يلتفت السائح الى ماذكروا له من قلة شكر الانسان ، وأدلى الحبلَ . فأخرج الصائغَ ، فسجد له ، وقال له : لقد أوليتني معروفا . فان أتيتَ يوما من الدهر بمدينة نوَادِرَخت فاسأل عن منزلي : فأنا رجلٌ صائغٌ لعلي أكافئك بما صنعتَ اليَّ من المعروفِ . فانْطَلَقَ الصائغ إلى مدينته وانطلق السائح الى جانبه . فعرض بعد ذلك ان السائحَ اتفقتْ له حاجةٌ الى تلك المدينة ، فانطلق ، فاستقبله القردُ ، فسجد له وقبّل رجليْهِ . واعتذر اليه ، وقال : إن القرودَ لا يملكون شيئا ، ولكن اقعد حتى آتيك . وانطلق القرد ، وأتاه بفاكهة طيبة ، فوضعها بين يديه ؛ فأكل منها حاجتَه . ثم إن السائح انطلق حتى دنا من باب المدينة ، فاستقبله الببر فخرّ له ساجدا ؛ وقال له : انك قد أوليتني معروفا . فاطمئنّ ساعةً حتى آتيك . فانطلق الببر فدخل في بعض

الحيطان (١) الى بنت الملك فقتلها ، وأخذ حليها ، فأتاه به ، من غير أن يعلم السائح من أين هو . فقال فى نفسه : هـذه البهائم قد أولتنى هذا الجزاء ، فكيف لو قد أتيت الى الصائغ فانه إن كان معسرا لايملك شيئا فسيبيع هذا الحلى فيستوفى ثمنه،فيعطينى بعضه ، ويأخذ بعضه ، وهو أعرف بثمنه . فانطلق السائح ، فأتى الى الصائغ ، فلما رآه رحب به وأدخله إلى بيته . فلما بصر بالحلى معه ، عرفه وكان هو الذى صاغه لابنة الملك . فقال للسائح : اطمئن حتى آتيك بطعام فلست أرضى لك مافى البيت . ثم خرج وهو يقول : قـد أصبت فرصتى : أريد أن أنطلق الى الملك وأدله على ذلك ، فتحسن منزلتى عنده . فانطلق الى باب الملك ، فأرسل اليه : إن الذى قتل ابنتك وأخذ حليها عندى . فأرسل الملك وأتى بالسائح . فلما نظر الحلى معه لم يمهله ، وأمر به أن يعذب ويطاف به فى المدينة ، ويصلب . فلما فعلوا به ذلك جعل السائح يبكى ويقول بأعلى صوته : لو أنى أطعت القرد والحية والببر فيما أمرتنى به وأخبرتنى من قلة شكر الانسان لم يصر أمرى الى هذا البلاء ، وجعل يكرر هذا القول . فسمعت مقالته تلك الحية ، فخرجت من جحرها فعرفته ، فاشتد عليها أمره ، فجعلت تحتال فى خلاصه . فانطلقت حتى لدغت ابن الملك ، فدعا الملك أهل العلم فرقوه ليشفوه فلم يغنوا عنه شيئا * ثم مضت الحية الى أخت لها من الجن ، فأخبرتها بما صنع السائح اليها من المعروف ، وما وقع فيه . فرقت له ، وانطلقت الى ابن الملك ، وتخايلت له . وقالت له : إنك لاتبرأ حتى يرقيك هـذا الرجل الذى قد عاقبتموه

(١) البساتين

ظلما . وانطلقت الحية الى السائح ، فدخلت عليه فى السجن ، وقالت له : هذا الذى كنت نهيتك عنه من اصطناع المعروف الى هذا الانسان ، ولم تطعنى . وأتته بورق ينفع من سمها . وقالت له : اذا جاءوا بك لترقى ابن الملك فاسقه من ماء هذا الورق : فانه يبرأ . واذا سألك الملك عن حالك فاصدقه : فانك تنجو ان شاء الله تعالى. وان ابن الملك أخبر الملك أنه سمع قائلا يقول : انك ان تبرأ حتى يرقيك هذا السائح الذى حبس ظلما . فدعا الملك بالسائح ، وأمره أن يرقى ولده . فقال : لا أحسن الرقى، ولكن أسقيه من ماء هذه الشجرة فيبرأ باذن الله تعالى . فسقاه فبرئ الغلام . ففرح الملك بذلك : وسأله عن قصته . فأخبره فشكره الملك ، وأعطاه عطية حسنة ؛ وأمر بالصائغ أن يصلب، فصلبوه لكذبه وانحرافه عن الشكر ومجازاته الفعل الجميل بالقبيح . ثم قال الفيلسوف للملك : فى صنيع الصائغ بالسائح ، وكفره له بعد استنقاذه اياه ، وشكر البهائم له ، وتخليص بعضها اياه عبرةٌ لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر ، وأدب فى وضع المعروف والاحسان عند أهل الوفاء والكرم ، قربوا أو بعدوا : لما فى ذلك من صواب الرأى وجلب الخير وصرف المكروه (انقضى باب السائح والصائغ)

باب ابن الملك وأصحابه

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعت هذا المثل . فان كان الرجل لا يصيب الخير الا بعقله ورأيه وتثبته فى الأمور كما يزعمون، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير ، والرجل الحكيم

العاقل قد يصيب البلاء والضر؟ . قال بيدبا : كما أن الانسان لايبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه ، كذلك العمل ، إنما هو بالحلم والعقل والتثبت ؛ غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك . ومثل ذلك مثل ابن الملك وأصحابه . قال الملك : وكيف كان ذلك ؟

قال الفيلسوف : زعموا أن أربعة نفر اصطحبوا فى طريق واحدة ، أحدهم ابن ملك والثانى ابن تاجر والثالث ابن شريف ذو جمال والرابع ابن أكار (١) ، وكانوا جميعا محتاجين ، وقد أصابهم ضرر وجهد شديد فى موضع غربة لايملكون إلا ماعليهم من الثياب . فبينماهم يمشون اذ فكروا فى أمرهم ، وكان كل إنسان منهم راجعا الى طباعه وما كان يأتيه منه الخير : قال ابن الملك : إن أمر الدنيا كله بالقضاء والقدر ؛ والذى قدر على الانسان يأتيه على كل حال ؛ والصبر للقضاء والقدر وانتظارهما أفضل الأمور . وقال ابن التاجر : العقل أفضل من كل شيء . وقال ابن الشريف : الجمال أفضل مما ذكرتم . ثم قال ابن الأكار : ليس فى الدنيا أفضل من الاجتهاد فى العمل . فلما قربوا من مدينة يقال لها مطرون ، جلسوا فى ناحية منها يتشاورون : فقالوا لابن الأكار : انطلق فاكتسب لنا باجتهادك طعاما ليومنا هذا . فانطلق ابن الاكار ، وسأل عن عمل اذا عمله الانسان يكتسب فيه طعام أربعة نفر فعرفوه أنه ليس فى تلك المدينة شيء أعز من الحطب ؛ وكان الحطب منها على فرسخ . فانطلق ابن الأكار فاحتطب طنا (٢) من الحطب ، وأتى به المدينة فباعه بدرهم واشترى به طعاما وكتب على باب المدينة : عمل يوم

(١) الأكار الحراث وجمعه أكرة كأنه جمع آخر (٢) حزمة

واحد اذا أجهد فيه الرجل بدنه قيمته درهم . ثم انطلق الى أصحابه بالطعام فأكلوا . فلما كان من الغد : قالوا ينبغى للذى قال إنه ليس شىء أعزّ من الجمال أن تكون نوبته . فانطلق ابن الشريف ليأتى المدينة ، ففكر فى نفسه وقال : أنا لست أحسن عملا فما يدخلنى المدينة ؟ ثم استحيا أن يرجع الى أصحابه بغير طعام ، وهمّ بمفارقتهم . فانطلق حتى أسند ظهره الى شجرة عظيمة، فغلبه النوم فنام . فمرّ به رجل من عظماء المدينة فراقه جماله وتوسم فيه شرف النجار(١) فرقّ له ومنحه خمسمائة درهم . فكتب على باب المدينة : جمال يوم واحد يساوى خمسمائة درهم . وأتى بالدراهم الى أصحابه . فلما أصبحوا في اليوم الثالث ، قالوا لابن التاجر : انطلق أنت فاطلب لنا بعقلك وتجارتك ليومنا هـذا شيئا . فانطلق ابن التاجر فلم يزل حتى بصر بسفينة من سفن البحر كثيرة المتاع قـد قدمت الى الساحل ، فخرج اليها جماعة من التجار يريدون أن يبتاعوا مما فيها من المتاع . فجلسوا يتشاورون فى ناحية من المركب ، وقال بعضهم لبعض : ارجعوا يومنا هـذا لا نشترى منهم شيئا حتى يكسد المتاع عليهم فيرخصوه علينا ، مع أننا محتاجون اليه ، وسيرخص . فخالف الطريق وجاء الى أصحاب المركب،فابتاع منهم مافيه بمائة ألف دينار نسيئة(٢)وأظهر أنه يريد أن ينقل متاعه الى مدينة أخرى . فلما سمع التجار ذلك خافوا أن يذهب ذلك المتاع من أيديهم ، فأربحوه على مااشتراه مائة ألف درهم ، وأحال(٣)عليهم أصحاب المركب بالباقى ، وحمل ربحه الى أصحابه وكتب على باب المدينة : عقل يوم واحد ثمنه مائة الف درهم.

(١) الأصل (٢) الى أجل (٣) أى فأخذ مائة ألف درهم وأحال الخ

فلما كان اليوم الرابع قالوا لابن الملك : انطلق أنت واكتسب لنا بقضائك وقدرك . فانطلق ابن الملك حتى أتى إلى باب المدينة فجلس على متكأ في باب المدينة ، واتفق أن ملك تلك الناحية مات ولم يخلف ولدا ولا أحدا ذا قرابة . فمروا عليه بجنازة الملك ولم يحزنه وكلهم يحزنون . فأنكروا حاله وشتمه البوّاب ، وقال له : من أنت ياهذا ؟ ومايجلسك على باب المدينة ولا نراك تحزنُ لموت الملك ؟ وطرده البواب عن الباب . فلما ذهبوا عاد الغلام فجلس مكانه . فلما دفنوا الملك ورجعوا بصر به البواب فغضب وقال له : ألم انهك عن الجلوس في هذا الموضع ؟ وأخذه فحبسه . فلما كان الغد اجتمع أهل تلك المدينة يتشاورون فيمن يملكونه عليهم ، وكلّ منهم يتطاول ينظر صاحبه ، ويختلفون بينهم . فقال لهم البواب : أني رأيت أمس غلاما جالسا على الباب ، ولم أره يحزن لحزننا ، فكلمته فلم يجبني . فطردته عن الباب . فلما عدت رأيته جالسا ، فأدخلته السجن مخافة أن يكون عينا . فبعث أشراف أهل المدينة إلى الغلام فجاءوا به ، وسألوه عن حاله ، وما أقدمه الى مدينتهم . فقال : أنا ابن ملك فويران ، وانه لما مات والدي غلبني أخي على الملك ، فهربت من يده حذرا على نفسي حتى انتهيت الى هذه الغاية . فلما ذكر الغلام ما ذكر من أمره عرفه من كان يغشى أرض أبيه منهم ، وأثنوا على أبيه خيرا . ثم إن الأشراف اختاروا الغلام أن يملكوه عليهم ورضوا به . وكان لأهل تلك المدينة سنة اذا ملكوا عليهم ملكا حملوه على فيل أبيض ، وطافوا به حوالى المدينة . فلما فعلوا به ذلك مرّ بباب المدينة فرأى الكتابة على الباب فأمر أن يكتب : إن

الاجتهاد والجمال والعقل وما أصاب الرجل فى الدنيا من خير أو شر إنما هو بقضاء وقدر من الله عز وجل . وقد ازددت فى ذلك اعتبارا بما ساق الله إلىّ من الكرامة والخير .

ثم انطلق الى مجلسه فجلس على سرير ملكه وأرسل الى أصحابه الذين كان معهم فأحضرهم ، فأشرك صاحب العقل مع الوزراء ، وضم صاحب الاجتهاد الى أصحاب الزرع ، وأمر لصاحب الجمال بمال كثير ثم نفاه كى لا يفتتن به . ثم جمع علماء أرضه وذوى الرأى منهم وقال لهم : أما أصحابى فقد تيقنوا أن الذى رزقهم الله سبحانه وتعالى من الخير إنما هو بقضاء الله وقدره ؛ وإنما أحبّ أن تعلموا ذلك وتستيقنوه ؛ فإن الذى منحنى الله وهيأه لى إنما كان بقدر ، ولم يكن بجمال ولا عقل ولا اجتهاد . وما كنت أرجو اذ طردنى أخى أن يصيبنى ما يعيشنى من القوت فضلا عن أن أصيب هذه المنزلة ؛ وما كنت أؤمل أن أكون بها : لأنى قد رأيت فى هذه الأرض من هو أفضل منى حسنا وجمالا ، وأشد اجتهادا وأسدُّ رأيا ؛ فساقنى القضاء الى أن اعتززت بقدر من الله ، وكان فى ذلك الجمع شيخ فنهض حتى استوى قائما ، وقال : إنك قد تكلمت بكلام كامل عقل وحكمة ، وان الذى بلغ بك ذلك وفور عقلك وحسن ظنك ؛ وقد حققت ظننا فيك ورجاءنا لك . وقد عرفنا ما ذكرت ، وصدقناك فيما وصفت . والذى ساق الله اليك من الملك والكرامة كنت أهلا له ، لما قسم الله تعالى لك من العقل والرأى . وان أسعد الناس فى الدنيا والآخرة من رزقه الله رأيا وعقلا . وقد أحسن الله إلينا اذ وفقك لنا عند موت ملكنا وكرمنا بك . ثم قام شيخ آخر سائح فحمد الله عز وجل

وأثنى عليه وقال : انى كنت أخدم وأنا غلام قبل أن أكون سائحا رجلا من أشراف الناس . فلما بدا لى رفض الدنيا فارقت ذلك الرجل، وقد كان أعطانى من أجرتى دينارين ، فأردت أن أتصدق بأحدهما، وأستبقى الآخر ؛ فأتيت السوق ، فوجدت مع رجل من الصيادين زوج هدهد ، فساومته فيهما فأبى الصياد أن يبيعهما إلا بدينارين؛ فاجتهدت أن يبيعنيهما بدينار واحد فأبى . فقلت فى نفسى : أشترى أحدهما وأترك الآخر . ثم فكرت وقلت لعلهما يكونان زوجين ذكرا وأنثى فأفرق بينهما ، فأدركتنى لهما رحمة فتوكلت على الله وابتعتهما بدينارين ، وأشفقت إن أرسلتهما فى أرض عامرة أن يصادا ، ولا يستطيعا أن يطيرا مما لقيا من الجوع والهزال ، ولم آمن عليهما الآفات . فانطلقت بهما الى مكان كثير المرعى والأشجار بعيد عن الناس والعمران ، فأرسلتهما ؛ فطارا ووقعا على شجرة مثمرة . فلما صارا فى أعلاها شكرا لى ، وسمعت أحدهما يقول للآخر : لقد خلصنا هذا السائح من البلاء الذى كنا فيه ، واستنقذنا ونجانا من الهلكة . وانا لخليقان أن نكافئه بفعله . وان فى أصل هذه الشجرة جرة مملوءة دنانير . أفلا ندله عليها فيأخذها ؟ فقلت لهما : كيف تدلانى على كنز لم تره العيون وأنتما لم تبصرا الشبكة ؟ فقالا : ان القضاء اذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء وغشى البصر . وانما صرف القضاء أعيننا عن الشرك ولم يصرفها عن هذا الكنز . فاحتفرت واستخرجت البرنية (١) وهى مملوءة دنانير ، فدعوت لهما بالعافية ، وقلت لهما : الحمد لله الذى علمكما مالم تعلما ، وأنتما تطيران فى السماء ،

(١) اناء من خزف

وأخبرنا بما تحت الأرض . فقالا لى : أيها العاقل ، أما تعلم أن القدر غالب على كل شىء ، لايستطيع أحد أن يتجاوزه . وأما أخبر الملك بذلك الذى رأيته : فان أمر الملك أتيته بالمال فأودعته فى خزائنه . فقال الملك ذلك لك ، وموفر عليك (انتهى باب الملك مع أصحابه).

باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين

وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه قال الملك للفيلسوف : قد سمعت هذا المثل فاضرب لى مثلا فى شأن الرجل الذى يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه . قال الفيلسوف : إن مثل ذلك مثل الحمامة والثعلب ومالك الحزين . قال الملك : وما مثلهن؟

قال الفيلسوف : زعموا أن حمامة كانت تفرخ فى رأس نخلة طويلة ذاهبة فى السماء ، فكانت الحمامة تشرع فى نقل العش الى رأس تلك النخلة ، فلا يمكن أن تنقل ماتنقل من العش وتجعله تحت البيض إلا بعد شدة وتعب ومشقة لطول النخلة وسحقها ؛ فاذا فرغت من النقل باضت ثم حضنت بيضها ، فاذا فقست وأدرك فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدرماينهض فراخها ، فيقف باصل النخلة فيصيح بها ويتوعدها أن يرقى اليها فتلقى اليه فراخها . فبينما هى ذات يوم قد أدرك لها فرخان إذ أقبل مالك الحزين فوقع على النخلة . فلما رأى الحمامة كئيبة حزينة شديدة الهم قال لها مالك الحزين : ياحمامة ، مالى أراك كاسفة اللون سيئة الحال ؟ فقالت له : يامالك الحزين ، إن ثعلبا دهيت به كلما كان لى فرخان

جاءنى يهدّدنى و يصيح فى أصـل النخلة ، فافرق منـه فأطرح اليه فرخىّ . قال لها مالك الحزين : اذا أتاك ليفعل ماتقولين فقولى له : لاألقى اليك فرخىّ ، فارق إلىّ وغرّر بنفسك . فاذا فعلت ذلك وأكلت فرخىّ ، طرت عنك ونجوت بنفسى . فلما علمها مالك الحزين هـذه الحيلة طار فوقع على شاطىء نهر . فاقبل الثعلب فى الوقت الذى عرف ، فوقف تحتها ، ثم صاح كما كان يفعل . فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين . فقال لها الثعلب : أخبرينى من علمك هذا ؟ قالت: علمنى مالك الحزين . فتوجه الثعلب حتى أتى مالكا الحزين على شاطىء النهر ، فوجده واقفا . فقال له الثعلب : يامالك الحزين . اذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك ؟ قال: عن شمالى . قال : فاذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك ؟ قال: أجعله عن يمينى أو خلفى . قال : فاذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله ؟ قال . أجعله تحت جناحى . قال : وكيف تستطيع أن تجعله تحت جناحك ؟ ما أراه يتهيأ لك . قال : بلى : قال فارنى كيف تصنع ؟ فلعمرى يامعشر الطير لقد فضلكم الله علينا . إنكنّ تدرين فى ساعة واحدة مثل ماندرى فى سنة ، وتبلغن مالا نبلغ ، وتدخلن رءوسكنّ تحت أجنحتكنّ من البرد والريح . فهنيئا لكنّ . فأرنى كيف تصنع . فأدخل الطائر رأسه تحت جناحه ، فوثب عليه الثعلب مكانه فاخذه فهمزه همزة دقت عنقه . ثم قال : ياعدوّ نفسه ، ترى الرأى للحمامة ، وتعلمها الحيلة لنفسها ، وتعجز عن ذلك لنفسك ، حتى يستمكن منك عدوّك ثم أجهز عليه وأكله .

فلما انتهى المنطق للملك والفيلسوف إلى هذا المكان سكت الملك .

فقال له الفيلسوف : أيها الملك ، عشت ألف سنة ، وملكت الأقاليم السبعة ، وأعطيت من كلّ شيء سببا ، مع وفور سرورك وقرّة عين رعيتك بك ، ومساعدة القضاء والقدر لك ، فانه قد كَمُلَ فيك الحِلم والعلم ، وزكا منك العقل والقول والنية ؛ فلا يوجد فى رأيك نقص ، ولا فى قولك سقط ولا عيب . وقد جمعتَ النجدة واللين ، فلا تُوجَدُ جبانا عند اللقاء ، ولا ضيق الصدر عند ما ينوبك من الأشياء . وقد جمعتُ لك فى هذا الكتاب شملَ بيان الأمور ، وشرحت لك جواب ماسألتنى عنه منها ، فأبلغتك فى ذلك غاية نصحى ، واجتهدت فيه برأيى ونظرى ومبلغ فطنتى التماسا لقضاء حقك وحسن النية منك بإعمال الفكرة والعقل . فجاء كما وصفت لك من النصيحة والموعظة ، مع أنه ليس الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه ، ولا الناصح بأولى بالنصيحة من المنصوح ، ولا المعلّم للخير بأسعد من متعلمه منه فافهم ذلك أيها الملك ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العلىّ العظيم

انتهى

